مصطفى حامد

15 طلقة في سبيل الله

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ٢٨٨٣٢
الطابع الزمني: ٤٣-٣٦-٢٠-١٨-١٢-٢٠٢٠
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

المحتويات

عن الكتاب

الكتاب: ١٥ طلقة في سبيل الله
المؤلف: مصطفى حامد
المصدر: الشاملة الذهبية

عن المؤلف

مصطفى حامد

١ طلقة في سبيل الله

٢ الفهرس

ثرثرة فوق سقف العالم!
سلسلة كتب من أدب المطاريد
الكتاب الأول ١
بقلم مصطفى حامد

حوادث المجاهدين العرب في أفغانستان
٢٠٠١ - ١٩٧٩ م

١٥ طلقة في سبيل الله

العرب في أفغانستان:

الأحلام الأولى

الخطوات الأولى

الطلقات الأولى

بين فلسطين وافغانستان: مع تميم العدناني في الأرجون وعبد الله عزام في بيشاور

الفهرس

٣ الكاتب في سطور

الكاتب في سطور
مصطفى حامد.

- من مواليد مصر عام ١٩٤٥ محافظة الشرقية/ مدينة بلبيس.
- تخرج من جامعة الأسكندرية كلية الهندسة عام ١٩٦٩
- عمل في الصحافة خلال فترة السبعينات، في عدد من الصحف الأهلية في أبو ظبي.
- كتب عن الجهاد الأفغاني وشارك فية منذ عام ١٩٧٩ قبل التدخل السوفيتي.
- في ١٩٨٥ أقام مع أسرته في باكستان. وعمل هناك مديرًا لمكتب صحيفة الإتحاد الظبيانية حتي عام ١٩٨٦
- أقام في أفغانستان منذ عام ١٩٩٣ وحتي الحملة الأمريكية عام ٢٠٠١ م.
- تعرف عن قرب علي عدد من الشخصيات العربية الهامة التي عملت في القضية الأفغانية مثل الدكتورعبدالله عزام وتميم العدناني وأسامة بن لادن الذي يعتبره صديقًا شخصياً له.
- له مجموعة من الكتب لم تنشر جميعها. وتدور حول تجربة العرب في الجهاد الأفغاني، الذي عاصره منذ بدايته وحتي نهايته. تعرف عن قرب علي حركة طالبان، وأميرها الملا محمد عمر، وربطته بهم علاقة طيبة. من قندهار عمل مراسلا لقناة الجزيرة القطرية لمدة عام، إلي ما قبل الحرب الأمريكية علي أفغانستان.

....

سلسلة من أدب المطاريد:-

٤ كلمات بين يدى أدب المطاريد

كلمات بين يدى أدب المطاريد
· أفضل العقل معرفة الإنسان بنفسه.
· من عرفه نفسه جاهدها.
· ومن عرف نفسه عرف ربه.
· من عرف نفسه كان لغيره أعرف
· أعظم الجهل جهل الإنسان لنفسه.
· كفى بالمرء جهلا أن يجهل نفسه.
وبعد كل ذلك .. كيف ينتصر على عدوه من لا يعرف نفسه؟ _
بل كيف يعرف ربه من لم يعرف نفسه؟
وإذا كان جهلنا بأنفسنا لا حد له .. فكيف نعجب من أن هزائمنا لا حد لها؟ ..
لا شك أن دراسة تجاربنا التاريخية .. القريب منها والبعيد هى من أفضل الوسائل لمعرفة أنفسنا ..
هذا إذا إستخلصنا منها النتائج الصحيحة. فمن لا تاريخ له فلا حاضر له ولا مستقبل.
" الكاتب "
****
جاء فى الأنجيل على لسان السيد المسيح:
) من لم يكن له سيف فليبع ثوبه ويشترى له سيفًا (.

٥ مقدمة

مقدمة
مضى على (فتح كابل) ما يقارب الثلاثون شهرا، وفي هذا المنفى الجبلي في منطقة خوست شرعت في تحقيق حلم قديم هو وضع كتاب عن أفغانستان. وليس هناك أسوأ من هذا التوقيت للكتابة عن أفغانستان. فقد إستدار الزمان وتبدلت المصالح وأسفرت الوجوه عن ملامحها
الأصلية بعد طول تكلف وخداع. وانتهى أحد الفصول الكالحة في لعبة الأمم، تلك اللعبة الشيطانية التي لا تبالي بدين أو دماء. فاز الأقوياء بالغنائم الضخمة، وانتزعوا حتى الفتات من أفواه حلفائهم، ورضى الذين باعوا دينهم بقشور تافهة من حظوظ الدنيا، باعوا بها الدين كما باعوا دماء إخوانهم، وضربوا أمتهم في مقتل وصدموها في عقائدها وآمالها.
مضى الوقت الذي كانت فيه الكتابة عن أفغانستان مشروعا تجاريا ناجحا. طوال عقد الثمانينات كانت أفغانستان هي الحدث الأول على الساحة الدولية وبالتالي الساحة الإسلامية وقرر الغرب بزعامة أمريكا أن يلعب بالورقة الإسلامية لإحراج منافسه السوفييتي.
وأعطيت الأضواء الخضراء كي تنطلق أكبر حملة مساندة في العالم الإسلامي خلال هذا القرن لنصرة الجهاد الأفغاني بالأموال، بدماء الشباب، بالإعلام. وصارت أفغانستان قضية المسلمين الأولى.

وما أن أتم السوفييت إنسحابهم من أفغانستان ثم سقط النظام الشيوعي في كابل بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا، حتى إنقلبت الصورة رأسا على عقب وتبدلت المواقف والتحالفات.
تحول الأعداء إلى أصدقاء، والأصدقاء إلى أعداء، وتحول المجاهد مجرما مطاردا، والمجرمون أصبحوا زعماء مسيطرين وزالت الإيديولوجيات وعم السلام تحت راية القطب الأوحد ولم يتبق للعالم أجمع إلا عدو واحد هو (الأصولية الإسلامية)!!.
وجاءنا نظام (دولي جديد) يدافع عن حقوق الإنسان وحرية التجارة وينشر الديموقراطية، ولا يرى غير الإسلام عدوا لدودا يهدد طريقته المثلى، و يظهر في الأرض الفساد.
أعلن ذلك النظام البشع عن ميلاده على أرض جزيرة العرب عندما وطأتها أورجل الجيوش النصرانية واليهودية، في الحرب التي أسموها حرب تحرير الكويت.
النصر الذي تحقق على أرض أفغانستان ضد الجيش الأحمر السوفييتي أدى إلى هيمنة أمريكية مطلقة على العالم.
أما على الجانب الإسلامي فقد تحول إلى كارثة إسلامية شاملة، في صورة حرب صليبية دولية ضد الإسلام كان أول من دفع ثمنها هو الشعب الأفغاني نفسه الذي أوقدوا على أرضه حربا حزبية قومية تدمر أول ما تدمر آثار الجهاد
بل آثار الإسلام في تلك البلاد، التي شهدت أكبر نصر عسكري للمسلمين منذ عدة قرون.
وأول من دفع ثمن النصر الإسلامي في أفغانستان، هم هؤلاء المتطوعون العرب الذين نالوا النصيب الأوفى من الإضطهاد والملاحقة وتشويه السمعة، سواء من الغرب أومن الحكومات الإسلامية، خاصة في باكستان، أو الحكومة الإسلامية في أفغانستان نفسها.
وتلك أعظم المفارقات وأكثرها إيلاما. ورغم تفوق تكنولوجيا السلاح في الغرب، إلا أن حملاته الإعلامية أشد فعالية وتأثيرا من حملاته العسكرية. ومن الواضح أن المال والإعلام هما السلاحان الرئيسيان في يد اليهود للسيطرة على الغرب ومن ثم العالم بأجمعه.
وقد تسلطت الآلة الإعلامية الدولية على رأس المتطوعين العرب في أفغانستان، حتى صاروا أشد فئات المجرمين الدوليين خطورة في نظر العامة وليس فقط الحكومات.
لقد تشتت ذلك التجمع النادر المثال ولوحق في أصقاع الأرض، ومن تبقى حت الآن في أفغانستان لا يتعدى عدة عشرات يعيش على خوف وتوجس من بوادر إنقلاب إفغانى ضدهم بتحريض أمريكي/ إسلامي!!!
ذلك المجهود الإعلامي الدولي، والذي ساهم في جعل أفغانستان قضية العالم الأولى لأكثر من عشر سنوات، أعمل معاول الهدم في الشعب الأفغاني نفسه وشوه صورته عالميا.
وهكذا فإن من ساهموا في صنع ذلك النصر التاريخي الفريد على أرض أفغانستان قد تحولوا جميعا إلى مجرمين منبوذين على مستوى العالم أجمع يستوي في ذلك العرب والأفغان بينما فازت أمريكا بصدارة العالم بلا منازع وإلى حين إشعار آخر.
في هذا الوقت الكالح والظروف الكئيبة أشرع في كتابة هذا الكتاب. إن توقيت الكتابة يجعل هذا الكتاب مشروعا تجاريا فاشلا. لقد ذهب إلى غير رجعة ذلك
الزمان الذي كان المسلمون والعالم أجمع يقرأون ويتابعون بنهم كل ما ينشر عن أفغانستان.
ورغم أنني حضرت وتابعت المشكلة منذ بداياتها المبكرة (مايو ١٩٧٩ م) إلا أنني امتنعت عن إصدار الكتب رغم إلحاح بعض الزملاء ورواج السوق في ذلك الوقت.
والسبب هو أن متطلبات السوق سواء سوق النشر أو السوق السياسي لم تكن مناسبة بالمرة كي أكتب ما أرى أنه الحقيقة. فإما أن أقول (نعم) لكل ما يحدث على الجانب الأفغاني والحليف له، أو أقول (لا) وأدخل في المعسكر الآخر جملة وتفصيلا.
وكنت أرى أن كلا المعسكرين، (نعم) و (لا)، لا يعبر عن مصالح المسلمين بقدر ما يعبر عن مصالح التكتل الدولي آنذاك. كانت، نعم أو لا، كلاهما يحقق الشهرة والمال معًا.
ومن المؤسف أن موقف المجلات الإسلامية والكتاب الإسلاميين كان يتملق ويستثير عواطف المسلمين، وهو مدخل سهل ورخيص لاكتساب المجد والغنى. ولكن عمليات خداع بهذا الشكل تنتهي دومًا بكوارث مفجعة تضر أجيال المسلمين ومسيرة الاسلام حاضرا ومستقبلا وهذا ماحدث في أفغانستان بكل أسف.

إن قول الحقيقة شيء صعب في الحياة العادية، وتزداد الصعوبة إذا تعلقت الحقيقة بحالة حرب إختلطت فيها عوامل الدين بالمصالح، لأطراف متعارضة في كل شيء.

والبحث عن الحقيقة ومحاولة نشرها علي الملأ في تلك الأحوال إنما هي عملية إنتحار مع سبق الإصرار، لأن المقاومة لهذا العمل لن تأتي من أحد طرفي الصراع بل من كلاهما معا.

إن أطنانا من المطبوعات و مليارات من الجمل طارت في الأثير تتحدث عن أفغانستان لأكثر من عشر سنوات، ومع ذلك فإن حقيقة ما حدث في أفغانستان ما زالت مجهولة لدى معظم الناس، وما زالت عملية البحث عن الحقيقة ونشرها عملية صعبة للغاية وتكاد تكون مستحيلة، لأن بعض أطراف المأساة أو معظمهم ما زالوا نشطين علي مسرح الأحداث ومنغمسين في تصنيع مزيد من المآسي الدامية للمسلمين.

وزاد في الأمر صعوبة تلك الهيمنة الأحادية للولايات المتحدة على شئون العالم أجمع. فاختفي ذلك الهامش الضيق الذي كانت تطل منه الحقيقة من خلال تناقض المصالح بين المتنافسين في الشرق والغرب. تلك الهيمنة الأحادي أوضحت بشكل جلي تلك السيطرة المدمرة للقوى اليهودية على العالم أجمع من خلال سيطرتهم المالية الكاسحة ونفادهم إلى عظام الغرب الإقتصادية والسياسية والفكرية.

علينا في ظل هذه الظروف أن نبحث نحن المسلمون عن الحقائق ونعمل على نشرها والإستفادة منها الآن ومستقبلا في أحد قضايانا الكبيرة في هذا القرن، قضية أفغانستان.

ولا أزعم أن هذا الكتاب سوف يحتوي بين دفتيه علي تلك الحقيقة المنشودة، فذلك مستحيل لأسباب كثيرة. ولكن ما أطمح إليه هو أن يكون هذا الكتاب مجرد شهادة متجردة من جانب أحد شهود تلك المرحلة الخطيرة.

وبالطبع سوف يحمل هذا الكتاب تلك السلبيات الطبيعية لمثل ذلك العمل، مثل محدودية الفترة الزمنية ومحدودية الإحتكاك ومحدودية المعلومات ومحدودية الفهم والتقييم ... الخ.

فلا يمكن إذن الزعم بأن الحقيقة قد جاءت مؤخرا بين دفتي كتاب. وعلى أفضل الظنون فإن هذا الكتاب سوف ينير جانبا من الحقيقة و قد يساعد يوما على إكتشافها.

كما أنه سوف يلقي بعض الضوء على شريحة من هؤلاء البشر الذين إنخرطوا في تلك التجربة وكابدوها.

وإذا قدر لهذا الكتاب أن يرى النور وهذا موضع شك حتى الآن فسوف تكون هناك أجيالا جديدة قد تولت زمام العمل من أجل الإسلام. أجيال سوف تكون أفضل في كل شيء سلوكا وفهما وعملا. وهكذا تبشر الدلائل التي نراها الآن. وللتجربة الأفغانية دورها في صيانة هؤلاء الشباب الذين ما زالوا في بطن الغيب. فالحاضر هو تربة المستقبل التي ينمو عليها ويزدهر.

والتجربة الأفغانية رغم كل شيء قد أثرت إلى درجة كبيرة وربما أكبر من أي تجربة تعيها ذاكرة جيلنا الحالي صياغة الفكر والعمل الإسلامي الذي يتوق إلى تحقيق الإسلام على أرض الواقع، ومهما كانت التبعات. تبقى مسألة أخرى هي مسألة الرياء والسمعة وهو رادع معنوي لكثير من المسلمين عن الكتابة عن أحداث عاصروها وشاركوا فيها. ويزداد هذا الرادع إذا إضطر الشاهد أي الكاتب أن يستخدم صيغة المتكلم، وهو أسلوب غير محبب، ولكنه قد يصبح ضروريا في مثل هذه الحالات خاصة إذا كان سيجنب القارئ الكثير من الغموض ويجعل الصورة لديه أكثر وضوحا وفي حالتنا هذه أرجو أن لا يكون للرياء نصيب ولهذا أيضا أسباب.

فالكتابة عن الإسلام عامة والجهاد بشكل خاص لم يعد بالموضوع المقبول في الدوائر الدوليةوالسلطات الإسلامية، إلا إذا كان الموضوع يتملق تلك الدوائر ولا يجرح مشاعرها، أي أن الكاتب عليه أن يكذب على الله ورسوله أو أن يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق عن علم إذن فمثل هذا الكتاب لن يرضي القوي

اليهودية التي تحكم العالم الآن بما فيه بلاد المسلمين كما أنه لن يرضي قوى وجماعاتإسلامية نافذة، إرتكبت أخطاء فادحة في تعاملها مع القضية الإسلامية في أفغانستان، ووظفت مساحتها في العمل الإسلامي العام لصالح قوى الغرب وليس لمصالح الأمة الإسلامية، وكانت صفقة خاسرة لهم وللمسلمين. إذن هذا الكتاب لن يجد أصدقاء لا على المستوى الدولي ولا على مستوى القوى الإسلامية المؤثرة على ساحةالعمل الإسلامى. والحال هكذا، فالأرجح إن ترقد تلك الأوراق فى قاع أحد الأدراج حتى تأكلها الفئران والعتة أو أن يجعل

الله لها فرجا وتتغير الأحوال السائدة ويقيض الله لها من يتولي طباعتها ونشرها، ربما كمخطوطة تاريخية وأثر يحمل عبق الماضي.
ويومها سوف يكون كاتب هذه المخطوطة قد أفضى إلى ربه حيث لا ينفعه رياء ولا سمعة.
إنها صرخة في واد قد تصل في وقت ما إلى أذن ما ... فإن أفادت فذلك من فضل الله، وإن لم تفد فذلك قدر الله، ويبقى كونها شهادة من شخص ما، كان هناك في ذلك المكان الذي شهد واحدا من أضخم أحداث العصر، وواحدة من أكبر وأهم معارك المسلمين خلال عشرات بل مئات من السنين أي منذ توقفت الحروب الجهادية في حياة أمتنا، وتهاوت دولة الإسلام ورابطة الخلافة.
مصطفى حامد

٦ تعليقات بعد الحرب الأمريكية) م 2001 (

تعليقات بعد الحرب الأمريكية) م ٢٠٠١ (:
كتبت فى معسكر الفاروق خوست
الأحد ٧ أغسطس ١٩٩٤ م
-١ كتبت هذا الكتاب الأول من سلسلة أدب المطاريد، فى معسكر الفاروق وشقيقه معسكر (جهاد وال)، وهما من معسكرات العرب التى بقيت من حقبة الحرب السوفييت.
وبعد حوالى أربعة سنوات من كتابة هذه المقدمة قصفت أمريكا هذين المعسكرين مع معسكرات آخرى أفغانية وباكستانية بحوالى مئة صاروخ كروز ردًا على تفجير سفارتيها فى نيروبى ودار السلام فى ٨ أغسطس ١٩٩٨ م. لقد إستغرق الفراغ من هذا الكتاب حوالى عام واحد تقريبًا.
-٢ حواشي وتعلقات هذا الكتاب التي كتبتها بعد إحتلال أمريكا لأفغانستان - أى أن أنها لم تكتب فوق سقف العالم بل من جوف أحد السجون، سوف تظهر في الكتاب بخط مائل علي النحو الوارد في هذه الفقرة.
-٣ فى تلك السلسلة من) أدب المطاريد (كان الحرص منصب على توصيف " الحالة الأسلامية" على ماهى عليه وقتها، ليس فقط من جهة الأحداث والوقائع، بل أيضًا من جهة الأفكار والآراء، رغم أن العديد منها قد ناله التطوير أو حتى التبديل خاصة ما يتعلق منها بالكاتب). لذا لا تحتوى هذه الكتب على أى) حكمة ذات أثر رجعى (، فكل شيئ على نفس حاله وقت حدوثه باعتباره جزء من تاريخ المسلمين، الذى يمتلكه كل واحد منهم، أيًا كان -رأيه فى تلك الأحداث، وموقفه من المشاركين فيها وآرائهم.
-٤ المصطلح الاسلامى اصبح - وبشكل متزايد - غريبًا مستغربا فى الكتابات السياسية وغيرها ... لذا تعمد الكاتب إستخدامه) أحيانًا (عن سبق إصرار وترصد حتى لو إعتبره البعض مصطلحا يًخدش الحياء المنافق لمصطلحات الثقافة الغربية، التى سادت على نطاق العالم وطالت حتى الكتابات الإسلامية التى أصبحت محاصرة ومتهمة بل ومطاردة.

٧ الفصل الأول بين أفغانستان وفلسطين

الفصل الأول
بين أفغانستان وفلسطين
لماذا ذهبت إلى أفغانستان؟. سمعت هذا السؤال مرات عديدة، من أصدقاء وزملاء ومعارف ومن أناس لا أعرفهم. كما سمعته أثناء عودتي من رحلتي الأولى لأفغانستان عندما سألني شاب أفغاني غاضبا: (أنت ليش يجي هون؟ ليش ما تسوي جهاد في فلسطين)؟.
قالها هكذا بعربية ركيكة شائعة في منطقة الخليج. كان السؤال مفاجئا ومثيرا لكثير من الأوجاع. مرافقنا الأفغاني قدم إعتذاره لي ولزميلي وإتهم السائل
بأنه) منافق (.

وفي بداية عام ١٩٨٣ م كتبت كتابا صغيرا عن أفغانستان كانت تغلب عليه الرومانيسية وسألت صديقا له باع طويل في الكتابة أن يقرأه ويكتب لي ملاحظاته. وكانت أول ملاحظة في القائمة هي: (لماذا ذهبت إلى هناك)؟.

ومن حسن حظ القراء أنني لم أنشر ذلك الكتاب، ومازال راقدًا في أحد الأدراج بعد أن فقد بعض أجزائه.

كنت مازلت شابا في الرابعة والثلاثين من عمري عندما ذهبت لأول مرة إلى أفغانستان وكنت في العام السابق لذلك قد تطوعت للقتال ضد اليهود في جنوب لبنان في صفوف منظمة فتح إثر الإجتياح الإسرائيلي للجنوب عام ١٩٧٨ م.

كانت لي لحية صغيرة وأنيقة في ذلك الوقت وسبق لي الحج مرتين، لذا فقد كانت إجابتي بأنني مسافر من أجل (الجهاد في سبيل الله) مقنعة تماما للبعض بل ومصدر سعادة لهم.

أما الأكثر) حيطة وذكاء (فقد وضعوا إفتراضات عديدة منها أنني قد تزوجت بإمرأة أخرى في أفغانستان أو باكستان. وقال آخرون بل لقد ناء بمسئولياته العائلية وكثرة أبنائه فهو يريد التخلص من حياته.

وقال لي أحد بلدياتي: إنهم يقولون عنك أنك تسافر إلى تلك البلاد بهدف الإتجارفي المخدرات!!!!.

أما هؤلاء الأكثر ثقافة فقد وضعوا نظرية أكثر حداثة تقول: القضية الأفغانية ما هي إلا لعبة أمريكية ضد المعسكر الإشتراكي والأفغان عملاء لأمريكا والإمبريالية، أما هو فليس إلا مثلهم.

عندما بدأ تواجد المجاهدين العرب في أفغانستان يصبح ملحوظا، كنت قد بدأت رحلتي في سن الأربعين وما بعده. كانوا في أغلبهم في العشرينات من العمر ويندر فيهم من تخطى الثلاثين.

وقد أثر ذلك في علاقتي بهؤلاء الذين مثلوا ظاهرة فريدة في ذلك العصر، وكان فارق السن إضافة لعوامل كثيرة سيأتي ذكرها سببا في كون العلاقة لم تكن مريحة أو مثمرة.

في البداية كنت أنظر حولي وأشعر بغضة ألا أجد أحدا من أبناء جيلي. لذلك شعرت بالفرح عندما قابلت الشيخ عبد الله عزام لأول مرة في بيشاور في سبتمبر ١٩٨٤ م.

كان من نفس الجيل وإن كان أكبر مني بثلاث سنوات، يومها شعرت أنني لست وحيدا. ولكن لسوء الحظ، فإن اختلاف رؤيتنا للأحداث ومواقفنا منها أدى لأن تكون علاقتي معه فاترة ومتحفظة وإن سادها الإحترام المتبادل.

هناك خيط مشترك يربط أبناء الجيل الواحد مع بعضهم البعض بسبب معايشتهم لنفس الظروف و الأحداث. لهذا كان هناك قدرا مشتركا لا بأس به بيني وبين الشيخ عبد الله عزام تجاه قضية أفغانستان والموقف منها بشكل عام.

وكان أكبر نقاط التنافر بين مواقفنا هو تقييم قادة الأحزاب الأفغانية ودورهم في القضية. فبينما مضى هو إلى أقصى حد في تمجيدهم خاصة الثلاثي: سياف، حكمتيار، رباني، ذهبت أنا إلى الطرف المناقض تمامًا.

لقد كنت متفقا مع الشيخ عبد الله على أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة أمام الأمة الإسلامية للدفاع عن دينها ومصالحها في مواجهة القوى المتكالبة عليها، وأن المعركة الرئيسية للمسلمين هي معركتهم مع اليهود والصليبية المتحالفة معهم. وأن أفغانستان هي فرصة نادرة لمسيرة الجهاد التي ينبغي أن تستمر وتتصاعد وأن تكون أفغانستان هي المدرسة الكبرى للممارسة العملية على نطاق الأمة.

إن جيلنا كان وافر الحظ مع الحروب. فقد جاء جيلنا إلى الحياة مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقبل أن يدرك ما حوله نشبت حرب ١٩٤٨ م بين اليهود والعرب وضاعت معظم فلسطين وظهرت إسرائيل كأبشع حقيقة سياسية في حياة العرب المعاصرين.

تلتها سلسلة من الإنقلابات في العالم العربي كرست عملية الإنتقال من التبعية للإستعمار البريطاني والفرنسي إلى التبعية الجديدة للإمبريالية الأمريكية، ثم جاءت حرب ١٩٥٦ م بين مصر من جانب وإسرائيل مدعومة بفرنسا وبريطانيا من جانب آخر.

وفي عام ١٩٦٧ كانت أبشع الهزائم العربية في التاريخ الحديث أمام إسرائيل وضاعت بقية فلسطين مع مساحات شاسعة من الأراضي المصرية والسورية. وفي عام ١٩٧٣ م كانت حرب (التحريك) بين مصر وسورية من جانب وإسرائيل من الجانب الآخر وفعلا تحركت المنطقة نحو مسيرة طويلة للتسوية السلمية مع إسرائيل لتنتهي بها إلى إستسلام كامل للهيمنة الإسرائيلية على كامل المنطقة

العربية مع إعتراف بالقطب الأمريكي المسيطر الأوحد على الساحة الدولية.
وفي أبريل ١٩٧٨ م كان الإنقلاب الشيوعي في أفغانستان تلاه الغزو السوفييتي في ديسمبر ١٩٧٩ م، وبدأ نجم الجهاد في أفغانستان يبزغ على إستحياء حتى تلقفه الدوامة الدولية.
ولمدة عشر سنوات كان الجهاد والمجاهدون في أفغانستان هم حديث الساعة عالميًا. بدا لنا أن الفرصة سانحة وأن الراية التى رفعت فى جبال أفغانستان ينبغى أن تظل خفاقة حتى النصر وأن تواصل المسير فى الآفاق حتى تعود للمسلمين دولتهم وعزتهم.
هكذا كنا نحلم - وفي هذا الإتجاه حاولنا أن نعمل - أما النتائج فكانت شيئا آخرًا.
كانت هناك عدة فروق بين الحرب في أفغانستان والحروب التي شهدتها المنطقة العربية مع إسرائيل.
وهي فروق أدهشت الشعوب العربية وجعلت الإسلاميين فيها ينجذبون إليها. لقد قام الأفغان ضد حكومة شيوعية مدعومة بقوة عظمى ومع ذلك لم يستسلموا بل تصاعدت مقاومتهم.
رفع الأفغان شعار الجهاد فأجج ذلك مقاومتهم وأكسبهم تعاطف المسلمين في كل مكان.
ولما كان جيلنا قد أدرك متأخرا أن الحروب العربية الإسرائيلية إنما هي حروب من جانب واحد تواطأت فيها الحكومات العربية التي لا تتولى السلطة إلا بموافقة ومساعدة القوى الغربية وذلك لفرض الهزيمة على الشعوب العربية وتكريس سيادة إسرائيل على المنطقة.
لهذا صار لزاما على هذه الحكومات أيضا أن تعمل ضد الإسلام نفسه، وتعمل على إضعافه أوإقتلاعه من المنطقة حتى يسهل إستقرار وسيطرة اليهود عليها.
رغم صغر حجم إسرائيل وقلة سكانها من اليهود إلا أنها استطاعت أن تفرض إرادتها على دول المنطقة، وجيوشنا كانت سريعا ما تنهزم وتفر أمامهم في ميادين القتال وإذا قاتلت فلأيام معدودة يبدأ بعدها سيل من الإتفاقات وعهود السلام.
والشعوب ضعفت عقيدتها وانهارت معنوياتها وأصبحت تقبل بأي شيء في مقابل إستمرارها في حياتها المهينة.
ثم جاءت أفغانستان لتقدم صورة مناقضة تماما لتلك الصورة العربية الكئيبة. في أفغانستان شعب خشن ذو عزيمة وتصميم يقاتل لأجل الإسلام، ويتحمل أهوالا تعجز الجبال عن تحملها، والأعجب أنه يحقق إنتصارات ضد أقوى جيوش الأرض، الجيش السوفييتي.
إنه الصورة المناقضة لحالنا، والحلم الذي يراود المسلمين يتحقق أخيرا. لقد تخيلنا أن الأمل بدأ يتحقق، ومن أفغانستان سوف تخرج جيوش الفتح الإسلامي.
لهذا جئت إلى أفغانستان، وجاء غيري مئات وآلاف من الشباب، لتبدأ ملحمة العرب في أفغانستان، كواحدة من أغنى تجاربنا الإسلامية الحديثة. منذ تسلطت دول الغرب الإستعمارية على بلاد المسلمين، وهدفها الأول إضعاف الإسلام في نفوس الناس مع إستبعاده من الحياة العامة وعزله في المساجد والمدارس الدينية التي تسيطر عليها الحكومات الموالية للغرب.
وكانت تلك السياسة على أشد فى البلاد العربية لكونها مهد الإسلام ومحضنه الطبيعي وقبلة المسلمين من غير العرب.
وبعد إستبدال الإستعمار البريطاني والفرنسي، بالإمبريالية الأمريكية وحصول الدول العربية الممزقة على إستقلالها الشكلي، إستمرت السياسة نفسها ضد الإسلام وبشكل أشد ضراوة على أيدي الحكومات الوطنية، التي تبنت العلمانية وأعلنت الحرب على الشريعة الإسلامية، حتى وصفها البعض بالأنظمة المرتدة
فتراجعت الروح الإسلامية للشعوب وساد الجهل بتعاليم الإسلام. وسيطرت الدولة على التعليم الديني والعلماء فانعزلت المؤسسة الدينية الرسمية عن المسلمين وفقدت ثقتهم.
ومن ذلك الوقت بدأت الحركة الدينية الشعبية، التي كانت بدايتها الكبرى مع الشيخ حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين، التي ما زالت منذ تأسيسها تمثل التيار الأكبر حجما والأكثر تنظيما بين تيارات التحرك الإسلامي الشعبي. رغما عن أي سلبيات شابت التحرك الإسلامي الشعبي فإنه قام بدور تاريخي هام في الدفاع عن الإسلام والحفاظ على شعائره وتعاليمه والدفاع عنه ضد مختلف الحملات المرتدة، سواء الحملات الفكرية والثقافية أو الحملات البوليسية القمعية. وقد دفعت تلك الحركات ثمنا غاليا جدًا من دماء وأرواح أتباعها وكوادرها.

من بين فرائض الإسلام كان الجهاد الأوفر حظا، فقد ركز الغرب (وحكومات الردة الوطنية) على استئصاله من حياة المسلمين بل ومن قاموسهم الديني. حتى أن الدول الإستعمارية الغربية قد ساعدت على إنشاء فرق إسلامية مهمتها مقاومة فكرة الجهاد والعمل على إبطالها عمليا ونظريا.

ولما جاء الشيخ حسن البنا رحمه الله كي يضع في شعار جماعته تلك العبارة الشهيرة. (الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا)، كان ذلك يعني إعلان الحرب على الإحتلال البريطاني والنظام الملكي في مصر. وفي ظني أن قرار إغتياله قد أصدره الإنجليز من يوم أن رفعت الجماعة الإخوان ذلك الشعار.

وعندما نشبت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م كان الجهاد مازال حيا في الذاكرة الشعبية للعرب، وتبنته جزئيا وسائل الإعلام العربية في ذلك الوقت من خلال الأغاني والأناشيد الحماسية.

وكما حدث في حرب أفغانستان بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما بادر الغرب وحكومات العلمنة الوطنية في وضع مخطط لإجهاض العمل الجهادي الشعبي، وتسخير مجهوده لصالح الكفار أنفسهم ثم البطش والتنكيل بالمجاهدين.

وضع الإنجليز مخطط حرب فلسطين، بهدف إخراج الهزيمة بشكل مسرحي تشارك فيه (حكومات الردة الوطنية) عن عمد بهدف تحطيم معنويات الشعوب ودفعها تدريجيا للإستسلام لليهودية الدولية. وأعطى هذا المخطط ثمارا يانعة في السبعينات وحتى الإستسلام الكامل لليهود في التسعينات من هذا القرن.

لقد كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م تجربة غنية للعمل الإسلامي مليئة بالدروس والعبر.

ولكن للأسف عندما خاض المسلمون في التجربة الأفغانية لم يستفيدوا من تلك الدروس وكرروا الأخطاء بل زادوا عليها ثم تعرضوا لنفس النكسات والضربات الأليمة و بالطريقة نفسها تقريبا مع تحويرات تتناسب والتغيرات في الزمان والمكان والملابسات المحيطة.

لقد كانت بريطانيا هي القوة المهيمنة على كل الحكومات العربية والمحتلة لأكثر الدول ـ العربية المحيطة بفلسطين، ونفذت بريطانيا مخططها في فلسطين وفي الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ م عبر الحكومات العربية التي دخلت الحرب بسبعة جيوش.

وفي الحالة الأفغانية كانت أمريكا منذ عام ١٩٨١ م هي القوة المهيمنة على الحرب الأفغانية، وتحركت مع مجموعة من الحكومات خاصة الحكومة السعودية والباكستانية.

وكانت أدواتها على الساحة الأفغانية هي الأحزاب الأفغانية المسماة بالمنظمات الجهادية وعددها سبعة منظمات، وهو نفس عدد الجيوش التي دخلت حرب فلسطين تحت إمرة الجنرال جلوب باشا الإنجليزي. وقد تحكمت المخابرات الأمريكية إلى درجة كبيرة بالعمل القتالي في أفغانستان بواسطة جها المخابرات الباكستاني (آي، إس، آي) والذى أنشأه ضياء الحق عام ١٩٧٩ م بهدف التدخل في أفغانستان التى تحولت إلى الشيوعية. في الحالتين دخلنا الحرب بقيادة جنرالات كفرة أو (أشباه مسلمين).

ومع هذا لم تستطيع الولايات المتحده أن تحكم سيطرتها على جهاد الشعب الأفغانى بنفس القدر الذى أحكمت به بريطانيا سيطرتها على الجيوش العربيه فى فلسطين.

فالجيوش العربية الضعيفة التجهيز والمعنويات، والشعوب العربية المقهورة بحكومات مستبدة والبعيدة عن دينها، كان من السهل، ومازال، إيقاع الهزيمة بها وإرغامها على تجرعها حتى الثمالة، ثم القبول بالأمر الواقع. أما الشعب الأفغانى ذو الطبيعة القتالية، والتركيب القبلى، والمتمرس على القتال و

المتعصب لدينه، فكان التحكم به صعبا، لذلك إستطاعت القوى الإسلامية المخلصة في أفغانستان رغم التعب الذي أصابها، أن توقع الهزيمة بالسوفييت ثم أسقطت النظام الشيوعي في كابل. كل ذلك رغما

عن كل المحاولات الأمريكية للخروج بنتيجة لا غالب ولا مغلوب ثم تشكيل حكومة علمانية تقود البلاد تحت نفوذ أمريكي سوفيتي مشترك.

كانت حرب فلسطين في حقيقتها هي (دعوة إلى وليمة الهزيمة).

بريطانيا هي صاحبة الدعوة والجيوش العربية السبعة هم ضيوف الشرف. فما هو دور المتطوعين المسلمين؟ ... ولماذا سمحت لهم بريطانيا بالمشاركة؟ سمحت بريطانيا للإخوان المسلمين بالمشاركة العسكرية في فلسطين حتى يصبحوا شركاء: -

أولا: في الهزيمة المنتظرة فلا يكون لهم فضل على الأنظمة ولا يزايدون عليها بإسم الإسلام.

إستطلاع عمق الشعور الجهادي داخل الجماعة وفي صفوف الشعوب العربية.
ثانيا: كشف العناصر الناشطة إسلاميا والفاعلة جهاديا وتقديمها إلى صفوف القتال للقضاء عليها
ثالثا: وقد كان المجاهدون من صفوف الإخوان يكلفون بأخطر المهام القتالية في ميدان القتال. ويعلم الإنجليز بخبرتهم العسكرية أن الإخوان كقوات فدائية سوف يصابون بأعلى الخسائر في الأرواح. وكان ذلك هو المطلوب. بعد إشراكهم في الهزيمة وتقديمهم قرابين بشرية لنيران اليهود، تتكفل أجهزة الأمن رابعا: المصرية وغيرها بتصفية الباقين في المعتقلات وعلى أعواد المشانق. فقبل قليل من إنتهاء الحرب صدرت الأوامر للجيش المصري بنزع سلاح كتائب الإخوان المسلمين. فقام ضباط الجيش المصري بنزع سلاح زملائهم من وحدات الفدائيين المسلمين، الذين قاتلوا إلى جانبهم وأنقذوهم من عشرات المآزق القاتلة ومن الهلاك في حصار الفالوجا وغيرها. ثم وضع ضباط الجيش المصري زملائهم من كتائب الإخوان المسلمين في سجون الوحدات العسكرية حتى إستلمتهم السلطات المصرية ووضعتهم في معتقلات نائية بدون أن تسمح لهم حتى بالعودة إلى الوطن لزيارة عائلاتهم. أي من الجبهة إلى المعتقلات ...
والغريب أن هؤلاء المتطوعين في فلسطين قد إستمر إعتقالهم وإضطهادهم حتى جاء الإنقلاب العسكري عام ١٩٥٢ م. (ثورة يوليو) فلفقت لهم القضايا وتم إعدام عدد منهم واعتقال آخرين تحت ظروف التعذيب الوحشي حتى قتلوا. ولم ينج منهم إلا أفراد قلائل فروا من مصر قبل إعتقالات عام ١٩٥٤ م، ولم يتمكنوا من العودة إليها مرة أخرى رغم مرور عشرات السنين على حرب فلسطين.
أما عناصر الإخوان الذين لم يشاركوا في القتال فقد سمح لهم السادات في بداية عهده بالعودة إلى مصر في إطار معين للحصول على لقب الرئيس المؤمن.
وكان ذلك نصف الطريق المرسوم له من الغرب، أما النصف الآخر فقد أنجزه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ م بحصوله على لقب بطل الحرب والسلام. عندئذ صار الطريق مفتوحًا أمامه لتوقيع إتفاقية الإستسلام مع إسرائيل بصفته الكاملة وهي: "الزعيم المؤمن بطل الحرب والسلام".
أي أنه في حالتي الحرب ١٩٤٨ والسلام ١٩٧٧ م كان الإسلاميون عرضة للإستغلال من جانب الغرب، وحكومات العلمانية الوطنية، في تنفيذ مخططاتهم ضد الإسلام في المنطقةالعربية.
هذا ما حدث مع الإسلاميين في قضية فلسطين فماذا حدث معهم في قضية أفغانستان؟
إن التشابه كان مدهشا بين الحالتين:
لقد بدأ تسرب المجاهدين العرب إلى أفغانستان، وكان هناك في البداية تضييقا على حركتهم نحو الحدود الأفغانية
وكان حكم الجنرال ضياء الحق في باكستان لا يرغب في تصعيد إجراءات منع العرب من النفاذ إلى أفغانستان من أجل الجهاد وذلك لأسباب داخلية كثيرة، ولتحالفه في ذلك الوقت مع التيار الإسلامي في باكستان لمواجهة المد الشيوعي والعلماني المتحالف مع الهند وموسكو من أجل إسقاط نظام حكمه.
وقررت أمريكا مع زيادة تورطها في القضية الأفغانية أن تلعب بالورق الإسلامية في مواجهة موسكو لإحراجها في كل العالم الإسلامي. وللإستفادة من دماء المسلمين المبذولة بسخاء في ميادين الجهاد وأموالهم المتدفقة لمساعدة المجاهدين كي تخوض أمريكا حلقة في إطار الحرب الباردة لا تكلفها شيئا تقريبا.
وقررت أمريكا أن تقوم الخزينة السعودية بتمويل الحرب في أفغانستان، أما الدماء في المعارك فسوف يتسابق المجاهدون العرب والأفغان لبذلها في سبيل الله.
أما أمريكا فدورها التوجيه والتخطيط ثم جني الثمار وحدها فقط وإن إستدعى ذلك قتل شركائها. فقتلوا ضياءالحق ثم تميم العدناني ثم عبد الله عزام ثم دمروا التواجد الجهادي العربي في باكستان وأفغانستان بحملات بوليسية وإعلامية مركزة.
والإشتراطات الأربعة التي وضعتها بريطانيا لمشاركة المجاهدين العرب في حرب فلسطين كانت هي نفسها الإشتراطات التي وضعتها أمريكا لاشتراك المجاهدين العرب في أفغانستان. ولنستعرضها مرة أخرى في الحالة الأفغانية.
أولا: تصورت أمريكا أن دعوة المتطوعين العرب للجهاد في أفغانستان هي دعوة على مائدة الهزيمة لأن خيوط القيادة والتوجيه تنتهي إلى اليد الأمريكية والقرار الأمريكي، ولأن اللاعبين الرئيسيين هم من الأتباع المخلصين إما لأمريكا مباشرة: باكستان و السعودية

ثم مصر. أو أتباع مخلصون لأتباع آخرين مخلصين مثل قادة المنظمات الجهادية الأفغانية، وكلهم تابع لهيئة الإستخبارات الباكستانية (آي، إس، آي). ويتلقى أوامره اليومية ومساعداته من أموال وأسلحة من أيدي موظفي الحكومة الباكستانية.

ثانيا: أرادت أمريكا أن تسبر غور التيار الإسلامي في المنطقة العربية بعد سنوات من الإنفراج النسبي في العلاقة معه، وأن تكتشف عمق المشاعر الجهادية والناشطين جهاديا باعتبارهم أول خصومها في المنطقة وأكبر المخاطر على إسرائيل ومشروعها الشامل للسيطرة.

ثالثا: أن القتال في أفغانستان لن يكون نزهة على أية حال، والمتطوعون العرب المملوءون حماسًا وغير المدربين وغير المنظمين لن يكونوا سوى فريسة سهلة للنيران السوفييتية. وهذه أرخص السبل وأسرعها للقضاء عليهم قضاء إختياريًا لا يحرج أحدا من الحكومات. وعلى هذا الأساس سهلت

الحكومات العربية خروج شبابها للجهاد في أفغانستان، وقدمت بعضها تسهيلات كبيرة.

رابعًا: إذا استطاع أحد من المتطوعين العرب أن ينجو من نيران الجيش الأحمر، فإن جيوش المخابرات في أنظمة الردة سوف تتولى أمره كالمعتاد. ويمكن تلخيص تلك الخطوات الأربعة بأربعة عناوين هي:

إستدراج إستطلاع إغتيال تصفية.

خطوات أربعة تكررت كما هي ضد المجاهدين العرب في فلسطين ثم في أفغانستان على أيدي نفس الفئات: اليهود والصليبية والمرتدون. فكم من المرات سوف نلدغ من نفس الجحر؟.

دعنا نتأمل في بند التصفية لنرى مكوناته وكيفية تنفيذه في الحالتين: حرب فلسطين والحرب الأفغانية.

أ لقد شملت التصفية في الحالة الفلسطينية في أول لحظة المقاتلين الإسلاميين، وفور أن إنتهت الحرب، ولم يسمح لهم أن تطأ أقدامهم أرض الكنانة، فقد إعتقلوا داخل الوحدات العسكرية العاملين معها.

ب وبعد فاصل زمني قصير أصدرت الحكومة قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين وإغلاق مراكزها وإعتقال جميع المنتمين إليها.

ج ثم كانت الخطوة الأخيرة هي إغتيال قائد التنظيم، الشيخ حسن البنا، في أحد شوارع القاهرة أمام المقر الرئيسي للإخوان. وقد تمت الخطوات الثلاث خلال عدة أشهر.

ومن المعلوم أن مشاورات مكثفة حول برنامج التصفية قد جرت بين الدول الثلاث: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا.

وبالطبع فإن إسرائيل والقوى اليهودية العالمية كانت هي الموجه الرئيسي لتلك الإجتماعات.

إذن فأهداف التصفية ثلاث عناصر:

أ المقاتلين
ب التنظيم
ج القائد

والقائمون على التصفية ثلاث فئات هم:

أ اليهود للتوجيه والتحريض
ب الصليبيون للتخطيط.
ج المرتدون للتنفيذ والتمويل.

وقد يتعجب البعض من كون التمويل هو من نصيب المرتدين وليس الصليبيين أو اليهود. ولكن هذا ما حدث في الحالتين الفلسطينية والأفغانية. فميزانية الدولة

المصرية تحملت تكاليف عملية تصفية الإخوان المسلمين عام ١٩٤٨ م وما تلى ذلك من حملات. أما في الحالة

الأفغانية فإن ميزانية الدولة السعودية قد تكلفت بسداد جميع الفواتير التي أمرت الولايات المتحدة الحكومة السعودية بسدادها.

ولننظر إلى برنامج تصفية المجاهدين العرب في أفغانستان لنرى أوجه التشابه والإختلاف بين الحالتين.

أ بدأت عملية التصفية بقتل الشيخ عبد الله عزام في بيشاور نوفمبر ١٩٨٩ م أي بعد إنسحاب الروس من أفغانستان بتسعة أشهر فقط. كان ضياء الحق قد اغتيل في أغسطس من نفس العام، كما أغتيل مساعد الشيخ عبد الله عزام وهو تميم العدناني، أثناء علاجه فى

أمريكا، قتلوه بالسم وظهرت الوفاة طبيعية.

ب أما تصفية المقاتلين والتجمع العربي في باكستان فكان من المفترض أن يعقب عملية إغتيال الشيخ عبد الله عزام مباشرة في صورة حملة إعتقال شاملة. ولكن حساسية وتعقيد الوضع السياسي في باكستان وأفغانستان والحرب الدائرة في أفغانستان جعلا العملية مستحيلة فأحجمت عنها حكومة باكستان، ولم تتح الفرصة إلا بعد انتهاء الحرب الأفغانية فبدأت حملة ١٩٩٣ م أعقبتها حملات نفسية وبوليسية أسفرت عن نتائج /٤/ شاملة ضد العرب في ٥ حتى وقت كتابة هذا الكتاب هي:

تصفية الجانب الأعظم من التواجد العربي الجهادي في أفغانستان ولم يتبق إلا أفراد قلائل مشتتون.

تصفية التجمع العربي في بيشاور وتم إستبداله بمجموعات من الموظفين العرب العاملين مع هيئات الإغاثة العربية.

لقد سجنت الحكومة الباكستانية عشرات من المجاهدين العرب وأبعدتهم خارج البلاد، وفرت عشرات الأسر العربية إلى الخارج وتم تلفيق عدة قضايا مخدرات لعدد من المجاهدين العرب، وتم البرنامج تحت رعاية مباشرة من السفير الأمريكي في باكستان مع لجان أمنية عربية وإسرائيلية.

إن برنامج التصفية في الحالة الأفغانية قد شارك فيه:

أ إسرائيل والقوى اليهودية العالمية.

ب الولايات المتحدة التي أصبحت القوة الأولى في العالم بعد هزيمة السوفييت في أفغانستان.

ج المرتدون وأهمهم الحكومة السعودية، النظام المصري، الحكومة الباكستانية كما شارك النظام التونسي والجزائري كقوى ثانوية تطالب برؤوس رعاياها في باكستان وأفغانستان.

لقد تعهد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش بعد إنتصاره على العراق في مسرحيته الهزلية، حرب تحرير الكويت"، صرح بأن بلاده سوف تطارد "العرب الأفغان" كما أسموهم في صحاري العالم.

إنها نفس السياسة، فكما أن مجاهدي الإخوان في فلسطين دفعوا وما زالوا يدفعون الثمن حتى هذه اللحظة، فإن المجاهدين العرب في أفغانستان العرب الأفغان سوف يطاردون في أقطار الأرض وليس في بلدانهم فقط.

وهناك أحداث تشير إلى أن عملية الملاحقة ضدهم فى العالم كله مستمرة.

فأجهزة الإستخبارات في أوروبا صرحت علانية أنها تراقب العرب الذين وفدوا إليها من باكستان بعد طردهم من هناك، وأنها سوف تطارد المتطرفين منهم وتعتقلهم.

أما في البلاد العربية فالأمر لا يحتاج إلى تعليق فهناك حاليا قانون في مصر يتكفل بإعدام كل مصري جاهد في أفغانستان. ولم يتبق ملجأ لهؤلاء المجاهدين حاليا غير السودان واليمن.

وتعيش هاتان الدولتان في ظل حصار وتآمر دولي شديد، فقد أشعلت أمريكا وحلفاؤها حربا أهلية في اليمن لتقسيمها ولكن خطتهم فشلت. أما السودان فيعيش في ظل حصار اقتصادي دولي خانق، وحرب في الجنوب تمولها السعودية والصليبية الدولية.

إن مطاردة المجاهدين العرب في فلسطين وأفغانستان هو قرار لا يتقيد بمدة محددة. ورغم أن القانون الوضعي يسقط التهم بعد مرور فترة من الزمن عشرون عاما إلا أن مجاهدي فلسطين ما زالوا ممنوعين من دخول مصر حتى الآن، رغم أنهم الأن تخطوا الخامسة والستين من العمر. ومنذ شهرين فقط سمحوا لأحدهم أن يدخل مصر وهو في حالة احتضار كي يموت هناك بعد أيام من وصوله، وكانت حالة استثنائية نادرة.

رأينا كيف أن الجهات التي تآمرت ضد المجاهدين العرب في فلسطين وأفغانستان هي نفس الجهات، وأن مخططهم هو نفسه من حيث الجوهر. والعمل الإسلامي الجهادي كان واحدا من نفس الجوهر وهو خروج جماعات من شباب المسلمين لنصرة إخوانهم في الدين، ولكن خارج الحدود الوطنية التي فرضتها عليهم الصليبية الدولية بعد إنهيار الدولة العثمانية آخر خلافة للمسلمين.

ولقد جوبه هذا التحرك الإسلامي بقمع دولي.

لأنه من وجهة النظر الصليبية فإن العمل الإسلامي ينبغي أن يحترم الحدود الوطنية التي وضعها الصليبيون.

وحتى إن أمكن، ينبغي أن يكون للجهاد فهما وطنيا، فأطلقوا مصطلح "الجهاد الأفغاني" لإكساب الجهاد صبغة وطنية وذلك لأول مرة في تاريخ المسلمين. والعجيب أن وسائل إعلام الجماعات الإسلامية إستخدمت المصطلح المشبوه كما هو.

ولكن تدفق المتطوعين العرب قد أبطل المكيدة وأعطى الجهاد مفهومه الإسلامي الأممى الصحيح، كحرب عقائدية وليست حربًا وطنية. (¬١)

____

(¬١) لأجل هذا تحارب أمريكا المجاهدين. خاصة من كان فى أفغانستان، باسم مكافحة الإرهاب الدولى وحتى الجهاد الوطنى كما فى فلسطين وجنوب لبنان أصبح هو الآخر مشمولا بتلك الحرب أى أن، الإله الأمريكى، قرر لنا أن لا جهاد فى الاسلام بعد اليوم. وصدر المرسوم فى ١١ - ٩ - ٢٠٠١

والملاحظ أن المجاهدين العرب في أفغانستان لم يستفيدوا من دروس الجهاد في فلسطين، وأكثرهم لم يقرأ إلا قليلا عما حدث عام ١٩٤٨ م. وبشكل عام فإن دراسة التاريخ وأخذ العبر منه ليست واردة عند هؤلاء الشباب. ومازالت تلك الثروة التاريخية الإسلامية منذ عام ١٩٤٨ م وحتى الآن لم توظف بعد في خدمة التحرك الإسلامي المعاصر وبالشكل المناسب.

وفي بعض الجوانب كان واضحا أن العمل الجهادي العربي في أفغانستان أشد تخلفا بكثير من العمل الجهادي في فلسطين، رغم الفارق الزمني الكبير بين الحدثين.

أما تكرار نفس الأخطاء فهو يدل على أننا قوم لا نقرأ، وإذا قرأنا فإننا لا نفهم، وإذا فهمنا فإننا لا نطبق ما فهمناه. لقد دخل المتطوعون العرب حرب فلسطين وهم في حالة تنظيمية رائعة، خاصة إذا قورنت بحالة العرب في أفغانستان.

١) كانت القيادة الدينية والتنظيمية مركزة في يد الشيخ حسن البنا مؤسس ومرشد الجماعة. ولم تكن هناك أي مزاحمة أو شك في جدارته بمنصبه

٢) كانت الجماعة في وضع تنظيمي جيد ومحدد، وتتمتع بقاعدة شعبية واسعة من الأنصار.

٣) كان للمجاهدين تنظيما منفردا وملحقا بالجماعة (النظام الخاص) وكان يتم إختيار أعضائه من أفضل شباب الإخوان إلتزاما وخلقا وقوة جسمانية.

وإذا قارنا تلك الصورة بمثيلتها في أفغانستان نجد أن:

كان الشيخ عبد الله عزام يؤدي وظيفتي التحريض والتجميع بالنسبة للشباب العربي. فمعظمهم قد أتى إلى أفغانستان نتيجة لخطب الشيخ البليغة والمؤثرة. واتجه هؤلاء صوب بيشاور للمشاركة في الجهاد.

لم يسفر التجمع العربي في بيشاور عن أي كيان منظم وكان الشكل الغالب لمهام التجمع الذي أحاط بالشيخ عبد الله عزام هو مهام متفرقة لتقديم خدمات للجبهات في أفغانستان وتقديم المساعدات بشكل مباشر إلى هناك. إضافة لمشاريع وخدمات تعليمية وصحية في أنحاء متفرقة من أفغانستان.

ثم بدأت بالتدريج تظهر التجمعات القطرية للجنسيات العربية المختلفة وظهرت لها قيادات وأعقب ذلك سلسلة من الإنشقاقات في كل تجمع من هؤلاء.

كان تنظيم هؤلاء الشباب العرب عملية مستحيلة، فالإتجاهات الفكرية والفقهية متباينة أشد التباين، وأفكارهم عن المستقبل الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية أشد تباينا وغموضا.

وإذا أضفنا إلى ذلك الإختراقات الأمنية العميقة والكثيفة لهذه التجمعات أدركنا مدى المأساة التنظيمية التي عاشها المجاهدون العرب في أفغانستان، وبالتالي محدودية تأثير الشيخ عبد الله عزام على هذا التجمع.

وندرك كذلك ضعف تأثير هذا التجمع على أفغانستان وباكستان قياسا بالإمكانات الهائلة التي إمتلكها من العناصر البشرية والمالية.

بينما كان المجاهدون من إخوان ١٩٤٨ م، منتقون من أفضل عناصر التنظيم. كما أنهم تلقوا تدريبا في معسكرات الجيش المصري قبل التحرك نحو فلسطين، فإن المجاهدين العرب في داغانستان كانوا أبعد ما يكون عن أي نوع من أنواع الإنتقاء أو الإنتظام أو التدريب مع إستثنائات قليلة للغاية. وبدأت برامجهم التدريبية تظهر بشيء من الجدية بعد عام ١٩٨٧ م.

كما بدأت بعض المجموعات تنظم نفسها، خاصة الجماعات التي وفدت من بلادها بغرض تدريب عناصرها، وعملت أيضا على تجنيد مزيد من العناصر التي جاءت أفغانستان بدون إرتباطات تنظيمية سابقة.

لقد شهدت بيشاور كثيرا من المعارك الكلامية والمهاترات والإتهامات والإنقسامات، وتبادل الإشاعات وحروب المنشورات بين هذا الخليط المتنافر، وكلما تقدم الوقت كانت تلك السلبيات

تتضخم، خاصة مع مجهودات هيئات الإستخبارات العربية العاملة وسط تلك الجماعات.

وعندما جاءت النكبة لذلك التجمع في أبريل ١٩٩٣ م، كان تعليق البعض أنها نعمة من الله، لأن تجمعا بهذا الشكل إذا إستمر كان سيفرز كثيرا من المهازل والمصائب.

وبالفعل عندما وصلت مأساة التجمع العربى فى بيشاور إلى ذروتها، ظهر تنظيم الخلافة الذي لجأ إلى الجبال في مناطق القبائل القريبة من بيشاور، وأعلن تكفير كل من لم يبايع الخليفة وعين حكاما من طرفه في عدد من البلاد الإسلامية. وأرسل الخليفة فرمانا إلى سكان فلسطين يعلن أنه قادم لتحريرهم ويطالبهم بقطع شجر الغرقد حتى لا يختبئ خلفه اليهود.

وهدد عرب بيشاور بالقتل إن لم يبايعوا وأنه سوف يسبي نساءهم.

ورغم أن القبائل قتلت مساعد الخليفة إلا أن حركته إنتقلت الآن إلى أفغانستان.

هذا مثال لما كان يمكن أن يسفر عنه تجمع جهادي عشوائي بهذا الشكل تعبث به الأهواء وتنخر في عظامه أجهزة المخابرات الدولية والعربية.

(بعد ذلك بسنوات عاد الخليفه إلى بريطانيا التى يحمل جنسيتها بعد ما فشل مشروعه، وخذلته الأمة الإسلامية، فقد رفض الجميع مبايعته، من الأحزاب الأفغانية إلى القبائل إلى حركة طالبان إلي أسامه بن لادن، فعاد إلى الدولة الأم .. بريطانيا التى لم توجه له أى تهمة، حتى عن جرائم القتل التى إرتكبها فى عهد خلافته!!.

في التجربتين الفلسطينية والأفغانية كان للمجاهدين العرب أخطاء مشتركة من أهمها:

- وقوع المجاهدين فريسة مخططات الدول الصليبية الكبرى التي تمكنت من إستدراجهم إلى ساحات القتال وجعلوهم يعملون بها وفق شروطها، ثم إستولوا على نتاج قتالهم لصالح المخططات الصليبية في المنطقة. لقد نزل المجاهدون إلى ساحات قد خططها الصليبيون ووضعوا قواعد اللعب بها. كما إستولى الصليبيون على المفاتيح الرئيسية للعمل، وتركوا للمسلمين مهمة الموت. وعندما جاءت ساعة الغنائم في أفغانستان ذهبت جميعها تقريبا إلى أيدي الصليبيين، ولم يجد المسلمون في أيديهم سوى الحرب الأهلية للأفغان والمطاردة والتشريد والتشويه للعرب.
- في الحالتين الفلسطينية والأفغانية كان التحرك الإسلامي الجهادي عاطفيا، لا يملك رؤية سياسية ولا إستراتيجية عمل جهادي متكامل.
- في الحالتين إنقطعت صلة المجاهدين بعد الحرب بالساحة التي قاتلوا عليها وإندمجوا في مسارات أخرى. وإنقطع تأثيرهم وتعاملهم مع الساحة التي دفنوا فيها إخوانا لهم. فليس هناك أي برامج طويلة المدى لخدمة القضية الإسلامية في تلك المناطق. وكأن الجهاد حادث عارض مبتور، أو فورة عاطفية سريعا ما تزول وتتلاشى فلا منهج ولا خطة.

وقد دفعت تلك الملاحظة بعض المتابعين إلى التشكك بأن قوى الغرب الكافرة تمتلك القدرة على تحريك عواطف المسلمين متى شاءت كي يجاهدوا في الإتجاه الذي يخدم مصالح الغرب وفي التوقيت الذي يناسبه.

فحالات الجهاد الأممي وليس القطري وهما حالتى فلسطين ثم أفغانستان ثم البوسنة والهرسك منذ ١٩٩٢ م أي بنهاية الحرب الأفغانية وحتى كتابة هذه السطور، تثبت أن الغرب يمتلك هذه القدرة، وهذا لا يطعن بأي حال في إخلاص المجاهدين وشجاعتهم وحسن نواياهم، ولكن ذلك كله لا يكفي بدون عقل يدبر ويخطط لاستثمار النتائج لصالح المسلمين أنفسهم وليس لصالح أعداء الإسلام.

- أخطأ الإخوان المسلمون عام ١٩٤٨ م في تقييم النظام المصري وحاول الشيخ حسن البنا أن يكسب الملك إلى صفة للعمل ضد الإنجليز.

وكان مجاهدوا الإخوان في فلسطين يعملون تحت إشراف مباشر من الجيش المصري وكانت النتيجة أن الملك فاروق هو الذي أمر باغتيال الشيخ حسن البنا، وأن الجيش المصري هو الذي ألقى القبض على مجاهدي الإخوان.

وفي الحالة الأفغانية فإن الشيخ عبد الله عزام قد أحسن الظن في ضياء الحق ونظامه، وأحسن الظن في نوايا الحكومة السعودية وموظفي إستخباراتها في باكستان، وظن الشيخ عزام ومعظم المتطوعين العرب أن أمريكا لا تستطيع أن تمد لهم يدا وأن باكستان أعجز من أن تتصدى لهم.
فماذا كانت النتيجة؟،أغتيل الشيخ في بيشاور بأوامر أمريكية وأيدي باكستانية ومساعدة إستخباراتية سعودية.
أما الشباب العربي فقد تعرض لحملات متلاحقة خلعتهم من المنطقة كلها ولم تترك إلا قليلا من الصامدين حتى الآن، وكانت الإستخبارات السعودية

٨ الفصل الثاني البحث عن الإخوان المسلمين

هي صاحبة اليد الطولى في مراقبة الشباب العرب في أفغانستان، الذين إعتمدوا إلى أكبر حد على تبرعات أهل الخير من السعودية. وكانت تلك أكبر الثغرات التي دخل منها عملاء الحكومة السعودية. وكانت تلك المعلومات التى كدسوها ذات فائدة عظمى لباقي أجهزة المخابرات المتحالفة ضد المسلمين في أفغانستان بل وضد الإسلام في كل مكان.
....
الفصل الثاني
البحث عن الإخوان المسلمين
تدهورالوضع السياسى فى مصر بعد حرب فلسطين، وزادت التوتر الداخلى إلى درجة كبيرة. وأدرك الجميع أن انفجارا قادما لا محالة وأن التركيبة السياسية القائمة سوف تتغير.
كان النظام القائم ملكيا مع وجود أحزاب وحياة ديموقراطية، ويسير النظام كله تحت إشراف دقيق من سلطات الإحتلال البريطانية.
كان السفير البريطاني هو الحاكم الفعلي للبلاد أما وظيفة الملك فهي ترجمة الإرادة البريطانية إلى قرارات ملكية تقوم الحكومة بتنفيذها.
أما الحكومات المتعاقبة فكانت من أحزاب الأقلية التي تفوز دائما في انتخابات مزورة. أما حزب الأغلبية الوفد فلا يحكم إلا برغبة بريطانية. أما القوة الشعبية الحقيقية الإخوان فكانوا خارج اللعبة السياسية تقريبا.
كان الملك مستاءا من تهميشه لهذا طمع الإخوان في جذبه إلى صفهم والعمل سويا ضد الإحتلال. لكن الملك يدرك أن بريطانيا هي التي وضعته على عرش
مصر وأنها القادرة على خلعه، فكان مدينا بوصفه الملكي لبريطانيا العظمى. وإمتعاضه منها لا يعني أنه قادر على المضي إلى حد الثورة عليها. لهذا عندما صدرت الإرادة البريطانية بإغتيال المرشد العام للإخوان، لم يبطئ الملك فى إصدار أوامره إلى خاصة رجاله بتنفيذ العملية.
أضافت عملية الإغتيال مزيدا من الزيت على النار، وكانت هزيمة فلسطين قد هزت وجدان الأمة وأشارت إلى مواطن الداء: الإحتلال الأوروبي والأنظمة العميلة.
أرادت بريطانيا إنقاذ الوضع بعملية تنفيس للضغط الشعبي المتزايد فسمحت لحزب الأغلبية بتشكيل الوزارة عسى أن يؤدي ذلك إلى إنفراج الأزمة السياسية. وحزب الأغلبية الذي وصل بعد طول إنتظار إلى الوزارة منتهى آماله وكان لا بد له من إتخاذ إجراء يضمن إلتفاف الشعب حوله ويلبي جزءا من مطالب الأمة المصرية.
طالبت حكومة الوفد بإلغاء اتفاقية عام ١٩٣٦ م التي تتيح لبريطانيا إحتلالا قانونيا لمصر والإحتفاظ بقواعد عسكرية ضخمة على ضفاف قناة السويس. عارض

٨٠١ تدريب فى صحراء بلبيس

الإنجليز وهددوا فانفجر الشعب الساخط وبدأت حرب مقاومة ضد التواجد العسكري البريطاني في منطقة القناة.

واضطرت الحكومة التي جرب الموقف إلى تملق التحرك الشعبي وركوب موجته لتحقيق مزيد من الشعبية ومزيد من الضغط علي الإنجليز. وأعطت الحكومة تسهيلات للمجاهدين وانخرط عدد من ضباط الجيش والشرطة في تدريب رجال المقاومة وتهريب الأسلحة والذخائر إليهم.

شملت المقاومة معظم التيارات الوطنية ولكن كان نجمها الساطع بلا منازع هم الإخوان المسلمون. فمعظم كوادرهم القتالية التي تكونت في حرب فلسطين مازالت سليمة، وفتحت حكومة الوفد أبواب المعتقلات لهم ولغيرهم من الوطنيين كي يساهموا في حركة المقاومة.

إن عملية التنفيس البريطانية كادت أن تؤدي إلى ثورة، وسعى الوفد إلى مزيد من الشعبية، وموقعه على رأس الحكومة، حوله إلى قائد لهذه الثورة التي تضم كل القوي الفاعلة في مصر، خاصة الإخوان المسلمين طليعة هذه القوى وأكثرها حيوية.

تصاعدت تهديدات الإنجليز والملك وخاف الملك من التمادي في اللعبة. فبدأ يتراجع ويسحب دعمه لحركة المقاومة المسلحة في قناة السويس وبدأت عملية تضييق وملاحقة.

لكن مشاعر الثورة كانت تتزايد وخسر الوفد كثيرا من أوراقه الشعبية. وكان الإخوان أضعف من أن يتولوا زمام ثورة شعبية يقودونها ضد النظام بكافة أركانه الإنجليز والملك والحكومة.

كانت أمريكا حاضرة تماما على الساحة المصرية منذ حرب ١٩٤٨ م وراهنت منذ البداية على العسكريين لتولي السلطة في مصر عوضا عن الملك، على أن تحل هى محل بريطانيا.

وعوضا عن فوضى الديموقراطية والأحزاب يأتي الضباط بالقوانين الثورية والأحكام العرفية، لتطهير مصر من كافة القوى الإسلامية والوطنية، التي قد تشكل مستقبلا عقبة أمام مشروع العصر: إسرائيل الكبرى.

تدريب فى صحراء بلبيس:

في تلك الأيام المليئة بالحماس والعمل والترقب، وعمليات الفدائيين نتوالى ضد معسكرات الإنجليز على القناة، تعرفت على الإخوان المسلمين.

كان أخي الأكبر أحد متدربي معسكر الإخوان القريب من بلدتنا "بلبيس"، البلدة الصغيرة ذات العلاقات الإجتماعية الدافئة، والواقعة على حافة إلتقاء الصحراء، مع أراضى رائعة الخصوبة متصلة مع دلتا النيل. فى موقع جغرافى عبقرى يربط مابين القاهرة وصحراء سيناء عبر قناة السويس.

لذا كانت المدينة الصغيرة معبرا تاريخيا لقوافل التجارة وجيوش الغزو ... وعبور الأديان، من العائلة المقدسة وحتى جيوش الفتح الإسلامى. (١-٦)

أخذني أخى الأكبر ذات يوم إلى شعبة الإخوان المسلمين وسجلت إسمي في قسم الأشبال. كنت أصغر أعضاء الأشبال عمرًا، ٦ سنوات تقريبا وبالطبع كنت أقصرهم قامة، فضمن لي ذلك أن أكون دائما في مقدمة طابور الأشبال أثناءمسيراتنا إلى خارج البلدة في الصحراء حيث نحفظ قصار السور، ويقص علينا - الأخ مسعد- مسؤول الأشبال، وهو في عمر أخي الأكبر ومن أصدقائه، يقص علينا قصص من السيرة والغزوات.

كان الإسلام الذي تلقيناه في قسم الأشبال بالإخوان علي يد الأخ مسعد يختلف عما ألفناه في بلدتنا.

كان إسلام البلدة عبارة عن طقوس وإحتفالات وقصص أكثرها يثير الرهبة مع كثير من التشويش.

ورغم أعمارنا الصغيرة إلا أننا أدركنا أن الإسلام أكثر عمقا وجدية عما تعلمناه في البلدة سواء من الأهل أو المشايخ في الكتاتيب أو المدارس الحكومية.

كانت الرؤية الإسلامية للإخوان والتي صاغها الشيخ حسن البنا متكاملة ومحكمة، عبر عنها شعارهم المشهور والجامع:

"الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا".

ورغم مرور نصف قرن من الزمان منذ أن تعلمت الإسلام بهذه الطريقة، فإنني لا أتصور فهما أفضل وأعمق للإسلام خارج تلك الحلقات الخمس المترابطة (الله، الرسول، القرآن، الجهاد، الشهادة) قد يبدو فهم هذه المعاني شيئا عسيرا بالنسبة لطفل في السادسة من العمر. لكن هناك عاملان ساهما في أن تكون المهمة سهلة ويسيرة.

العامل الأول هو الحالة الجهادية التي كنا نحياها وتحيط بنا من كل جانب. عمليات الفدائيين كما كان يطلق عليهم آنذاك كانت حديث المجالس في كل
ساعة. ومسرحها لا يبعد كثيرا عن بلدتنا. وهناك معسكرات في الصحراء على حافة البلدة يتدرب فيها إخوتنا الكبار، ورجال من البلدة. هناك أسلحة تنقل سرا وتخبأ بعيدا عن أعين جواسيس الإنجليز والحكومة بعدما غيرت موقفها من أحداث القناة. وشارك في تلك النشاطات ليس الإخوان فقط بل أفراد كثيرون من أعمار ومهن وطبقات اجتماعية متباينة.
شارك في الأحداث أطفال ورجال ونساء، شارك بها طلاب وفلاحون وعمال ومتعطلون.
وحتى بعض أبناء الليل جرفهم الحماس، بعضهم تاب إلى الله على يد شباب الإخوان وشارك معهم في العمليات وأدوا أدوارا بارزة واستشهد بعضهم.
__________¬
(¬١).فى بلدة كهذه، يانعة كنبتة خضراء على حافة الصحراء من السهل أن يدرك المرء أن الموت ليس النهاية، وأن الشهادة بشرى حبيبة، يتمناها طوال حياته حتى يتوقف قلبه عن النبض. بشرى غالية، لحياة أبدية فى نعيم لا ينفذ {
منذ فجر التاريخ والموت هو أهم الأحداث في حياة المصريين. ومازال كذلك خاصة في الريف.
لهذا كانت مراسم إستقبال بلدتنا لجثث الشهداء مهيبا وتقشعر له أبداننا كأطفال. وخلافا للمراسم المأساوية للجنازات في مصر، كانت مراسم تأبين الشهداء حماسية وتثير حمية العامة للجهاد هكذا كانوا يطلقون على القتال ضد الإنجليز في الأوساط الشعبية وكان الخطباء يتابرون في الإشادة بمآثر الشهداء ويدعون الناس إلى الإنخراط في كتائب المجاهدين.
كان هذا هو الجو العام جو يعبق بأريج الجهاد فما كان أيسر أن نفهم رغم حداثة عمرنا ذلك المفهوم الرائع للإسلام والذي صاغه حسن البنا في شعاره الشهير.
لقد رأينا الشعار يطبق أمام أعيننا من مئات وآلاف الأشخاص من حولنا من الإخوة والأهل والجيران ومن آخرين قدموا من أعماق البلاد في طريقهم إلى القناة للجهاد ضد الإنجليز.
ما كان يمكن لنا أن نفهم بغير هذه الطريقة التي وصلت إلى قلوبنا عبر ما لا يحصى من الأمثلة العملية والمجسدة في أهلنا ومن حولنا من الجيران.
إن الكتب والمحاضرات ليست سوى زاد فكري للصفوة، أما البشر الذين يجسدون في حياتهم بين الناس مبادئ الدين فهم حقا الوسيلة الأمثل لنشر الدين على الأرض.
العامل الثاني الذي ساعد في تيسير ذلك الفهم علينا رغم الطفولة وحداثة السن، هو شخصية الأخ مسعد المسؤول عنا في شعبة الأشبال، كان بالنسبة لنا عملاقا مهيبا رغم أن عمره لا يتجاوز السابعة عشر فقط.
كان هادئا حازما حنونا ويعتبرنا مهمته المقدسة. وبقدر الأهمية التي أولاها لنا زادت أهمية الأخ مسعد لدى كل أشبال الشعبة، وكانت أهميته وهيبته لدى
الأشبال تأتي قبل هيبة الأب أو الأم.
كان لنا معه عدة لقاءات كل أسبوع، يبدأ أغلبها بصلاة الفجر جماعة في الشعبة، ثم مسيرة طويلة في الصحراء خارج البلدة. ثم تمارين في الزحف وعبور الموانع الطبيعية المناسبة لنا، ثم دروس في القرآن والسيرة والغزوات. كان ذلك أحب اللقاءات إلى نفسي. ولقاءات أخرى بعد العصر للدروس وتمارين على الخطابة بالطبع كانت محاولاتنا مضحكة جدا لكنه كان يأخذها بجدية تامة ويعطينا إرشاداته لتحسين مستوانا. ثم يضيف فقرته الأخيرة وهي أشق
الفقرات على أنفسنا فى تنبيه كل شبل إلى أخطائه فقد كنا نخشى من تأنيب الأخ مسعد رغم أدبه ورقته لكنه كان أشد على نفوسنا من صفعات وركلات الأهل في تأديبهم لنا.
بعد إنقلاب الجيش في يوليو ١٩٥٢ م شعرت بتغير كبير في الشعبة ونقص في الحماس وشيء من الإضطراب لم أفهم له سببا.
وترك أخي الأكبر الإخوان، بينما بقيت مع الأشبال حتى إعتقالات ١٩٥٤ م. وإن كان ذهابى أصبح نادرا.

ثم جاءت الإعتقالات وكان أكثر ما هزني تلك الأنباء التي وصلت إلى البلدة عن التعذيب المخيف الذي نزل بالإخوان، وأصابتنا بالكمد تلك الأخبار عن الأخ مسعد وأنه تعرض للإنهيار نتيجة التعذيب في المعتقل.

لقد شاهدنا أو عاصرنا حروبا أخرى مع اليهود، وكنا نفتقد الإسلام في تلك الحروب، وكان ذلك مترجما في إفتقاد الإخوان. إختفي مصطلح الجهاد من الحياة العامة، واقتصر الإلتزام الديني إلى داخل الحدود الضيقة التي تسمح بها حكومة الثورة. والإنتماء إلى جماعة الإخوان

كان إتهاما كفيلا بتدمير المتهم وعائلته والمحيطين به.

عاصرنا حرب ١٩٥٦ م ثم حرب ١٩٦٧ م وهزيمتها الشنعاء ثم حرب الإستنزاف على ضفاف القناة بين مصر وإسرائيل ثم ثورة العمل الفدائي الفلسطيني.

ومع أوائل السبعينات بدأ نشاط الإخوان من جديد لكنهم لم يظهروا على مسرح الحرب التالية في عام ١٩٧٣ م.

كذلك لم يظهروا على الساحة اللبنانية، التي كانت بؤرة الصراع في المنطقة العربية بين جميع التيارات الحزبية والعقائدية، بما فيها المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية، بعد أن نجحت (الأنظمة العلمانية والمرتدة) في تحجيم القضية الفلسطينية على مراحل فمن قضية إسلامية إلى قضية عربية ثم أخيرا قضية وطنية خاصة بالفلسطينيين أنفسهم وينوب عنهم ياسرعرفات رئيس منظمة التحرير التي أعطاها (القوميون) صفة الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وأخيرا في أيام قريبة من وقتنا هذا وقع عرفات وثيقة الإستسلام ورضى أن يكون هو والمنظمة مجرد قوات أمن لحماية إسرائيل ومركز تلك القوات غزة وأريحا. غاب الإخوان أو غيبوا عن كل تلك الأحداث طوال تلك المدة وغاب الإسلام معهم.

ولكنهم عادوا في بداية السبعينات كما ذكرنا، وكما تبدلت معالم المنطقة وأوضاعها السياسية والإقتصادية والفكرية. كذلك تغير الإخوان ... تغيروا كثيرا ...

فليسوا هم أولئك الفرسان الذين قاتلوا في فلسطين، وليسوا هم أولئك المجاهدين الأبطال على ضفاف القناة ... إنهم قوم آخرون ... جدد في كل شيء ... ولله في خلقه شؤون.

مع بداية السبعينات كنت في حالة مناقضة تماما لذلك العصر الذهبي لفترة الأشبال. فبعد نكبة الإخوان عام ١٩٥٤ م بدأت فترة مظلمة لكل شعب مصر بعد أن أجبرته الثورة على السير في عكس طريق الإسلام. لقد سافرت في رحلة طويلة داخل بحر الظلمات الذي فرضته الثورة فيما عدا نوبات متقطعة من الإلتزام بالصلاة، ذابت كل الإلتزامات بالإسلام.

وحتى قبل أن أبدأ في دراستي الجامعية كنت قد توقفت تماما عن الصلاة والصوم. وحسبت نفسي من يومها أقرب إلى (الماركسية) بحكم صداقات عديدة تكونت في تلك الفترة مع يساريين من مصر.

وكانت اليسارية بتياراتها المختلفة هي (الموضة) الشائعة في مصر بين شبابها المثقف، فالتعليم الرسمي لم يكن يقدم عن الدين سوى شذرات لا رابط بينها ولا تمس جوهر العقيدة الدينية.

وفي الحياة العامة إندثرت الثقافة الدينية فيما عدا ما تنتجه المؤسسة الدينية الرسمية تحت إشراف أجهزة النظام الأمنية. إضافة للممارسات الشعبية الأقرب إلى (الفلكلور). فكان على طالبي الثقافة أن ينحرفوا يسارا حيث الكتب تملأ المكتبات يقتنيها المقتدرون، وعلى سور الأزبكية يوجد ما لا يحصى من الكتب المستعملة معروض بأرخص الأسعار. لم يكن صعبا أن يصبح أي متعلم مثقفا يساريا في تلك الظروف. وكانت شعارات الثورة وخطابات الزعيم تملأ

الأسماع والعيون، بل يتنفسها كل فرد طوال يومه وحتى في الكوابيس التي تنتابه أثناء الليل.

كانت هزيمة ١٩٦٧ م هي أقسى الصدمات في حياة جيلنا. وما زالت تداعيات تلك الهزيمة تؤثر في حياتنا وفكرنا كأفراد وكأمة، وستظل كذلك إلى النهاية، نهاية الصراع وتسوية الحسابات النهائية بين المسلمين واليهود. لقد زلزلت الكارثة كل المفاهيم السائدة في المنطقة، وبدأت الأجيال المعاصرة في البحث من جديد عن هويتها الحقيقية.

من تلك الزاوية كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ م نعمة عظمي على المنطقة العربية لأنها كانت الثغرة التي عادت منهاالشعوب خاصة الشباب إلى الإسلام من جديد.

كانت السبعينات هي بداية العودة المكثفة من جانب الشباب إلى الإسلام، كانت عودة مبعثها الرئيسي التحدي اليهودي للإسلام على أرض الإسلام وعقر داره. لقد دعمت الصليبية الدولية بكل عنفوانها ذلك التحدي اليهودي وأمدته بحبال القوة والتمكين، ورأس الرمح لهذا الكيد كله كانت الأنظمة غيرالاسلامية التي حكمت بلاد المسلمين بإسم الوطنية وغيرها من الإدعاءات والصيغ الغربية فكان من الطبيعي أن يكون الجهاد هو الشعار والأسلوب والأداة لمواجهة هذا التحدى المصيري.

وكان من المفروض أن يكون في الطليعة الإخوان المسلمون، فهم الركيزة التي إنطلق منها ذلك الإنبعاث الإسلامي الجديد أو حسب الإصطلاح الشائع الصحوة الإسلامية ولكن عوامل عديدة تراكمت على الإخوان وجعلت حركتهم أبطأ وتصورهم أعجز ووسائلهم أدنى من متطلبات مرحلة التحدي. وفورة الحماس المنبعث من ركام الهزيمة التي ألهبت مشاعر الأمة و الشباب خاصة وحفزتهم إلى المواجهة والجهاد.

لقد أصابت عوامل الشيخوخة حركة الإخوان المسلمين، وحاولوا فرض عجز الشيخوخة وترددها على الإنبعاث الجديد للشباب بدلا من أن يزودوه بحكمة السنين وخلاصة التجارب.

فكان الطلاق النكد بين الإخوان الجدد، وتيار الشباب الإسلامى. فأدان الإخوان حماسة الشباب، وأدان الشباب عجز الإخوان وبدلا من التكامل ساد الشك

٨٠٢ إسلام المترفين

والقطيعة. وتضاربت الجهود لتضيف عنصرا سلبيا على الساحة الإسلامية المليئة بالسلبيات، والتي تنوء بثقل التحديات المفروضة على التواجد الديني على أراضي العرب والمسلمين.

مضت عدة سنوات على الحرب في أفغانستان وبعد معاملات كثيرة مع الإخوان المسلمين ثم تعاملات أخرى مع الشباب الوافد إلى أفغانستان من مختلف البلاد ومختلف التيارات الإسلامية إتضحت تدريجيا بالنسبة لي الصورة العامة على ساحة العمل الإسلامي.

ولما كانت نتائج تلك المعاملات سلبية في الغالب، فقد خرجت باستنتاج مفاده أن التحدي الأساسي أمام العمل الإسلامي هو التحدي الداخلي، وما لم ينتصر العمل الإسلامي كطليعة للأمة على نفسه وسلبياته الذاتية فلن يستطيع الإنتصار في التحدي الرئيسي على الساحة الخارجية أي التحدي الصليبي اليهودي.

وسوف ترد في ثنايا هذا الكتاب أطراف من تلك التعاملات مع تيارات إسلامية عربية وأفغانية علما بأن القليل منها كان إيجابيا لدرجة كبيرة. وقد يكون ذلك مفيدا في تقييم العمل الإسلامي في تلك الفترة والتعرف على جوانب الضعف والقوة فيه.

أخذتني هزيمة ١٩٦٧ م إلى شاطئ الإسلام من جديد وكان ذلك في عام ١٩٧٥ م. كانت رحلة شاقة، ولكن فرحة العودة كانت رائعة. وبدأت محاولة البحث عن المكونات الإسلامية القديمة.

فالإسلام يعني الإخوان، والإخوان تعني الله والرسول والقرآن والجهاد والشهادة.

فهكذا تركتهم في تلك الأيام القديمة في الخمسينات.

إسلام المترفين:

كنت أعمل في أبو ظبي وكانت مساجدها نشطة وعامرة بالنشاط الثقافي والمحاضرات والضيوف من بلاد عديدة يلقون المحاضرات الإسلامية. كان ذلك ممتعا لي في ذلك الوقت، ولكنه لم يكن كافيا، فما أبحث عنه غير موجود. ومناخ دولة الإمارات إجتماعيا هو مناخ تجاري للباحثين عن جمع المال، وليس من مجال لظهور تيارات سياسية أو دينية بأي حال.

حاولت أن أسأل من حولي عن الإخوان والجهاد وفلسطين وكانت الإجابات لا تشفي الغليل.

وبدت لي ساحة العمل الإسلامي خاوية رغم النشاط المسجدي الذي أراه حولي، ورغم الأخبار من مصر عن صحوة فوارة بين الشباب، وتيارات جديدة تنبت في الجامعات، لا أدري ما علاقتها بالإخوان ولكني لم أتصور إلا كونها إحدى نتاج نشاطهم الجديد في مصر.

كانت فرحة العودة والشباب ورغد العيش تدفعني إلى الإجتهاد، فأطيل المكوث في المساجد وأحضر من المحاضرات ما استطعت، وذهبت إلى الحج مرتين.
ولكني ما زلت أشعر بالفراغ وبأن هذا النوع من) إسلام المترفين (كما أسميته لا يصلح لي بحكم ما تعلمته في طفولتي المبكرة ..
فأين الجهاد في سبيل الله؟. وهل يجاهد الإخوان ضد اليهود في فلسطين إنطلاقا من الأردن أو لبنان؟.
وهل يعملون منفردين أو تحت غطاء منظمة أخرى؟ وكيف يمكن أن أعثرعليهم وأعمل معهم؟.
كنت متأكدا أنهم يعملون ضد اليهود في فلسطين وأنني سأعثر عليهم في مكان ما بطريقة ما وأعمل معهم في الجهاد.
وحدثت معي عدة مواقف فهمت بعدها أنني مثل أهل الكهف الذين ناموا في كهفهم مئات السنين و كانت الدنيا من حولهم قد تبدلت وهم لا يشعرون. بعد تلك المواقف أدركت أن خريطة العمل الإسلامي أصبحت معقدة ولم تعد بسيطة ومباشرة كما كنت أتخيلها، كان في ذهني ثلاثة عناصر فقط إسلام إخوان جهاد. ولكن الأحداث أثبتت سذاجة هذا التصور.
- الموقف الأول
قامت جماعة التبليغ بزيارة المسجد القريب من بيتي وألقى متحدثوهم مواعظ رقيقة وبسيطة ومؤثرة. ثم قام أميرهم بدعوة الحضور بالخروج معهم في سبيل الله ونشر الدعوة.
هزتني الكلمة وكأنها صدمة كهرباء ... أخيرا ... ما أعياني البحث عنه يأتي إلى عندي هكذا ببساطة .. لم أصدق نفسي ولم أنم لعدة ليال .. كنت أفكر في ترتيب أوضاعي تمهيدا للسفر مع الجماعة للجهاد في سبيل الله.
وقررت الخروج مع الجماعة وقررت ما سوف أفعله بالنسبة للأسرة والعمل. وفي الأسبوع التالي عادت الجماعة إلى المسجد ودعوت الأمير وعددا منهم إلى بيتي كي أفهم منه تفاصيل ذلك الخروج في سبيل الله. واكتشفت مؤخرا أنه سياحة واسعة في البلاد لدعوة الناس إلى الإسلام.
ورغم عظمة العمل إلا أنني شعرت بالإحباط، فليس هذا ما أبحث عنه.
وشعرت أن الإسم أكبر من حجم العمل على أهميتة وأحزنني أن يطلق إسم الخروج فى سبيل الله على شيء آخر غير القتال في سبيل الله، وتذكرت قوله تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم (وعدت إلى البحث من جديد.
-الموقف الثاني
كان عبد الرحيم زميلا لي في الدراسة الثانوية وقابلته بعد إنقطاع سنوات طويلة وهو يعمل مهندسًا طيارا في الإمارات. وكان قد إهتدى إلى الإسلام في وقت مبكر من شبابه سابقا إياي بعدة سنوات كما أنه إجتهد في تحصيل العلوم الشرعية، فاعتبرته لذلك مرجعية دينية بالنسبة لي.
زرته يوما في بيته مهموما أسأله عن الجهاد وكيف السبيل إلى فلسطين أو لبنان، كانت الحرب الأهلية هناك قد بدأت وذبح الكثير من المسلمين، أو إرتريا وكانت أخبار تأتي من هناك عن مسلمين وجهاد.
كان رأيه أن المنظمات الفلسطينية تعتنق الشيوعية فلا يجوز القتال معها، وفي كل الأماكن الأخرى فإن الرايات عمية وملعون من يقاتل تحت راية عمية. ثم أن إصلاح حال المسلمين يبدأ بإصلاح الفرد المسلم والأسرة المسلمة وبالتالي سوف ينصلح المجتمع ويسود فيه قانون الإسلام ويومها نستطيع أن نجاهد اليهود وغيرهم. ولما كان الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، فإن المجاهد لا بد أن يبلغ ذروة الكمال في تطبيق الإسلام من فرائض وسنن، وأن يطاع الله تمام الطاعة وتجتنب نواهيه تمام الإجتناب. وإلا فإن أي معصية سوف تؤدي إلى هزيمة، وأي زيغ في النية سوف يهوي بصاحبها في قاع جهنم رغما عما تكبده من مشقة حيث أن عمله قد أحبط.
جادلته بما أملك من حجة: إذا كان هؤلاء راياتهم شيوعية والآخرون
رايتهم عمية، فلماذا لا نتحرك ونضع لأنفسنا راية إسلامية؟. وإذا كان تحويل المجتمات يتم بطريقة ميكانيكية من الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع إلى النظام الإسلامي، فلماذا لم يكن الأمر كذلك مع رسولنا) ص (ولماذا تكبد وأصحابه كل تلك المشاق والمعارك والدماء؟

إذن المسألة ليست تحويلا ميكانيكيا للمجتمع، بل مسألة صراع بالكلمة والسيف حتى يتم التغييرالمنشود.
أما عن المجاهد وكونه قمة شامخة في دنيا الإسلام فهذا يستحيل تقريبا على كل أو معظم المسلمين. وهذا يعني عمليا إيقاف الجهاد لأن الناس ليسوا في المستوى اللائق وعليهم قضاء فترات أطول قد لا تتسع لها أعمارهم المحدودة للوصول إلى تلك المستويات السامقة التي قد لا يبلغها غير الأنبياء والصديقين. وهذا يعني في واقع الأمر إيقاف الجهاد أو إلغائه، وترك الأمة فريسة لأعدائها. إن هذا المنطق فيه تحايل على إلغاء تلك الفريضة، فبينما يعترف بها ويبجلها نظريا، يضع الشروط الكفيلة بإلغائها عمليا.
أجاب صديقي إجابة شافية وافية لم تدع مجالا لمزيد من النقاش فقال:"أنت تتكلم بالرأي وليس بالدليل الشرعي".
ومعنى ذلك أن كل حججي التي إجتهدت في حشدها، تعتبر لاغية وكأنها لم
تكن، وهكذا توقف الحوار، وشعرت بمزيد من العزلة. وقد صادفتني بعد ذلك بسنوات: على أرض أفغانستان ومع الشباب العرب تلك المواجهة الغريبة والقاطعة بين الرأي و الدليل الشرعي. وكان أعجبها في معركة جلال آباد، كما سيأتي ذكرها لاحقا، عندما نصحت بعضهم أن المعركة غير صحيحة عسكريا، فأجاب أنها واجبة شرعا واتهمني بأنني أتكلم بالرأي وليس بالدليل الشرعي. وكانت النتيجة أننا كعرب دفنا في جلال آباد أكبر عدد من الشهداء في أفغانستان.
وما زلت حتى الآن أخسر معظم المعارك بين الرأي و الدليل الشرعي ولم أفهم حتى الآن حاجة الإجراء التكتيكي في ميدان المعركة أو الخطة الإستراتيجية
لدى القيادة، إلى دليل شرعي يثبت صحتها، إذا كانت هي نفسها لم تخالف قاعدة شرعية إسلامية معروفة.
ـ الموقف الثالث
في الخامس عشر من مارس ١٩٧٨ م هاجمت إسرائيل جنوب لبنان ووقعت معارك شديدة بينهم وبين أهل الجنوب والمنظمات الفدائية الفلسطينية هناك. كالعادة كانت خسائر العرب شديدة، لكنهم هذه المرة أصابوا اليهود وعرقلوا تقدمهم بشكل لم يكن متوقعا، أدى إلى إطالة مدة القتال. وأتاح ذلك فرصة لاشتعال الحماس لدى الشعوب العربية خاصة بعد ما أحدثته زيارة السادات للقدس وتراجعاته الحثيثة أمام اليهود سياسيا.
فتحت مكاتب منظمة التحرير مكاتبها لقبول المتطوعين العرب. وكتب الشيخ أحمد ابن عبدالعزيز مبارك رئيس المحاكم الشرعية في أبو ظبي فتوى شرعية نشرت في صحيفة الإتحاد يبين فيها أن الجهاد إلى جانب الفلسطينيين وضد اليهود أصبح فرض عين على كل مسلم.
كان هذا ما أنتظره وعزمت على الرحيل إلى لبنان للجهاد.
مرة أخرى صديقي عبد الرحيم طالبني بالتريث، قائلا بأن رأي الشيخ أحمد ليس قطعيا ولا ملزما، ويجب أن أستفتي المزيد من العلماء. وأن ضيفا سيأتيه، وهو من علماء وزارة الأوقاف، وسوف نسأله. وفعلا جاء الرجل ولكنه طلب مهلة إلى يوم الإثنين مساء، لأن المشايخ سوف يجتمعون في ذلك اليوم لمناقشة فتوى الشيخ أحمد وإصدار حكمهم في الموضوع. لم أكد أذق طعم النوم ليومين حتى جاءنا الشيخ بالحكم في القضية ... فقال:
لقد إجتمع المشايخ وقرروا أن رأي الشيخ أحمد صحيح وأن الجهاد فرض عين في هذه الحالة. وعليه فمن أراد أن يذهب للجهاد فلا إثم عليه، ولكن في نفس الوقت فإن الرايات المرفوعة هناك ليست إسلامية، وهي إما شيوعية أو قومية وعلى هذا فلا يجوز القتال تحت هذه الرايات، لذلك فمن أراد القعود فلا إثم عليه.
كانت صدمة جديدة، وحيرة أشد، كيف يفتينا الشيخ بشيئين متناقضين ومتعارضين في وقت واحد وفي نفس القضية؟ ... كيف يكون الجهاد فرض عين ثم يترك الخيار لكل شخص، فمن ذهب فلا إثم عليه ومن قعد فلا إثم عليه؟. لقد وضعوني على مفرق الطريق وطالبوني أن أتصرف كما أرى، فأين الفتوى؟. وصديقي عبد الرحيم زاد موقفي سوءا برأي جديد أضافه، فقال: طبقا لمهنتي كمهندس طيار فإنني أعلم أن الطيران الإسرائيلي لديه القدرة على أن
يصيب بالصواريخ منتصف الخط الأبيض الذي يقسم مدرج الطائرات. ونحن مأمورون شرعا بالإعداد لقتال العدو فأين هو الإعداد؟. وإذا كانت الجيوش العربية جميعها لا تستطيع مواجهةإسرائيل، فماذا يملك الفدائيون؟. إن إسرائيل تمتلك إلى جانب الطائرات المتفوقة،

القنابل الذرية أيضًا. والنتيجة أن علينا شرعا واجب الإعداد حتى نتساوى معهم أو قريبا منهم.

٨.٣ رحلة سرية إلى لبنان

وكانت ليلة عصيبة مرهقة بسبب صديقي ومشايخ الأوقاف. وأخيرا جاء الفرج على يد الشيخ حسن البنا، أقصد الشيخ (عبد البديع صقر (الذي عمل سكرتيرا خاصا للشيخ البنا لمدة عشر سنوات. وكان شخصية محترمة من الجميع، لا يجامل، ذو طابع عملي دؤوب، خرج من مصر عام ١٩٥٤ م فارا من إعتقالات عبد الناصر للإخوان، ورغم أننا نتتمي إلى محافظة واحدة في مصر إلا أنني لم أتعرف عليه إلا عام ١٩٧٣ م في دبي. وكنت أكن له إحتراما كبيرا.
تصادف وجوده في المدينة وقت أزمتي تلك فاستشرته فيها، فأشار علي بالذهاب للجهاد بلا تردد وقال: "إذهب يا بني فالجهاد فرض عين، وقاتل مع فتح فربما وجدت بها إسلاميين وإذا قتلت فسوف تبعث على نيتك. ولا تخش بأسا على أولادك فقد رأينا بالتجرب أن أبناء الشهداء يكونون أغنى وأسعد الأبناء".
أخذت نفسا عميقا وكأن صخرة ثقيلة قد إنزاحت من فوق صدري. وإنفتح أمامي طريق مبارك رائع ما زلت أسير فيه منذ سمعت تلك الكلمات المخلصة من الشيخ الحبيب) رحمه الله. (
رحلة سرية إلى لبنان:
مع صديقي إسماعيل، بدأنا الرحلة من أبو ظبي، صوب جنوب لبنان. قررنا السفر إلى بيروت منفردين عن غير طريق منظمة التحرير لذلك لم نسجل أسماءنا في مكتبهم في أبو ظبي.
ظننا أن ذلك سيكون أكثر أمنا كما أننا توقعنا أن يتصرفوا فينا كما يشاءون وقد يرسلوننا إلى منظمة شيوعية فتكون مشكلة وكان كلانا ملتحيا بشكل أنيق وعصري.
وأخذ كل منا مبلغا من المال لنشتري سلاحا من بيروت، هكذا قدرنا، فالعاصمة اللبنانية جميع من فيها مسلح ويمكن في تقديرنا شراء سلاح بسهولة. أما التوجه إلى الجنوب فليس من الصعب تدبيره. وهناك سوف نلتحق مباشرة بمراكز الفدائيين.
كانت تصورات ساذجة، لكن هكذا كنا نفكر، فالتجربة نخوضها لأول مرة على أرض بلد لم نره قبلا مع أناس لا نعلم عنهم شيئا تقريبا.
وقد تكررت معنا التصورات الساذجة مرات عديدة في السنوات التالية، كما رأينا غيرنا يسقط فيها. وربما يفيد أن نورد بعضها في هذا الكتاب، فقد يفيد ذلك الأجيال التالية في عملها أو في تقييم عمل جيلنا في هذا الزمان.
كنا نحترس من أن تعلم السلطات المصرية بأمرنا فالحكومة هناك بدأت مسيرة السلام، وأصبحت إسرائيل بالنسبة لهم دولة صديقة، هذا إضافة إلى الحساسية التقليدية للنظام المصري من العمل الجهادي خاصة إذا كان ضد اليهود. وتجربة الإخوان في فلسطين كانت نموذجا لسياسة الدولة المصرية في كل العهود الملكي أو الثوري، في مجابهة المجاهدين وتصفيتهم.
وكنا نقدر أيضا أن منظمة التحرير إنما هي ألعوبة للأنظمة العربية وأنها مخترقة بكافة أنظمة الإستخبارات في المنطقة، حتى اليهودية منها. وكانت
الإغتيالات التي حدثت لقادة المقاومة في بيروت وعمليات الكوماندوز الإسرائيلي ضد قواعد الفدائيين في جنوب لبنان شواهد لا تحتاج إلى توضيح على مدى عمق الإختراقات الأمنية للمنظمة.
لهذا تفادينا الإتصال بمكاتب المنظمة وأردنا الوصول إلى الخط الأول مباشرة. كانت المفاجأة الأولى أن الطائرة التي ركبناها كان معظم ركابها من شباب المتطوعين من الفلسطينيين المقيمين في دولة الإمارات وكثير منهم يعرف إسماعيل، وهو شاب رياضي و كابتن فريق للكرة الطائرة وذو علاقات اجتماعية واسعة وبعضهم عرفني. وهكذا وبصفتنا المصريين الوحيدين على الطائرة وأيضا في كل المتطوعين في هذه الأزمة على حد علمنا، فقد كنا موضع حفاوة وإهتمام من الجميع وبدلا من التخفي وجدنا أنفسنا فجأة تحت الأضواء.
مرة أخرى على الحدود السورية اللبنانية في منطقة المعمل إحتجزت المخابرات السورية جميع المتطوعين ونحن معهم واصطحبوا الجميع إلى مبنى ضخم لعدة ساعات تم فيها تصوير كل شخص على حدة، وتحويل) الجوازات (إلى غرفة خاصة لفحصها وتصويرها.

أثار هذا تذمر الشباب، وبتنا الليلة داخل الباص ونحن جلوس على المقاعد في جو درجة حرارته تحت الصفر، وسط الثلوج. ولم تكن معنا ملابس مناسبة ونحن قادمون من مناطق حارة لا تعرف الشتاء تقريبا.
وهمست في أذن إسماعيل بأننا قد أصبحنا في سجلات المخابرات السورية وهذا لا يبشر بخير، ومن الأفضل ألا نفكر في زيارة سوريا مرة أخرى. وبالفعل فقد إكتشف إسماعيل بعد عشر سنوات تقريبا بأن إسمينا قد كتبا متتابعين على قائمة واحدة "سوداء"، وقد أخبره بذلك أقارب زوجته السورية التي تزوجها في وقت لاحق. كان صعبا أن يصدق إسماعيل ذلك في وقتها ومكاتب المنظمة تعمل بحرية في دمشق، والإذاعة السورية لا تمل من الحديث عن الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني. وصلنا دمشق وزرنا مكاتب المنظمة بدون اعتراض من أحد أو حتى تسجيل أسماء أو التقاط صور. وإلى هذا الوقت لا أدري لماذا وضعت المخابرات السورية اسمينا في القائمة السوداء.
وبعد أربعة عشر عامًا من هذه الواقعة وجدت إسمي أيضا في قائمة سوداء لدى السلطات الباكستانية في أعقاب إنتهاء الجهاد في أفغانستان عام ١٩٩٢ م. ومازلت لا أدري بالضبط الدافع وراء هذا العمل، فلم أرتكب أية جرائم ضد كلا البلدين سوى العبور من أراضيها بطريقة رسمية تمامًا للجهاد في الدولة المجاورة ضد اليهود تارة وضد السوفييت والشيوعيين تارة أخرى.
إن الحكومات (العلمانية) و الوطنية لن تتسامح على الإطلاق مع التحرك الجهادي حتى وإن إلتقت مصالحها معه بشكل مؤقت. إن تصفية العمل الجهادي خاصة، والإسلامي عامة، هو قضية مصيرية بالنسبة لتلك الحكومات، وبنفس القدر الذي تشعر به القوى اليهودية والصليبية.
إن هذه الحقيقة على بساطتها تبدو أحيانا مستعصية على أفهام معظم المسلمين. ونشاهد الآن كيف أن مجاهدي كشمير وقطاع من مجاهدي باكستان الذين شاركوا في جهاد أفغانستان مازالوا يعملون بتنسيق كامل مع المخابرات الباكستانية في قضية كشمير، رغم علمهم بمعاداة حكومة (بي نظير بوتو) للإسلام بشكل واضح وتصفيتها للتواجد العربي الجهادي في بيشاور وتحطيمها لأفغانستان وشعبها، بدعمها للحرب الأهلية في كابل مع إضطهاد المهاجرين والتضييق عليهم، على الحدود وفي داخل البلاد.
كما نشاهد حاليا خروج الشباب من السعودية للجهاد في البوسنة، تحت إشراف وتشجيع حكومة بلادهم، والتي لا يخفى دورها في مقاومة العمل الإسلامي في أرجاء المعمورة.
إن التسهيلات والإبتسامات التي قد تمنحها هذه الحكومة أو تلك لهذا الفصيل أو ذاك من العمل الإسلامي، ما هي إلا إستدراج حتى يحين الوقت المناسب للذبح عندما تنتهي فترة المصالح العابرة.
لفت نظري في بيروت إتساع العمل الإداري للمنظمة ودقته، فقد سلمنا وثائق السفر الجوازات في أحد المكاتب التي يعمل بها عدد كبير من الموظفين، كأي هيئة جوازات في دولة، وعندما إنتقلنا إلى الجنوب في وقت لاحق، إكتشفنا أن وثائقنا قد إنتقلت إلى مقر القيادة في صيدا.
كان من الواضح أن لدى المنظمة و فتح، وفرة في الكوادر المؤهلة في الإدارة كما في العمل العسكري أو الثقافي.
كانت المعركة في الجنوب قد هدأت ولكن لم تتوقف ولم يستطع اليهود تجاوز جنوب مدينة صور حيث أوقفتهم المقاومة الفلسطينية.
كان الحماس في الذروة. ورغما عن الحماس والتأهيل العالي والإنضباط الواضح في القطاعات التي تعاملنا معها، إلا أني شعرت أن العمل كان خاويا، لم أشعر بحرارة الإيمان ولا يكاد يظهر للإسلام أثر في كل هذا الخضم من النشاط والحركة.
فنادرا ما وجدت مصليا، لذا حاولوا تعويض هذا النقص بزيادة الصراخ والأناشيد الحماسية.
أما إحتياطاتهم الأمنية فكانت ملموسة، ولعدة مرات تم تصويرنا بحجة إستخراج هويات وهو ما لم يحدث بالمرة. واكتشفوا بالفعل عددا من (العملاء) في دفعتنا، وأثناء التدريب تم إطلاق النار عليهم في (الأرجل) وخرجوا من بيننا، وقد أخبرنا مدربونا بذلك فيما بعد.
وقد قارنت تلك الصورة التي إنطبعت في ذهني في أول تجربة عملية (للجهاد)، عندما إنتقلت إلى المحطة التالية أفغانستان في العام التالي مباشرة. وكان التناقض بين الصورتين واضحًا.
في أفغانستان لمست الإيمان كما لم أعهده قبلا أو تخيلته خاصة في سنواته الثلاث الأولى.

أما سوى ذلك فليس هناك شيء، لا كوادر مؤهلة ولا نظام ولا أمنيات.
وظل الجهاد في أفغانستان يعاني من ذلك النقص حتى آخر أيامه.
وفي بيروت ثم في جنوب لبنان وداخل منظمة فتح بحثت عن) الإخوان (فلم أجد لهم أثرا.
وكان بعض الهمس يدور حول أشخاص معدودين كانت لهم ارتباطات إخوانية قديمة. وأكثرهم قد تنازل عنها وانجرف في تيار، اليسارية التقدمية. وقالوا أن مؤسسي فتح بما فيهم) أبو عمار (
كانوا إخوانا. وسمعت أن عددا من الكبار في فتح يمارسون الصلاة، ثم لا شيء أكثر من ذلك، ولكنهم محسوبون كأنهم تيار إسلامي داخل (فتح)، التي بدورها إتخذت إطارًا فكريا فضفاضا يحوي الجميع ما داموا قد إتخذوا الكفاح المسلح شعارا ومنهجا.
لهذا قابلنا الشيوعيين بأنواعهم وكذلك القوميين، ومسلمين سنة وشيعة، ودروزا أيضا ... وهكذا، حتى الجنسيات المتعددة كانت موجودة من دول إسلامية وأوروبية وحتى أمريكية.
ليس هناك إعتبار لديانة أو مذهب فالمهم هو الكفاح المسلح ضد الصهيونية و الإمبريالية ... فذلك هو الدين الجديد الذي يجمع كل هؤلاء.
كنت أتخيل أنني سأجد في لبنان تواجدا إسلاميا قويا، فطبيعة المعركة تحتم ذلك، فاليهود يزحفون بجيشهم ويدمرون الجنوب. والموارنة في الداخل يقتلون المسلمين حيث وجدوهم ويمارسون ضدهم أحط أساليب القتل والتعذيب وانتهاك الأعراض. ومع ذلك لا أجد إسلاما أو جهادا ناهيك عن الإخوان المسلمين، لكني أجد فقط الكفاح المسلح!!.
ومع ذلك لم نيأس، حتى جاء يوم الجمعة ونحن في معسكر التدريب في قرية الدامور. فذهبنا للصلاة في بيت صغير على الشارع العام المواجه لشاطئ البحر، كان قد تحول إلى مسجد وكانت القرية كلها للموارنة سابقا قبل أن يطردوا منها في الحرب الشعواء الدائرة والمنعدمة الهوية.
كان خطيب الجمعة شابًا لبنانيًا بليغ الخطابة ممتلئا حماسا وقوة. نظرت وإسماعيل كل منا إلى الآخر وأعيننا تنطق بالفرح أن قد وجدنا ضالتنا أخيرا. بعد الصلاة أسرعنا إلى خارج المسجد و إنتظرنا حتى إنتهى من الأحاديث الفرعية والأسئلة من جمهور المصلين، وما أن فرغ حتى أحطنا به وجذبناه برفق بعيدا عن الحاضرين وأمطرناه بوابل من الأسئلة المتلاحقة أين المسلمون؟ أين الجهاد؟ أين المعسكرات؟ كيف نجدكم؟ هل يمكن أن نجاهد معكم وأين وكيف؟
رغم صلابة الشاب إلا أن أجوبته أحبطت آمالنا: المسلمون من أهل السنة هم غالبية أهل لبنان هكذا أخبرنا ولكنهم محرومون من السلاح ومن تنظيم أنفسهم والجميع ضدهم حتى) فتح (، والجيش السوري، جميع تنظيمات لبنان وفئاته تستمد قوتها من دول عربية أو غربية ما عدا أهل السنة فهم ضائعون والسعودية تمد الموارنة بالسلاح والمال ولا تساعد أهل السنة بشيء بل تساعد الآخرين على قتلهم. ومضى يسرد عناصر المأساة التي دمرت آمالنا في أن نجد بغيتنا في لبنان.
تشاورت وإسماعيل في الأمر ... فقال: إننا لن نجد ما نريد وعلينا أن نرجع كما أتينا ... وأجبته بأن علينا أن نبدأ في قتال اليهود ونستمر فيه مهما كان الثمن، فلو سارت الأمور على هذا المنوال فسوف يأتي اليوم الذي يدخلون فيه علينا بيوتنا ويسحبونا من أعناقنا للذبح.
وإذا لم يكن للمسلمين راية فلا بد أن يبدأ العمل لرفع تلك الراية ولنبذل نحن محاولة من طرفنا، فلا بد أن يبدأ أحد في صنع شيء ما. لقد إنتعشت آمالنا في المستقبل عندما شاهدنا الإقبال على الصلاة في معسكر الدامور.
وتزايد العدد بالتدريج حتى بلغ ربع عدد المتدربين. وأثر في نفوسنا كثيرا قصتنا مع ذلك الفتى الذي كان يجلس يراقبنا أثناء الصلاة لعدة أيام، ثم جاء على إستحياء كي يقول: أريد أن أصلي معكم ولكني لا أعلم ماذا تقولون في الصلاة. ورغم كونه في حوالي العشرين إلا أنه لم يكن يحفظ أي شيء من القرآن. لقد أحزننا هذا كثيرا ... كيف يمكن أن يصل شاب مسلم إلى هذا السن ولا يحفظ حتى فاتحة الكتاب!!.
بدأ الشاب يتعلم وانضم إلى صفوف المصلين وغمره فرح طفولي وحماس فطري غريب.
فترة الدامور أقنعتني وصديقي بأنه يمكن عمل الكثير في لبنان وحتى في صفوف المقاومة الفلسطينية. وأن غياب العمل الجهادي

والدعوى عن هذه الساحة كان كارثة يتحمل الإسلاميون جزءًا منها. ولاحظنا أن كثيرا من شباب المقاومة يزداد شغفهم بالإسلام كلما إقتربت أجواء المعركة مع اليهود. وافتقاد الدعاة المقاتلين في تلك المواضع إنما هو جريمة يتحمل الدعاة وزرها وخسارة فادحة للإسلام وأهله.

قارنت تلك الصورة بما وجدته في أفغانستان فكنت أشعر بالألم وكيف أن المجاهدين الأفغان لم يكن أحد منهم يهجر الصلاة، من الطفل الصغير إلى الشيخ الطاعن في السن. وكيف أن للإسلام وشعائره قدسية هائلة في النفوس رغم جهلهم بالعربية وبالتالي جهلهم بكثير من أحكام الإسلام.

حتى أن الشيوعيين الأفغان ما كانوا يجرؤون على الجهر بآرائهم في الدين على الملأ إلا في حالات نادرة أدت إلى كوارث بالنسبة لهم.

وأدركت إلى أي مدى أصبح الإسلام غريبا في بلاد العرب.

كنت أنوي الإستقرار في لبنان والعمل مع منظمة فتح وإحضار أسرتي إلى الجنوب.

لولا حادث لم يكن في الحسبان أدى إلى إلغاء المشروع والإنسحاب نهائيا من المنطقة. في صباح أحد الأيام وعلى طعام الإفطار تجمع شباب مجموعتنا على الطعام، وكنا في مكان لا يبعد كثيرا عن مواقع اليهود في مدينة صور. وفجأة حدثت مشادة بين زميلين فبادر أحدهما بسب الآخر وسب) الرب (.

وجدت نفسي أتصدر أزمة خطيرة وشعرت أن من واجبي أن أقتل هذا الشخص فورا.

وبصعوبة توقفت الأزمة تحت مستوى إطلاق النار، وإعتذر قائد الموقع وكذلك إعتذر) المذنب (ولكن المشكلة عندي كانت أعمق بكثير من أن ينهيها إعتذار. فما زال كل شيء على حاله، فكما أنني حر في أن أصلي وقت ما أشاء ومعي عدد من الإخوة في الموقع، فإن هذاا لشخص لديه الحرية أيضا أن يسب الرب وقت ما شاء، ولكني ليس أمامي لأنه متأكد من أنني سوف أقتله في المرة القادمة.

بدأت أفكر في الرحيل وتأكد عزمي عندما علمت أن القيادة تنوي تجميع (الشيوخ)

أي المصلين كما يطلقون عليهم ووضعهم في معسكر خاص يفصل بين معسكر فتح ومعسكر تنظيم شيوعي منافس، أنشئ مؤخرا على مسافة ليست بعيدة.

أدركنا أنها محاولة للتخلص منا نحن الشيوخ بطريقة لطيفة من خلال عمليات تصفية حسابات بين التيارات المتصارعة.

لقد توقفت منذ أيام وبأوامر من) أبو عمار (العمليات ضد القوات اليهودية.

وكانت العمليات الفدائية منذ التقدم اليهودي، عبارة عن تسلل مجموعات صغيرة خلف خطوط العدو لزرع ألغام على الطرق.

ومع توقف العمليات أغلقت أمامي فرصة القتال ضد اليهود، أما فرصة القتال مع الجيران، من المنظمات الأخرى، وحتى أعداء الرب من نفس المنظمة فهي فرص متزايدة بمرور الوقت، لهذا قررت الرحيل.

ولم أدرك أن خبرا قرأته بدون عناية كبيرة كان هو برنامجي المقبل للعام القادم وحتى أربعة عشر عاما وإلى وقت كتابة هذه الأسطر، كان الخبر على صدر الصفحة الأولى لجريدة (النهار) اللبنانية، ويقول الخبر أنه في يوم ٢٧ أبريل عام ١٩٧٨ م وقع إنقلاب عسكري في أفغانستان قاده ضباط ماركسيون، أعلنوا أفغانستان دولة اشتراكية.

وأن الضباط الثائرون قتلوا رئيس الجمهورية) السردار محمد داوود (وجميع أفراد عائلته، وأعلنوا) نور محمد طرقي (رئيس حزب) خلق (الشيوعي رئيسا لجمهورية أفغانستان الديموقراطية الإشتراكية.

وكان) السردار محمد داوود (القتيل قد إنقلب على ابن عمه ملك أفغانستان السابق) ظاهر شاه (أثناء سفره إلى الخارج عام ١٩٧٣ م وأعلن البلاد جمهورية لأول مرة في تاريخها.

لم أهتم كثيرا بالخبر ... لم أتصور أفغانستان أكثر من قرية. وأتذكر ملكها السابق حينما زار مصر عام ١٩٦٠ م وألقى خطابا في جامعة القاهرة بصحبة (جمال عبد الناصر)، وكنت طالبا بالصف الأول الثانوي، وحضر الإحتفال مئات عديدة من طلاب وطالبات الثانوي و الجامعات.

وأتذكر أن خطاب الملك لم يكن مثيرًا لنا بل كان مملا للغاية حتى أننا تعمدنا

مضايقته ومقاطعته بعد كل جملة بتصفيق حاد لا داعي له فنحن لا نفهم ما يقوله باللغة (الإنجليزية) والترجمة إلى العربية بطيئة وركيكة وكاد يفلت زمام الوقار في الحفل وأن يعجزالملك عن متابعة الخطاب. وتمادينا في الشوشرة عليه
وأغرانا به مظهره الذي لا يلائم ملكا بقدر ما يلائم مدير (مصلحة). كان نحيلا وطويلا يرتدي بدلة داكنة أوسع قليلا من مقاسه، حتى أن أحد زملائنا النجباء همس بيننا بأن جلالته قد إستأجر هذه البدلة من عند (المكوجي)،
فسقطنا تحت الكراسي نغالب الضحك ونكتمه بصعوبة. أوشك الموقف على الإنفجار والفوضي.
وكان طلاب الثانوي يحتلون الطابق العلوي لقاعة الإحتفالات. سكت الملك قليلا، في إحتجاج مهذب على الهرج في الطابق العلوي فنظرنا نستطلع لماذا سكت فوجدناه ينظر ساهما إلى الطاولة التي أمامه بينما الزعيم ناصر الجالس إلى يمينه يوجه إلينا نظرة نارية، جعلتنا نرتجف هلعا ونكتم أنفاسنا وليس ضحكاتنا فقط، ونعد الثواني على إنتهاء الحفل، الذي ما أن إنتهى بعد منتصف الليل، حتى ولينا نعدو إلى بيوتنا ونختار الطرق المجهولة والمتشعبة من حواري
مدينة الجيزة وقد توقعنا أن تطاردنا مخابرات الزعيم وتضعنافي أقبية التعذيب التي لا يجهلها أحد في مصر.
إبتسمت لهذه الذكريات المضحكة لشقاوة المرحلة الثانوية، وتعجبت لإهتمام الصحيفة بالخبر ووضعه في صفحتها الأولى، مع صورة للرئيس الجديد) طرقي (بوجهه الشاحب وشعره الأشقر الأشيب وشاربه الكثيف. فأي أهمية لذلك البلد المجهول ذو الإنقلابات المتتابعة؟ ولم هذا الإهتمام بدولة يستأجر ملكها بدلة من عند) المكوجي (؟. ملك غير مقنع لأحد ولا يتقن الخطابة حتى أضحكنا وكدنا أن نفقد بسببه مستقبلنا الدراسي، في ذلك الإحتفال التاريخي لعيد
العلم في جامعة القاهرة في تلك السنة الغابرة ١٩٦٠ م.
وكم كنت مخطئا في ذلك الظن، فكم كانت أفغانستان هامة جدا، على مستوى حياتي الشخصية حتى الآن وعلى المستوى الدولي منذ ذلك الإنقلاب وحتى ٢٧ أبريل ١٩٩٢ م حينما انهار النظام الشيوعي هناك.
لأربعة عشر عامًا كاملة كانت أفغانستان حديث العالم بل أنها، على صغرها وضئالة شأنها في نظري غيرت خريطة العالم السياسية وكانت نقطة البداية لما يعيشه العالم من أحداث في وقتنا الراهن.
عدت إلى أبو ظبي، وقابلت إسماعيل الذي عاد قبلي بحوالي شهر وجلسنا نتداول في الأمر ونحدد عناصر الموقف كالأتى:
العمل في صفوف) فتح (لن يحقق لنا ما نطمح إليه من الجهاد ضد اليهود. ولا بد من أن نبذل مجهودا ونبحث عن طرق لإيجاد هذه الراية.
المنظمات الفلسطينية ليست سوى ألعوبة لطمس الطابع الديني للقضية الفلسطينية، أما الأنظمة العربية فهي الحارس الحقيقي لأمن إسرائيل وصانع إنتصاراتها ومجدها، وعلى ذلك فإن استعادة الطابع الإسلامي لقضية فلسطين سوف يجعل الصدام حتميا مع الأنظمة العربية.
الشعوب المسلمة تتعرض للمذابح في كثير من المواقع: فلسطين لبنان
الصومال الفلبين الهند الخ. ولن يجدوا حماية من أي جهة دولية أو حكومات إسلامية.
وعلى هذا يجب أن نعمل على تجهيز (قوة متحركة) من الشباب الإسلامي المدرب كي يتدخل لتقديم العون للدفاع عن المسلمين في مواضع الأزمات.
(جماعة الإخوان المسلمين) أصابها الوهن لأسباب عديدة ولم تعد قادرة على حمل لواء الجهاد ومواجهة التحديات المفروضة على شعوبنا، لهذا فإن الأجيال الجديدة بدأت تبحث عن طرق أخرى وتكوين جماعات جديدة قادرة على تحدي التهديد اليهودي للمسلمين.
ومع هذا فإن الخبرات القتالية القديمة للإخوان لا غنى عنها في تكوين) القوة الإسلامية (المنشودة لا بد من البحث عن ساحة مناسبة لتجميع الشباب المسلم وتدريبهم وتنظيمهم ثم تحريكهم للعمل في الأماكن المطلوبة وإذا كانت الساحة اللبنانية غير صالحة لهذا العمل ولو أننا ما زلنا نرى فيها إحتمالا ولو صغيرا فلا بد من البحث عن ساحة أخرى. وأن نجد وسيلة
لإقناع الإخوان بهذا المشروع والمساهمة فيه بخبراتهم وكوادرهم البشرية التي هي بالتأكيد الوحيدة تقريبا في هذا المجال على الساحة الإسلامية، ونقصد بهم بقايا مجاهدي ١٩٤٨ م وحرب القناة في ١٩٥١ م في مصر.

كانت ظروف الإخوان مواتية في ذلك الوقت في معظم دول الخليج واليمن الشمالي، وصادفوا إتساعا أفقيا ملحوظا داخل مصر. في أبو ظبي كان معلوما أن وزارتي التربية والشؤون الدينية والأوقاف هما رهن تصرف الإخوان والآن وزيري التربية والأوقاف هما من) الإخوان المواطنين (أي أهل البلد. وفي اليمن كانت وزارة التربية أيضا رهن تصرفهم، أما الأعمال الحرة فقد كان العديد منهم قد وصلوا فيها إلى مراتب متقدمة خاصة أولئك الذين فروا من اعتقالات عبد الناصر عام ١٩٥٤ م.

كان يعمل في أبو ظبي عدد من البارزين في حركة الإخوان من مختلف الجنسيات. حاولنا بشكل مباشر أو غير مباشر وبإستخدام واسطة مناسبة أن نستطلع رأي الإخوان المصريين بالنسبة للجهاد ضد اليهود، أو لمساعدة المسلمين المنكوبين بالمذابح. وبوجه عام كان الناتج سلبيا رغم الترحيب النظري بالفكرة بل والتأكيد على أن الجهاد هو من صلب منهج الإخوان.

وكانت حجتهم في الإحجام عن الحركة هو الخوف من الحكومة أن تنكل بهم قبل أن يستكملوا بنيانهم، خاصة إذا شعروا بمثل هذا التحرك العسكري. أما عن الساحة المصرية والجهاد فيها ضد اليهود والسادات، فكان اعتراضهم أن الصف الإسلامي غير موحد، والجماعات أصبحت لا حصر لها، وأن الإخوان يحاولون توحيد الحركة تحت رايتهم حتى يتمكنوا من الجهاد.

بمثل هذه الأعذار وغيرها فهمنا أنهم غير مستعدين للسير في هذا الطريق. ومع هذا كان لا بد من عمل شيء.

من دائرة الأصدقاء إكتسبنا شخصين متعاطفين مع الفكرة. ولما لم يكن لدينا تصور عملي واضح ولا إمكانية للتنفيذ بدون أن يتبنى الفكرة تنظيم كبير وقوي

كالإخوان، لم يكن ممكنا أن نقنع غير القليلين بالوجاهة الفكرية للموضوع أما التنفيذ العملي، فقد وقفنا تائهين حتى جاءتنا فجأة الفرصة التي ننتظرها ومن الناحية التي لم نتوقعها بالمرة ... أفغانستان.

في المسجد الصغير لسوق أبو ظبي القديم تعرفنا عمليا علي أول الخيوط التي أوصلتنا إلى _ أفغانستان. كان إمام المسجد شيخا أفغانيا تجاوز السبعين وكان يعمل قاضيا في مدينة هيرات وهو كما قال لنا من السلالة النبوية الشريفة ويدعى (السيد محمد طاهر.

كان وقورا محبوبا، قراءته للقرآن مؤثرة فاجتذبت إلى مسجده كثيرين. أما مؤذن المسجد فهو ولده) السيد أحمد (وهو شاب قوي البنية لطيف المعشر، له أخ وحيد في الثانية عشر يحاول جاهدا العثور على فرصة لدراسة العلوم الدينية في المدارس المحلية.

كنا نجلس مع الشيخ وإبناه في غرفتهم الضيقة جدا داخل المسجد كي يحدثنا عن أفغانستان وما يجري فيها.

كانت الصحف الغربية ووكالات الأنباء تنقل أطرافا عن الأحداث الدامية في أفغانستان، وتحذر بأنها) كوبا (جديدة في المنطقة. وكالعادة فإن الصحف العربية والإسلامية بدأت تترجم عنها نفس الكلام وتطلق نفس التحذيرات. وعرفنا أخبار المقاومة الشعبية الأفغانية للنظام الشيوعي الدموي وظهر مصطلح (الجهاد) و (المجاهدون) في صحف الغرب والصحف العربية فإستيقظت كل حواسنا وبدأنا في متابعة الأمر عن كثب ومن كل المصادر الممكنة.

قررت مع صديقي إسماعيل أن الذهاب إلي أفغانستان أصبح ضروريا، فربما يأتي الحل الذي ننتظره من هناك. وتأكدنا من (السيد طاهر) من قيام حركة جهاد قوية يرأسها علماء، يقاتلون ببطولة جيوش الحكومة الماركسية، وأن قرى بأكملها تباد ويدفن، علماء وطلاب علم، أحياء.

وأن المجاهدين في حاجة ماسة لكل شيء لمواجهة الآلة العسكرية الحديثة للدولة المدعومة من موسكو.

ذهبنا لزيارة الشيخ طاهر مع عدد من الأصدقاء المهتمين بما يحدث في أفغانستان، فوجدناه يستضيف وفدا قدم مؤخرا من هناك، خمسة علماء يرأسهم) مولوي آدم (وهو شيخ نحيف طويل القامة يرتدي نظارة طبية سميكة من النوع الرخيص. كان هو الوحيد من بينهم الذي يستطيع التفاهم بعربية فصيحة لا تخلو من أخطاء.

كانوا جميعا من ولاية باكتيا. كان الوفد جميعا من المجاهدين العلماء وقد شاركوا في معارك الأشهر الماضية. وحدثونا كثيرا عن وقائع القتال وفظائع الحكم الشيوعي، وقوة الجيش ومعداته الحديثة، وإنتصاراتهم على الشيوعيين في مواقع كثيرة وأحداث عجيبة صادفتهم في الجهاد.

كان سقوط الشاه في إيران وانتصار "الثورة الإسلامية" سببا كبيرا في ارتفاع المعنويات الإسلامية في كل العالم. وبالنسبة لنا بوجه

خاص، فقد شعرنا أن مشروعنا الجهادي ليس خياليا كما يظن البعض. وفي الشهر التالي لسقوط الشاه
تعرضت مدينة هيرات الأفغانية لمجزرة هائلة راح ضحيتها ثلاثون ألفا من المسلمين على أيدي القوات الشيوعية التي يدعمها طيران سوفييتي.
وكانت أخبار هيرات تصل بالتفصيل إلى (الشيخ طاهر) ونستمعها منه أولا بأول.
بدأ فصل الربيع، وحددت مع إسماعيل موعدا تقريبيا للسفر مع بداية الصيف، وحتى ذلك الوقت كان علينا أن نبحث عدة مشاكل منها توفير مبالغ لشراء أسلحة لنا. في رحلة بيروت السابقة لم نكن مضطرين لشراء السلاح فقد كان متوفرا بكثرة لدى فتح، أما هؤلاء فأسلحتهم قليلة وقديمة، وطبقا لما أفادنا به الوفد الأفغاني فإن الأسلحة متوفرة في أسواق المنطقة القبلية في باكستان وهي ملاصقة للحدود الأفغانية.
المشكلة الثانية هي ضرورة إنضمام أشخاص جدد إلينا فلا تبقى) القضية (جامدة ومحصورة في شخصين فقط.
المشكلة الثالثة حاجتنا إلى دليل يعبر بنا باكستان ويوصلنا إلى مكان المجاهدين.
بالنسبة للمشكلة الأولى كنا سويا نعاني من أزمة مالية نتيجة لمشاكل في العمل واجهتنا بعد العودة من لبنان. أما المشكلة الثانية فكان أقرب الناس إلينا هما شابان من مصر "بدوي" و جمال، وكلاهما مرتبط عائليا بالذهاب إلى مصر مع الأسرة في الإجازة الصيفية.
ومن المصادفات السعيدة تلك الليلة التي قابلت فيها ذلك الشاب الصعيدي "أحمد المنياوي" في منزل صديقي"أمين نار". كان بينهما صداقة متينة وجمعتهما الجذور "الإخوانية" القديمة في عائلتيهما. فأحمد هو إبن "الحاج حسني المنياوي" (¬١) المجاهد القديم في فلسطين والعضو السابق في القسم الخاص بالإخوان.
وأمين من عائلة إخوانية متأصلة، خاله الشيخ عبد البديع صقر، وعمه أحمد نار (¬٢) من العسكريين البارزين في إخوان ١٩٤٨ ومؤلف كتاب) القتال في الإسلام (وهو إسم غريب في عالم الكتب.
إكتشفت فيما بعد الصفات التي ربطت كلا الشابين في صداقة قوية، فكلاهما كريم إلى درجة غير عادية، وكلاهما ذكي وملاح، وكلاهما جسور مقدام. أما أحمد فكان له ميزة إضافية هي موجات الغضب التي تنتابه فجأة، وعلى كل من حوله وقتها أن يختبئ خلف أقرب ساتر.
ولكنه ما يلبث أن يعود إلى طبيعته ويشعر بالندم. ورغم تلك) لإنفجارات المنياوية (إلا أنه كان الأكثر فيمن عرفت شعورا بالرحمة والعدل.
شعرت أن أحمد يعيش نفس الحالة الشعورية للمسلم التائب العائد حديثا إلى دينه، تلك الحالة الروحانية العالية، والحماس للعمل من أجل الإسلام. وكان هذا هو

____

(¬١) الحاج حسنى المنياوى: بدأ الجهاد فى فلسطين قبل إعلان الحرب رسمياً ودخول الجيوش العربية ومتطوعى الإخوان. وقد أصيب بجروح بليغة أثناء الحرب نتيجة إنفجار مصفحة كان قد صنعها بنفسه وهاجم بها مستعمرة يهودية لكن مصفحته اليدويه لم تصمد للنيران اليهوديه. توفى الحاج حسنى بعد وصوله الى مصر بعدة ايام فى مايو ١٩٩٤. وعاش هارباً من مصر لكونه مطلوباً بتهمة الجهاد في فلسطين).

(¬٢) احمد نار: شارك فى حرب فلسطين - إعتقله نظام عبد الناصر. وإنهارت صحته نتيجة التعذيب ومات بعد أيام من خروجه من المعتقل بعفو صحي

الرباط الذي جمع ثلاثتنا أنا وإسماعيل وأحمد. أما صديقي أمين فكان يعيش حالة إسلامية مستقرة منذ ولادته، وقد أشرف الشيخ عبد البديع على تربيته لهذا لم تكن لديه نفس الروح المندفعة التي إنتابتنا، بل حذرني من تكرار الذهاب إلى لبنان وترك عائلتي، وهددني مازحا بأنه سيمنعني بالقوة، وكان طويل القامة ضخم الجسم، ولكنه والحق يقال كان متعاطفا إلى أقصى حد مع) مغامراتي الجهادية (وكان يكثر الدعاء لي والسؤال عن أحوالي.
تحدثنا في جلستنا تلك عن مشروعاتنا، أمين كان يخطط لإصدار كتيبات صغيرة ومبسطة في أحكام العبادات، أما أحمد فكان أكثر حركية وكان يفكر في رحلة طويلة فوق جمل يطوف في بلدان آسيا يدعو إلى الإسلام، وكان مشروعي هو الجهاد، لأن أمم الكفر

تأكلنا كقصعة من ثريد، وأننا سوف نباد ونذبح كالخراف إذا لم نقاتل.
بعد إنتهاء الجلسة ودعنا أمين وخرجت مع أحمد سيرا على الأقدام وتحدثنا في الطريق، وعرضت عليه السفر معي للجهاد في أفغانستان. إندهش للفكرة ولكوني لم أعرض الأمر على أمين، ولكن ما هي إلا دقائق معدودة حتى وافق بحماس، وطلب مهلة شهرين أو ثلاثة حتى يستخرج جواز سفر جديد. لم تكد الدنيا تسعنا أنا وإسماعيل بهذا التقدم. إن رحلتنا إلى أفغانستان قد كسبت عضوا جديدا، وبعد أن كنا اثنين فقط عند سفرنا إلى لبنان للجهاد عام ١٩٧٨ م، فها نحن نخرج عام ١٩٧٩ للجهاد في أفغانستان ونحن ثلاثة. إن) مشروعنا (يتقدم وزاد عدد الأعضاء بنسبة خمسين في المائة مرة واحدة.
أما المشكلة الثالثة من يرافقنا إلى أفغانستان؟ فقد بدأت تحل تدريجيا. فقد سافر إلى هناك) السيد أحمد (إبن الشيخ طاهر بصحبة وفد المجاهدين و عاد بعد عدة أسابيع محملا بمجموعة من الصور الملونة إلتقطها هناك، ومعه رسائل باللغة العربية من قائد المنطقة التي زارها ويدعى جلال الدين حقاني.
كانت الرسائل تصف الأحوال الصعبة للمجاهدين، وإنتصاراتهم رغم ذلك، وتطلب العون والمدد. أما الصور فكانت تعبر بطريقتها عن نفس المعنى.
ولم أتخيل وأنا أطالع الصور أنني سترتبطني يوما ما صداقات قوية مع أصحابها، وأن كثيرا منهم سوف يستشهدون تباعا. أو أن قائدهم جلال الدين سترتبطني به أحداث طويلة وصداقة قوية لسنوات طويلة، وما زالت مستمرة حتى هذه اللحظة.
أو أن تلك الصخور الصلدة والأشجار الخضراء التي تكسو الجبال سوف تترك بصماتها على جسدي وفي أعماق ذاكرتي.
أو أن أفغانستان سوف تتحول من حلم أو أمل، إلى حياة كاملة وتجربة إحتوت حياتي كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها.
كما لم أتخيل أن تلك الوجوه الصلدة التي أشاهدها في الصور أمامي سوف تغير تاريخ العالم كله. وبلا شك أنهم هم أنفسهم لم يتخيلوا ذلك على الإطلاق.

٨.٤ اللقاء الأول مع أفغانستان

أحضر "السيد أحمد" خطة تفصيلية لمن أراد من العرب الذهاب إلى أفغانستان وكان يعلم نوايانا في هذا الصدد وناقشنا معه الخطة، فلم يكن منا أحد قد زار باكستان قبلا، وإتفقنا ضمنا على أن يكون السيد أحمد مرافقنا في هذه الرحلة.
كان أحمد المنياوي يعاني ماليا هو الآخر، وإستطاع مؤخرا إستخراج جواز سفر، ولما إقترب موعد السفر الذي كان مقررا أن يكون مع بداية الصيف، لجأ أحمد إلى صديق له من أبناء الأسرة الحاكمة وشرح له ما يجري في أفغانستان، وأنه بنوي الذهاب إلى هناك للمساعدة والجهاد.
فحصل منه على تبرع صغير كان كافيا أن نضعه في بند التسليح. واتفقنا
على أن نترك هذه الأسلحة التي سوف نشتريها بعد عودتنا حتى يستخدمها المجاهدون.
إنتهت جميع المشاكل وتم تحديد يوم السفر بدقة وذهبنا لإخطار السيد أحمد مرافقنا في الرحلة ولكن وجدنا مفاجأة في إنتظارنا، لقد قرر الشيخ الكبير السيد محمد طاهر أن يصاحبنا بنفسه بدلا عن ولده الشاب ذو الخبرة في الطريق، وقال الشيخ بإصرار) إنني أيضا أريد الجهاد I وأسقط في يدنا!!.
اللقاء الأول مع أفغانستان:
{بعد الفراغ من ذلك الكتاب عثرت علي رسالة قد كتبتها لزوجتي بتاريخ" ١٠ يونية ١٩٧٩" بعد وصولي إلي أفغانستان أضع فقرات منها في مقدمة ذلك الفصل إستكمالا للصورة الواقعية للأحداث و الآمال و المشاعر التي كنا نحياها في ذلك الوقت.
وهذه بعض المقتطفاف:
"حوالي التاسعة مساء، ووصلنا إلي الفندق بعد مغامرات مضحكة و - ... أولا وصلنا إلي كراتشي يوم الخميس"٥ - ٣١

بقينا في كراتشي يوم الجمعة ثم ركبنا الطائرة يوم السبت ظهراً إلي بيشاور حيث قابلنا بعض الإخوة المجاهديين، وبيتنا معهم. أصطحبونا يوم الأحد صباحا في رحلة صوب قواعد المجاهديين.
أستمر سيرنا حتي بلدة أسمها" ميرام شاه" بها عائلات المجاهديين المهاجريين من أفغانستان و أستقبلنا المجاهدون هناك بحفاوة شديدة و أكرمونا للغاية و بقينا عندهم يومًا واحدا. و في اليوم التالي ركبنا السيارة لمدة ساعتين حتي قرية جبلية أسمها "سيبا خيل" وكنا قد لبسنا الملابس المحلية و بدأنا رحلة سيرا علي الأقدام بين الجبال لمدة يوم حتي
وصلنا قبل المغرب إلي منزل أحد أعيان المنطقة الذي علم بوجود عرب في القافلة فدعانا للمبيت عنده و أكرمنا كرما شديدا. في الصباح سرنا لمدة يومين آخرين بين الجبال المليئة بالغابات الضخمة الجميلة.
بدأنا المسير و كانت المنطقة تزداد جمالا كلما تقدمنا في السير. الجبال كثيرة و شاهقة و ينابيع الماء العذب تنبع من كل مكان من الجبال و تسير مثل الأنهار في الوديان. كان السير شاقا في مثل هذه الجبال ولكن مناظرها كانت غاية الروعة.
وفي الليل وصلنا إلي أول مركز عسكري للمجاهدين وأستقبالنا أستقبالا لا مثيل له و أطلقوا في الجوي مئات الطلقات من البنادقو المدافع الرشاشة ثم عانقونا و قبلونا، و بعضهم بكي من التأثر. وفي هذا الموقع كان هناك قائد جيش الولاية و أسمها ولاية
باكتيا الذي رحب بنا ترحيبا شديدا وبقي معنا في الموقع لمدة يوم. رأينا فيها الأسلحة الكثيرة الحديثة التي إستولي عليها المجاهدون. و رأينا الدبابات و المصفحات و السيارات التي حطموها في الحرب و رأينا بعض جنود و ضباط جيش الحكومة منضمين الي المجاهدين.
ثم واصلنا سيرنا بعد قضاء يوم معهم متوجهين للقاء القائد العام للمجاهدين في هذه الولاية و هو مولانا جلال الدين حقاني. و سرنا يوما بين الجيبال و الغابات و ينابيع الماء العذبة. ورغم تعبنا الشديد كان يخيل لي اننا نسير في الجنة. و أرجو إذا كان لي بقية من العمر أن أحضر أنا وأنت و الأولاد لنعيش أياما في هذه الجنة التي علي الآرض، و ذلك بعد أن يعود حكم الإسلام لهذه البلاد. و علي طول الطريق كنا نجد سكان القري الجبلية في إنتظار مرورنا، ولا أدري كيف علموا بأننا سنمر من هذه الأماكن. بعضهم قدم لنا الطعام و الشاي و اللبن. و بعضهم طلب منا أن نمسح بأيدينا علي أطفالهم المرضي، و كنا نقف و ندعوا جميعا لهم بالشفاء و النصر علي أعداء الدين. و الجميع هنا حتي الان يعاملوننا بكرم لم أري مثلة في حياتي، يتسابقون في خدمتنا و أكرامنا حتي أننا كنا نخجل من أنفسنا. ورغم فقرهم كانوا يوفرون كل راحة لنا. و بعد مسيرة يوم ونصف وصلنا إلي موقع قريب من موقع قائد العام الذي أرسل لنا رسالة كي ننتظرة في هذا الموقع حتي يحضر لاستقبالنا، فبالأمس أنتصر المجاهدون علي الشيوعيين في معركة كبيرة استولوا فيها علي أسلحة كثيرة و أسروا بعد الروس وقتلوهم، و استسلم لهم كثير من الجنود. والقائد العام مشغول في التجهيز للمعارك القادمة. و غدا أو بعد غد سنستلم الأسلحة الخاصة بنا و نستقر في الموقع الذي يقرره لنا قائد الجيش إن شاء الله. المجاهدون هنا في غاية الكرم وقوة العقيدة، وقوة إحتمالهم السير و صعود الجبال لا مثيل لها.
و أرجو أن تطمئني عني من جميع النواحي فأنا سعيد في مكاني هذا و كأنني في رحلة الحج، وأدعو الله أن يجعل لك أجرا كبيرا علي مساعدتك لي في أعمال الطاعة .... }
** غمرتني رحلتنا الأولى إلى باكستان بالدهشة، فلأول مرة أسافر إلى خارج البلاد العربية، وصديقاي أحمد وإسماعيل لم يكونا أقل دهشة، ولكن رحلاتهما العديدة إلى أوروبا جعلت دهشتهم مشوبة بالإستهجان، أما مرافقنا الشيخ طاهر فلا يكف لحظة عن تلاوة القرآن والتسبيح إلا في الحالات التي يغلبه فيها النوم.
كثير من معالم الرحلة الأولى لم يكن حدثا عابرا، بل كانت ثوابت لم تكد تتبدل للتجربة الأفغانية.
قبل أن تصل الطائرة إلى مطار كراتشي، تعددت الإقتراحات حول الخطوات القادمة، وبحكم تقارب السن، واختلاف طريقة التفكير إحتدم النقاش بين إس اعيل وأحمد وطرحت مسألة الإمارة وتحول النقاش إلى عناد وإصرار، واضطررت إلى التدخل وتسيير الأمور طوال الرحلة بنوع من التفاهم الجماعي و التراضي الطوعي بدون الخوض في الدروب الخطرة لموضوع الإمارة.
وبدأت التجربة الأفغانية وإنتهت وهي تعاني من مشكلة الإمارة سواء على الجانب الأفغاني أو الجانب العربي. لهذا كانت الفوضى هي

أبرز السلبيات التي شابت تلك التجربة.

في صالة الجمارك إنفجر الغضب المكنون في نفس المنياوي، وجاء الإنفجار في وجه ـ ضابط الجمارك الذي أراد تحصيل الرسوم على كاميرا فيديو كانت

معه. إنفجر صديقنا بسيل من الشتائم المنتقاة من قاموس أزقة لندن وإنهال بها على رأس الضابط المسكين وبأعلى صوت.

فتوقف العمل في الصالة وتجمهر رجال الجمارك والمسافرون وعمت الفوض وحضر مدير قسم الجمارك، الذي بادره السيد طاهر بجهود وساطة وبلغة

فارسية لم يفهم منها الضابط حرفا واحدًا، لكن السمت الوقور للشيخ وقامته المهيبة ولحيته البيضاء مثل كتلة ضخمة من الثلج، أثرت في المسؤول الذي أنهى المشكلة فورا وسمح لنا بالخروج بدون دفع رسوم أو حتى تفتيش أمتعة. والطريف أن أمتعة صديقنا أحمد كانت تحتوي على عدة أجهزة إرسال لاسلكي صغيرة متنقلة وكان ذلك كفيلا إذا ضبطه رجال الجمارك بأن نتحول من سياح محترمين، إلى ضيوف في قسم شرطة المطار أو حتى في سجن كراتشي.

لقد نظر العرب إلى باكستان نظرة دونية، وتصور الشباب الذي جاء من دوله الأصلية أو المهجر في أوروبا والغرب، أن باكستان دولة بلا أجهزة أمن أو قانون. دفعهم ذلك إلي إقتراف كثير من التجاوزات، وإلي إستبعاد أي إجراء أمني قد تقوم به حكومة باكستان ضدهم مستقبلا.

فانعدم لديهم أي شعور أمني. وقد دفعوا ثمن كل ذلك عندما تغيرت سياسة الدولة في باكستان وقررت توجيه الضربات إلى المجاهدين العرب. كذلك فإن أجهزة الأمن المعادية العربية والصليبية لم تجد صعوبة تذكر في معرفة كل شيء تقريبا عن التحشدات الجهادية للشباب العرب في وسط تسوده الفوضى وإنعدام الحس الأمني.

خرجنا إلى شوارع كراتشي ونحن لا نصدق أننا نجونا من تلك الورطة. وشعرنا بالإعزاز للشيخ طاهر، وفضله في حل الأزمة. أوقفنا سيارة أجرة وركبنا، أصدر الشيخ طاهر أوامره بالفارسية إلى السائق قائلا: "مسافر خانة".وتصادف أنها هي كذلك بالضبط في اللغة الأوردية.

حاول السائق الحصول على مزيد من المعلومات لكن اختلاف اللغات حال دون ذلك.

ولم نفلح نحن أيضا في إنتزاع أي معلومة إضافية من الشيخ طاهر عن هذه المسافر خانة وموقعها بالنسبة لخريطة كراتشي الشاسعة الأرجاء والتي يقطنها أكثر من إثني عشر مليون من البشر. ولكن اللغة العربية لدى الشيخ أفشلت محاولاتنا وتذرعنا بالصبر على أساس أنه يعلم ما يفعله.

في أعماق المدينة دخلنا أزقة ضيقة ووقف بنا السائق أمام بناية ضيقة المساحة مرتفعة البنيان وأشار بيده على أنها المسافر خانة. كانت الكهرباء مقطوعة والحر شديد وغرف "المسافر خانة"تنبعث منها أضواء خافتة لمصابيح الغاز، النوافذ متسعة وجلس عليها رجال أنصاف عراة من شدة الحر وهم يخاطبون من الطوابق المرتفعة زملاء لهم في الشارع، وباعة متجولون.

تبادلنا النظرات المندهشة، ليس لدينا شك في أن هذا المكان مشبوه، يأوي النشالين ومتعاطي المخدرات وكافة مهن العالم السفلي.

نزلنا في الشارع مع حقائبنا وإندفع نحونا) دررزن (من عمال المسافر خانة وظننا لوهلة أننا تعرضنا لهجوم مباغت. أمسكوا بالحقائب وجذبونا من أيدينا نحو الفندق ولكننا تسمرنا بالأرض، ورجوناهم الهدوء، ولكن صديقنا أحمد أنقذنا بواحدة من إنفجاراته الصعيدية، فبهت الرعاع وتوقفوا.

وتحلقنا حول الشيخ طاهر نسأله إذا كان هذا هو المسافر خانة الذي يعنيه، فقال أنه لا يعرف.

كدنا أن نفقد عقولنا، نحن الآن في وسط هذه التهلكة ويقول لا أعرف!!.

والأدهى أننا فهمنا منه بصعوبة بأنه لم يحضر قبلا إلى كراتشي أو أي مكان آخر في باكستان.

كدنا نسقط من هول المفاجأة ... كيف سيقودنا إذن إلى أفغانستان؟ وماذا سنفعل؟

عثرنا على سيارة أجرة، وإنتزعنا أنفسنا وحقائبنا من بين الرعاع وطلبنا من السائق الإنطلاق بسرعة.

عثرنا أخيرا على فندق معقول، وفي الصباح بدأنا في إستجواب الشيخ عن خطته في الرحلة بعد إكتشاف ليلة أمس الذي روعنا، بأنه

لم يأت قبلا إلى هنا أخرج الشيخ من جيبه ورقة صغيرة في حجم نصف الكف، بها عنوان في مدينة بيشاور لأحد الدكاكين من منطقة بارة وهذا كل شيء.
شعرنا بالعرق البارد يتصبب من أجسامنا وتركنا الشيخ في الفندق وخرجنا نتجول في الشوادع لنتدارس الأمر، وأيضا خوفا من أن ينفجر صديقنا المنياوي في وجه شيخنا الوقور.
لقد واجه الشباب العرب في السنوات التالية مواقف أشد غرابة وأكثر خطورة، بسبب القفز في الظلام إلى المجهول.
وكثير من تلك القصص إنتهى بمآسي، وكثير منها يصلح للفكاهة. فبعد حادثتنا بخمس سنوات تقريبا ذهب شاب عربي إلى السفارة الأفغانية في إسلام آباد طالبا تأشيرة دخول إلى أفغانستان، ولما سأله القنصل عن سبب الزيارة رد عليه الشاب في براءة:
"أنا ذاهب للجهاد".فثار القنصل وأمر رجال الأمن في السفارة بطرده شر طردة. شاب آخر وصل إلى بيشاور وطلب من سائق عربة (الركشا) أن يوصله إلى أفغاستان.
فأخذه إلى موقف باصات في المدينة ينقل الأفغان يوميا عبر ممر خيبر إلى أفغانستان حتى العاصمة كابل، ونادرا ما تطلب نقطة الحدود على الطرفين إبراز الهويات من الركاب.
وصل صديقنا إلى كابل وقد ظن الجميع أنه من سكانها فقد كان غير ملتح ويرتدى الزي الأوروبي. هبط في محطة الباص في كابل ينظر حوله وإذا الدبابات والعربات المكدسة بالجنود تملأ الطرق وتندفع في كل اتجاه. وقف محملقا لا يدري ما يفعل حتى تقدم منه شيخ أفغاني وقور كان يرافقه في رحلة الباص وسأله بالأفغانية فأجاب الشاب بالعربية، ولحسن حظه أن الشيخ يعرفها.
فسأله الشيخ عن وجهته فأجاب الشاب ببراءة: "أريد المجاهدين فقد جئت للجهاد".إمتقع وجه الشيخ وكاد يسقط من هول الصدمة والتفت حوله من الذعر، وسحب الشاب من ذراعه وأخذه بعيدا، واستضافه في بيته إلى الصباح وشرح له أن كابل هي عاصمة البلاد ويحكمها الشيوعيون والروس وأن عليه أن يغادرها عند الفجر ويعود من حيث أتى. وبمعجزة نجى الشاب من هذا المأزق وعاد إلى بيشاور.
ركبنا الطائرة إلى بيشاور، كانت مهمتنا الوصول إلى ذلك الدكان في) سوق بارة) بينما تدور في أذهاننا إحتمالات مبهمة، ماذا لو كان الدكان مغلقا إلى أجل غير مسمى، أو أن صاحبه مسافر أو أصيب في حادث؟.
من هو صاحب الدكان وما صلته بالمجاهدين وكيف سيأخذناإلى هناك؟. ماذا سنفعل لو سألتنا الشرطة عن سبب وجودنا في بيشاور وماذا نفعل في (بارة) والبلدة كلها كما علمنا مشهورة بتهريب المخدرات والأسلحة؟.
بينما نحن واجمون، كان يجلس في الصف المقابل لنا في الطائرة عدد من الشباب الأوروبي مع رجل عجوز وزوجته وكلهم في حالة من المرح والإنبساط سألني أحمد عما يمكن أن يفعله هؤلاء في بيشاور، فأجبته بأنه النشاط الغربي العادي في بلاد المسلمين: التجسس والتخريب. رأيت الغضب والتحفز في ملامحه وخشيت أن يفتعل معركة معهم، فنصحته بالهدوء.
ولما شرع الركاب في مغادرة الطائرة لم يتمالك صديقنا نفسه من أن يتوجه إلى أحد الشباب الغربي ويسأله بإنجليزية طلقة عما ينوي فعله في بيشاور.
نظرالشاب بتعالى وأجابه باستخفاف: أنوي صيد السمك. كانت هيئته وإجابته غنية بالدلالات.
لم نكن ندري وقتها أن الغرب سبقنا إلى هنا بعشرات السنين، وأن التوجيه الحقيقي للأحداث هنا هو في أيديهم ولكن عبر أيادي وطنية كما هي الحال في بلادنا.
لقد كان الغرب في بيشاور يصطاد، لقد إصطادوا الروس بواسطتنا نحن المسلمين ثم إصطادونا نحن بواسطة السلطات الباكستانية عندما إنتهت فائدتنا بالنسبة لهم.
كانت الهيئة المتعالية والرد المتعجرف للشاب الغربي تلخيصا بليغا للوضع القائم، بل لتجربتنا المريرة في أفغانستان من أواخر السبعينات حتى أوائل التسعينات.
كانت مهمتنا في) بارة (أسهل مما توقعنا، إصطحبنا صاحب الدكان إلى قرية صغيرة بين المزارع الواقعة خلف شارع) بارة (، وأدخلونا غرفة صغيرة في بيت طيني متواضع، وتعرفنا هناك على شخصيات كان لها دور كبير في أحداث السنوات التالية، مثل حاجي) دين محمد (الذي كان يشغل منصب نائب) مولوي محمد يونس خالص (قائد حزب إسلامي أفغانستان.

وفي وقت لاحق صار دين محمد هو الموجه الحقيقي للحزب. وتعرفنا على أخيه حاجي عبد القدير الذي شغل منصب والي جلال آباد بعد "الفتح "وسقوط النظام الشيوعي.

فى اليوم التالى أحضر لنا حاجي دين محمد ملابس أفغانية لي ولأصدقائي، وتحركت بنا سيارة خاصة صغيرة في إتجاه مدينة ميرانشاه الحدودية في طريق يستغرق حوالي ست ساعات. كنا سبعة محشورون داخل السيارة الصغيرة، وكان من المفروض علينا العرب الثلاثة ألا نتكلم إلا داخل السيارة وهي تتحرك أما عندما نقف في الطريق لأي سبب فلا كلام ولا حديث.

"قاري محمود" أحد الذين تعرفنا عليهم في الحجرة الطينية في) بارة (إتجه إلى ميرانشاه في أحد الباصات العامة كي يقابلنا هناك ويصاحبنا إلى الداخل كدليل ومترجم.

و"قاري محمود" طالب علم أفغاني ولكنه ذو طابع أزهري واضح، فهو يحب النكتة، ذكي ومراوغ.

حدثنا عن أساتذة له من الأزهر، تلقى منهم العلم في مدرسة) نجم المدارس (في جلال آباد، أحدهم كان "أزهريا فاسدا" تسير بناته في شوارع المدينة بأزياء فاضحة) مثل الشيوعيين (أما الآخر وإسمه "الشيخ المحلاوي (¬١) " فكان رجلا صالحا ويظن أنه من الإخوان المسلمين، حضر إليهم فى المدرسة يوم وقوع الإنقلاب الشيوعي، وتولى طراقى الحكم، فوجد الطلاب في انتظاره لتلقي الدرس فألقى فيهم موعظة صغيرة وبليغة، فقال لهم:

) لقد جاءكم إبن الكلب كما جاءنا إبن الكلب فماذا تفعلون هنا؟ اخرجوا إلى الشوارع (

وبالفعل بدأ طلاب نجم المدارس مظاهراتهم ضد النظام الشيوعي ومنذ ذلك اليوم لم تفتح المدرسة أبوابها. بعد فتح جلال آباد وجدت المدرسة مدمرة تماما ... وحتى أحجارها اختفت.

وقد وضع "مولوي خالص" بنفسه حجر الأساس لبناء جديد للمدرسة.

ما أن وصلنا ميرانشاه حتى أدخلونا أحد بيوت" المهاجرين "الأفغان، وكان فارغا من السكان ومجهزا لنا. ونصحونا بالحيطة لأن المساكن المجاورة هي للمليشيات الحكومية، والبناء الضخم المقابل هو مقر الحاكم ومن المحظور تواجد الأجانب في هذه البلدة الحدودية.

والمهاجرون هنا، هم مجموعة من المجاهدين القدماء الذين فروا من أفغانستان إثر محاولات فاشلة لمقاومة حكم داوود العلماني المتحالف مع حزب) بارشام (الشيوعي.

____

(¬١) (الشيخ المحلاوى يسجل هنا أول إرتباط جهادى بين العرب وبين جلال آباد تحديدًا، وهى التى شهدت اكبر تورط عسكرى للمتطوعين العرب فى تلك الحرب.

كما شهدت جبالها آخر معارك أسامه بن لادن وكانت فى آواخر الحملة الأمريكية على أفغانستان عام ٢٠٠١ م أبحث عن تفاصيل اكثر فى كتابنا'صليب في سماء قندهار).

أعجبنا الجو القروي للمنطقة، والمسجد المتواضع أمام البيوت وسط ساحة واسعة، وفي مقابله بركة يصلها الماء عبر جدول صغير، تستخدم للوضوء، مع أن الماء فيها ممزوج بالضفادع بحيث يصعب تجنب إغتراف الضفادع مع الماء خاصة في وقت العتمة.

وكان أكثر الناس ترحيبا بنا وفرحا بقدومنا هو شيخ المسجد وهو رجل ضرير، وسيم الملامح ممتلئ الجسم حسن الصوت بارع في تلاوة القرآن. ولديه عدد من الأطفال يدرسون القرآن في المسجد. كان الجميع ينادونه) قاري سيب(، ... أي السيد القارئ. قال لنا هذا القاري كلمة لا أنساها إلى الآن، قال: لقد جئتم إلينا تطبيقا للآية الكريمة) وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر(.

وما زال) قاري سيب (كلما قابلني حتى الآن يسألني: كيف حال رفقائك أحمد وإسماعيل؟

كنا بالنسبة لهم مثل كائنات هبطت عليهم من الفضاء. وكانت دهشتهم لا توصف أن يأتي إليهم عرب كانت الدهشة والروحانيات العالية هي سمات رحلتنا الأولى سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة للأفغان

وفي داخل أفغانستان كانت مظاهر الحفاوة عجيبة، خاصة من سكان القرى.

فما أن وطأت أقدامنا أرض أفغانستان حتى طار الخبر بسرعة كبيرة، كانت بعض القرى مدمرة وخالية تماما من السكان، وبعض القرى سليمة أو أن الدمار فيها قليل.

القرى التي علمت بأمرنا خرجت تقابلنا عن بكرة أبيها. بعضهم إستقبلنا على بعد مئات من الأمتار من القرية. وكان أكثر ما أحرجنا هم هؤلاء المرضى أو المصابين الذين طلبوا منا أن نرقيهم طلبا للشفاء.

وخرج الناس بأطفالهم المرضى يطلبون منا أن نقرأ عليهم شيئا من القرآن. في البداية رفضت بشدة، ولكن مرافقنا الأفغاني ألح قائلا بأن إمتناعى سوف
يحزنهم كثيرا.

كنت أشعر بالخجل، فهؤلاء المساكين يحسبوننا من أولياء الله الصالحين، بينما نحن على حالة مذرية من ضعف في الدين وقلة في العمل. كنا نراهم أفضل منا حالا بما لا يقارن، لقد تحدوا حكومة كافرة مزودة بجيش قوي حديث وتدعمها قوة عظمى. بينما نحن العرب قد فرطنا في الدين والأرض، ووقفنا نرتجف أمام حكومات من القش. ورغم ردتها الفاضحة فقد أكسبها) علماؤنا (صفة الشرعية وأكسبتها قطاعات العمل الإسلامي الكبرى صفة أولياء الأمر. كنا نرى في القروي والراعي والحطاب الأفغاني أكثر علما وأكثر) حركية (من علمائنا وأبناء حركتنا الإسلاميةوجهابذتها.

ومن بين كل حالات الترحاب التي لا تحصى ما زلت أذكر ذلك الشيخ الهرم، كان بدويا مهيب القامة ذو لحية ضخمة لم تكن لحية أنيقة كالتي ذهبنا بها إليهم قابلناه في أحد الشعاب ونحن نشرب الماء وقد أعيانا المسير وقت الظهيرة، كنت مع صديقي أحمد وأحد المجاهدين.

علم الشيخ أننا عرب فهجم علينا يحتضننا. أخذني بين ذراعيه بقوة حتى شعرت بعظامي تتداخل، وكان يبكي بحرقة ويتمتم بكلمات فهمت منها:"رسول الله ... الصحابة الكرام ... الكعبة المشرفة". ولولا الآلام في عظامي لبكيت معه، وكان في بكائه ينتحب ويتشمم ملابسي ورأسي بعمق وكأنه يريد أن تلتصق تلك الرائحة في جدران صدره. وكأنه يجد فيها عبق هؤلاء الصحابة الكرام. كم كنت خجلا من نفسي وقتها. أصر الشيخ على دعوتنا على الطعام وصعدنا الجبل إلى بيته الصغير. وأخبر الشيخ زوجته العجوز بالخبر المذهل: لدينا ضيوف من العرب.

كادت هي الأخرى أن تطير من الفرح وأمطرت مرافقنا الأفغاني بوابل من الأسئلة فعلمت أننا قدمنا للجهاد في أفغانستان. لم تكد تصدق ما تسمع. وذهبت مسرعة لتصنع لنا طعاما.

فطيرة ساخنة تسبح في السمن مع طبق من الشهد. وإعتذرت هي وزوجها كثيرا عن أن طعامهما غير مناسب، وأننا نريد الذهاب بسرعة ولولا ذلك لذبحا لنا شاة.

خرجنا متأثرين بتلك الحفاوة الصادقة وذلك الكرم العجيب. كنا متفقين أنا وأحمد أن هؤلاء البسطاء في الجبال هم أفضل منا بكثير وأن إسلامهم أكثر صدقا من إسلامنا نحن العرب.

مشينا عدة مئات من الأمتار، وقلت لصديقي: إنني أعجب من هذا الشيخ كيف استطاع أن يتشمم أجسادنا بهذه القوة، بينما رائحتنا لا تطاق من كثرة العرق والأوساخ التي عليها.

بعد لقاءنا مع ذلك الشيخ صرت لا أستغرب الكرم الأفغاني ولا أتوقع له حدودا. حتى عندما قال أحد سكان الجبال وهو يودعنا، وهو يعتذر كالعادة بأن طعامه لم يكن مناسبا وأنه لو كان يعلم بقدومنا) لذبح لنا أحد أولاده (، صدقت ما قاله ولم أستبعده بالمرة. وحمدت الله في سري أنه لم يعلم بقدومنا، فربما كان فعلها مع علمه بأننا لسنا من آكلي لحوم البشر (¬١).*

كنا قد تركنا) السيد محمد طاهر (في ميرانشاه بعد أن إجتمع عليه القوم يقنعونه بعدم المسير، نظرا لمشقة الطريق وخطورته. كان الشيخ المسكين يبكي ويقول أريد أن أشم دخان المعارك حتى أنجو من عذاب النار.

فأبكى الحاضرين وإقتنع بصعوبة بالغة بالبقاء، ثم ودعنا باكيا وقال سأنتظركم هنا ... لن أبرح مكاني حتى تعودوا.

كنا نستبعد أن نراه مرة أخرى. فقد كنا نرجو الشهادة ونتوقعها. كنا نسير في نشاط وسرور، بلا تعب أو مشقة كنا نشعر دوما أن أجسادنا فقط هي التي تتحرك على الأرض أما أرواحنا فهي معلقة بين السماء والأرض في إنتظار

¬__________

(¬١) فى عام ٢٠٠١ م رفض الأفغان تسليم أسامة بن لادن إلى أمريكا حتى ولو كانت الحرب هى النتيجة. فهم لايقبلون تسليم

ضيفهم لعدوه .. ولا هم يقبلون بتسليم مسلم لكافر. ولولا أخطاء بن لادن، والعرب معه، لقاتل الأفغان جميعًا دفاعًا عنهم (.

٨.٥ تعليقات على الفصل الثانى

الإنطلاق المبارك نحو جنات الخلد ... ولكن ذلك للأسف لم يحدث حتى الآن، ورغم مرور أربعة عشر عاما. إنقضى فيها الجهاد ولم نفز بما نريد.

تعليقات على الفصل الثانى:

- (قارى محمود) كان من العناصر الفعالة فى حركة طالبان التى ظهرت فى صيف ١٩٩٤ واستولت على كابول فى اكتوبر ١٩٩٧ - وأطاحت بها الحملة الأمريكية فى نهاية عام ٢٠٠١ م

- وحركة طالبان اطاحت بإدارة) حاجى قدير (والى جلال اباد وقد فر منها قبل دقائق من وصول قوات الحركة إليها قبل اقتحامها كابل بفترة قصيرة. أما (عبد الحق) شقيق) دين محمد (و) حاجى قدير (فقد قتلته قوات طالبان فى أعقاب القبض عليه وهو يحاول ترتيب إنقلاب فى جلال آباد لصالح قوات الغزو الأمريكية اثناء أحداث حرب اكتوبر ٢٠٠١ م.

- توصيف الحكومات بالارتداد، ليس توصيفًا شرعيًا لأن ذلك خارج إختصاص الكاتب. بل هو توصيف سياسى لحكومات تصف أنظمتها بأنها علمانية أى لادينية. وهى بذلك تراجعت عن صفة الاسلامية التى كانت طابع الحكم قبل مرحلة الاستعمار الغربى للبلاد العربية والاسلامية. كماأنها حكومات ترفض أحكام الشريعة، وتعمل على إضعاف الإسلام فى المجتمع وتنصر أعدائه فى الداخل والخارج أما " الارتداد " الدينى فهى حالة يحتاج إثباتها الى علماء دين مختصين، ذوى علم وتقوى. فأين هم؟؟. لقد جري تخفيف عبارات الردة حتى لا يساء فهم قصد الكاتب ويتهم، والعياذ بالله، بتهمة التطرف أو حتى الإرهاب!!.

٩ الفصل الثالث الرحلة الأولى: لقاء مع الجهاد

الفصل الثالث

الرحلة الأولى: لقاء مع الجهاد

كانت مهمتنا نحن الثلاثة مهمة إعلامية من أحد جوانبها. كنا نريد أن نعلم ماذا يحدثفي أفغانستان، وأن نبلغ ذلك للمسلمين والعرب خاصة.

وكنا نرى أن قضية أفغانستان هي قضية إسلام وشعب يجاهد، فلا بد أن يتواجد المسلمون بأنفسهم وخاصة العرب وبشكل مباشر في أرض الجهاد وأن يبلغوا الأمة من خلفهم بما يحدث ويحشدوا الطاقات اللازمة لتلك المعركة.

وفي هذه المرة فإن) الراية (واضحة ولا مجال للإعتراضات التي ظهرت في

الحالة اللبنانية / الفلسطينية.

كانت الأوهام قد وصلت بي وبصديقي إسماعيل إلى أن نعتقد بأن أفغانستان قد تشهد ميلاد قوة إسلامية جهادية متحركة تستطيع أن تقاتل حيث تستدعي الحاجة في بلاد المسلمين.

وأننا يجب أن نحاول إنشاء هذه القوة. أما أحمد فلم يكن يرى فيها أكثر من فرصة لفعل الخيرات على قدر طاقة كل مسلم لمساعدة الجهاد والمجاهدين والمشاركة بالمال والنفس.

كان التفاوت في الرؤية والأحلام واسعا، وكذلك تفاوتت قدراتنا على المسير في هذا الدرب الشائك، كنت أكثر الثلاثة تخيلا لمدى الصعوبات المرتقبة، ولكن ما رأيته لاحقا في السنوات التالية فاق كل ما توقعته.

حاولنا في البداية تدعيم قدرتنا الإعلامية. كان أحمد أكثرنا عملية في تفكيره وتصرفاته، وكنت وإسماعيل أكثر جنوحا للأحلام البعيدة أو المشاريع الطويلة المدى لهذا كان أحمد أكثر فائدة في مساعدة المجاهدين بشكل مباشر بينما تخلى إسماعيل عن هذا الطريق كلية بعد عامين أو ثلاثة.

استمر أحمد في تقديم ما يمكن تقديمه عمليا وبشكل عقلاني جاد وموزون. بينما بقيت أنا بشيء من طريقة أحمد العملية وبكثير من الأحلام الكبيرة، حتى إنتهى الجهاد، وتحولت إلى مطارد ثم بقيت بين الجبال أمارس عملا إعلاميا مستقبليا بكتابة هذه الوريقات.
إستطاع أحمد أن يوفر كاميرا فيديو وكاميرا تصوير عادية وكذلك ثلاث سترات عسكرية أرسلها له أخوه الذي يعيش في لندن وكذلك بعض المال لشراء ثلاث بنادق لتسليحنا الشخصي.
وبالنسبة للعمل الإعلامي فوجئت به وهو يعلمني بأتفاقه مع جار له يعمل محررا في) جريدة الإتحاد (وهي جريدة حكومية واسعة الإنتشار كي يصحبنا هذا الجار في رحلتنا إلى أفغانستان. هذا الصحفي والده عالم دين مشهور يحظى باحترام واسع
) هو الشيخ حسن أيوب مؤلف كتاب " الفدائية فى الاسلام (
بعد عودتي من لبنان تركت نهائيا العمل الهندسي وتحولت إلى العمل الصحفي. وكنت قد حاولت إحترافه مرتين قبل ذلك ولكن بعد الرحلة اللبنانية إستقر رأيي على اعتبار العمل الصحفي هو الأنسب ممارسته في ظل مشاريعي المستقبلية. فالكتابة

٩٠١ صحفي رغم أنفة

والتصوير، أعمال ممكنة مع الجهاد الذي يدور في مناطق هامة إخباريا. فعملت في صحيفة عديمة الإنتشار هي صحيفة الفجر.
فقضيت بها عدة سنوات كانت هي الأجمل في حياتي العملية. فلم أرغب يوما في ترك العمل بها حتى ولو من أجل راتب أفضل، والسبب هو تلك الروح الطيبة من الصداقة والزمالة مع العاملين بها في كافة الأقسام خاصة قسم سكرتارية التحرير الذي كنت أعمل به ويرأسه صديق قديم طيب القلب.
نتيجة لذلك فقد كنت أحصل على مدة الإجازة التي تناسبني عند سفري إلى أفغانستان وبدون أية مضايقات إدارية من جانب الجريدة. وفي نفس الوقت كانت المادة الصحفية التي أكتبها أرسلها إلى جريدة الإتحاد كي تنشر بدون وضع الإسم عليها لكوني أعمل في جريدة منافسة.
كنت أفضل أن أكتب عن أفغانستان لجريدة الإتحاد واسعة الإنتشار حتى نحصل على الهدف المنشود من إيقاظ الرأي العام لمساعدة المجاهدين. و لقد نجحنا في ذلك إلي درجة معقولة. وقد أوصلني هذا الطريق إلى مصائب ومخاطر لم تكن في الحسبان، كما سنذكر خلال هذا الكتاب.
صحفي رغم أنفة:
عندما عزمنا علي السفر إعتذر صديقنا الصحفي. فقررت أن أكون أنا صحفي الرحلة، مع خشيتي ألا تنشر) الإتحاد (ما أرسله إليها من مواد لكوني لا أعمل في نفس الصحيفة.
ولكن) الإتحاد (ولسنوات طويلة ظلت ترحب بكتاباتي. وحتى إنتهت علاقتي بالجريدة نهائيا عام ١٩٩٠ فإن معظم ما كتبته لهم قد نشر باستثناء مقال كتبته عن وضع الأحزاب الأفغانية، وكان بمناسبة صورة شهيرة للرئيس الأمريكي) رونالد ريجان (وهو يحتضن، بعطف وحنان، حسناء أفغانية أسموها) ناهد مجددي (مرة أخرى إمتنعوا عن نشر تحقيق صحفي كنت قد كتبته عن معركة) جاور (عام ١٩٨٦ وكنت وقتها في قمة التألق) الوظيفي (كمدير لمكتب جريدة الإتحاد في إسلام آباد. ولم أدرك وقتها أن دولة الإمارات على وشك اتخاذ) خطوة رائدة (بإعادة العلاقات الديبلوماسية مع السوفييت وإن إغلاق مكتبنا في إسلام آباد، كان عربونا بسيطا ضمن تلك الصفقة.
أما حذف بعض المقاطع من المقالات فكان يتم في مرات قليلة فقط. وقد نعود مرة أخرى للحديث عن هذه التجربة الصحفية، ولكنها بدأت على أية حال منذ دخولنا أول مركز للمجاهدين قابلناه في رحلتنا الأولى.
وسط غابات الصنوبر الشاهقة في منطقة "أورجون" كانت فقرتنا الأساسية الأولى في الرحلة- وهي زيارة مركز القومندان "مطيع الله".
(١¬)
أرسل القائد وفود إستقبال قابلتنا على مسيرة نصف يوم من المركز.

____

(¬١) مطيع الله: مدرس فيزياء سابق وقائد ميدانى قدير خاض الكثير من المعارك الناجحة استشهد عام ١٩٩٠ م فى منطقة خوست بعد عملية عسكرية رائعة. سنذكرها فى موضعها من كتاب) المطار ٩٠ (من سلسلة ادب المطاريد

المجموعة الأولى من المستقبلين كان معهم جمل كي يحملوناعليه وكأنه توقع عدم قدرتنا على المسير كل هذه المسافة. رفضنا بإصرار، إظهارا للعزيمة وطمعا في الثواب، فكاد صاحب البعير أن يبكي وقال أن) مطيع الله (سيحزن كثيرا لذلك. فتطوعت لأداء المهمة كنوع من المجاملة ولكنني ندمت على ذلك وقت لا يجدي الندم. فما أن اقتربنا من قمة الجبل حتى أخذ الطريق الترابي في الإنكماش وتزايدت أغصان الصنوبر التي تعترض مسيري وأنا فوق القمة السامقة للبعير الشاب.

تلقيت عدة ضربات كادت تطيح بي إلى الوادي السحيق فى اليمين، أما الجانب الأيسر فهو مغلق تقريبا بسفح الجبل والأشجار النافذة منه بتحد. وأخيرا إعترضني غصن على إرتفاع سنام الجمل تماما. فاضطررت وقتها إلي الإستنجاد بصاحب الجمل الذي أوقفه في اللحظة المناسبة، وكانت فرصتي حيث إنزلقت على الجانب الأيسر للجمل، وأصررت على مشاركة إخواني ثواب السير على الأقدام!!.

هبطنا الجبل وأخبرونا كالعادة أن المركز قريب. توقفت للوضوء وسبقني الركب بمسافة طويلة نوعا ما.

وعندما عدت إليهم شاهدت شاحنتين عسكريتين وتجمهرا وحركة حولها. توقعت أن يكون الركب قد وقع في كمين حكومي. لم يكن معي سلاح والمنطقة مجهولة تماما بالنسبة لي.

لم أشاهد أي دلائل على إضطراب كما يقتضي موقف الكمين، حتى لو كان إخواننا إستسلموا، وهذا مستبعد فبعضهم مسلح. وأخيرا إكتشفت أن الشاحنتين قد جاءتال استقبالنا مع لجنة استقبال جديدة، وأن الشاحنتين هما من الغنائم الحديثة للمجاهدين في معركة تمت منذ أيام فقط في منطقة قريبة منا.

لأول مرة نشاهد الغنائم، وكنا مندهشين وإنفعالاتنا لا توصف. كنا نقرأ عن الغنائم في الكتب التاريخية، أيام الغزوات والأيام الزاهرة للمسلمين. درنا حول الشاحنتين، وكانتا في حالة ممتازة والتقطنا لها صورا كثيرة من شدة الفرح منها بعض الصور للشعار الشيوعي على أبوابها الجانبية، كان شعارا باللون الأحمر ويمثل سنبلتين وبينها كلمة) خلق (أي الشعب كانت الكلمة كريهة لدى الجميع، وقعها ينذر بالخطر والعداء القاسي.

فقد سمعنا قصصا عن انهار الدماء التي أراقها حزب) خلق (المسيطر على البلاد.

وسمعنا شعاراته المليئة بالغطرسة والتحدي مثل) الحكم الأبدي لحزب خلق الذي لا يزول (، وتحقيره العلني والإستفزازي للإسلام كدين وللعلماء وطلاب العلم كأعداء للثورة.

ركبنا إحدى الشاحنتين ونحن لا نكاد نشعر بأنفسنا من فرط السعادة وركب باقي المجاهدين في الصندوق الخلفي وركبت مع زميلاي إلى جانب السائق العجوز الذي لا يمكن أن أنساه.

كان جبليا بكل ما في الكلمة من معنى، قوي الجسم تجاوز الخمسين، فاختلط شعر لحيته الضخمة بالكثير من الشيب. سار بنا في طريق بالكاد يصلح للماعز أو الإبل، فتعرضت السيارة لرجات قوية وكأنها قذائف مدفعية قد أصابتها. وفي كل مرة يضحك من أعماق قلبه و يصيح على إخوانه في الخلف قائلا":أوه مجاهدينو".

كان وجهه الطيب يطفح بشرا وسعادة طفولية وكأن هذه الصعاب ليست سوى نكات مرحة.

كنا نضحك لضحكاته. لم ندرك مدى معاناة إخواننا في الخلف سوى في اليوم التالي حينما شاركناهم في الجلوس داخل الصندوق، وكم ندمنا على ذلك، ولكن صديقنا أحمد لم يندم بل إنفجر بطريقته الصعيدية ونزل من السيارة غاضبا، وسبب لنا إحراجا شديدا، أما مضيفنا مطيع الله فكاد يذوب خجلا واصطحبه معه في المقعد الأمامي إلى جانب سائقنا العجوز الذي توقف عن الصياح خوفا من إنفجار الصديق الغاضب.

وصلنا إلى مركز مطيع الله للمرة الأولى بعد صلاة المغرب وفي العتمة شاهدنا صفين طويلين من رجال الجبال المجاهدين ونحن نمر بينهم في شعب ضيق جدا بين الجبال حتى أن بعضهم تسلق جوانب الجبل حتى يفسح لنا الطريق وما كدنا نتوسط الصفين حتى إنطلق

شلال من النيران بعضه آلي، وكان الصوت مضخما في ذلك المكان الضيق. أصابنا بالذهول لبرهة قصيرة، وقفز إلى ذهني ذلك المأزق التاريخي للمماليك في مذبحة القلعة الشهيرة في مصر.

إستقبلنا مطيع الله بالعناق الحار وطلب من رجاله وقف إطلاق النار فوصل الأمر إليهم بصعوبة وسط ضجيج النيران.

كانت ليلتنا الأولى بين المجاهدين لا تنسى. صلينا معهم العشاء خلف قائدهم مطيع الله. كان محبوبا ومطاعا من الجميع، هكذا شعرنا من خلال التعامل الدائر في المعسكر.

وكان نشطا بشكل ملحوظ، حاد النظرات ذو صوت مبحوح خفيض. ملامحه تنطق بالذكاء والحيوية.

تحلقنا حول طعام العشاء المكون كالعادة من الشاي الأخضر والخبز اليابس، وذلك الشيء السكري المدعو (جر (وهو كتل يابسة من عسل القصب أو البنجر. كان ذلك الطعام يصيبني دائما بحالة من الهبوط المعنوي. ولم آكله قط إلا تفاديا للهلاك جوعا.

ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للمجاهدين، فقد كانوا يقبلون عليه بشوق كما كنا نقبل قديما في مصر على أكل الفول المدمس.

كان لدى مطيع الله أخبارا سارة لنا، فمنذ أيام قليلة إستطاع رجاله تحطيم قوة للعدو حاولت الهجوم على مراكزهم في عمق الجبال، وغنموا منها الكثير من الأسلحة والذخائر وعدد من الشاحنات الجديدة ومنها تلك التي ركبناها اليوم إضافة إلى عدد من أجهزة اللاسلكي، ورشاشات ثقيلة.

كان من بين المجاهدين بعض الجنود وضباط الصف الذين فروا من الجيش والتحقوا بالمجاهدين وجميعهم من الناطقين باللغة الفارسية التي يعرفها قليلون فقط من سكان تلك المناطق من البشتون.

كان في المركز مدفعين من عيار ٧٦ مليمتر جبلي كلاهما بدون أجهزة تصويب. في الصباح أطلق لنا مطيع الله قذيفة واحدة كتجربة، على أحد الجبال البعيدة. وكان التصويب يعتمد فقط على "التخمين"حاولوا النظر من خلال ماسورة المدفع ولكن أحدا لم يشاهد سوى السماء الزرقاء. ولأول مرة نشاهد إطلاقا قريبا لأحد المدافع، ولكن لسوء الحظ لم نشاهد أين سقطت القذيفة.

وبالتخمين قدروا أنها عبرت الجبل حيث لا يوجد سوى القوات الحكومية على أية حال.

وفي الصباح كان هناك درس في إستخدام المدفع يلقيه صف ضابط إنضم إلى المجاهدين حديثا.

مضينا مع مطيع الله لمشاهدة جزء من الغنائم حيث ما زالوا يجمعونها تمهيدا للتقسيم.

كانت خيمتان قد كدستا بأنواع الأسلحة والذخائر وأجهزة اللاسلكي. وما لبث أن حضر عدد من المجاهدين كل منهم يحمل قدر طاقته من بنادق الكلاشنكوف كي يضعها مع باقي الغنائم.

كان ذلك مذهلا لنا بكل معنى الكلمة. إلتقطنا الكثير من الصور وإذا بهدير محرك طائرة يخترق السكون، مازالت بعيدة ولكنها تدور حول المكان، وهذا عمل غير ودي وينذر بالشر وإن كنا لم نكن ندرك مدى الشر الكامن خلف هذا الصوت فلم نحضرغارة جوية فوق رؤوسنا حتى الآن وإن كنا شاهدنا قصفا جويا لعدة قرى بعيدة عنا ونحن في الطريق إلى هنا.

إنطلقت دفعة طلقات من رشاش ثقيل فوق القمة القريبة، إنه الدفاع الجوي للمجاهدين بدأ في العمل فصعدنا كي نستطلع الأمر، ونلتقط بعض الصور. الطائرة لم تهاجم موقعنا ولكنني فزت بأول لقطة لي في الرحلة وكانت ناجحة لدرجة أنها إستخدمت مرات كثيرة في جريدة الإتحاد وهي تمثل مجاهدا أفغانيا في زيه التقليدي وعمامته الضخمة يجلس في ثقة خلف مدفع رشاش ثقيل مضاد للطائرات.

لاحظنا في كل مرة نستخدم فيها الكاميرا، ذلك الشغف الطفولي لدى الأفغان كي يظهروا في الصور. واكتشفنا بعد ذلك أن التنافس على الظهور والزعامة سمة أخرى خطيرة في الشخصية الأفغانية.

تلك الشخصية التي إستغرق إكتشافها عدة سنوات من جانبي على الأقل حتى أدركت إلى حد ما مكوناتها الأساسية. ومع ذلك فوجئت بعد الفتح وسيطرة

المجاهدين على البلاد أن هناك سمات لم أكن أدركها حتى تلك اللحظة المتأخرة من ناحية الخلق والطباع. كانت هناك الكثير من نقاط التشابه من وجهة نظرنا بين الأفغان والعرب القدامى وأن أبرز ما يختلفون فيه عن العرب الجدد هو

رفضهم للذل وحبهم للدين وقبولهم السريع بخيار الموت إذا كانت حريتهم مهددة أو إسلامهم في خطر.

في اليوم التالي إصطحبنا مطيع الله إلى موقع المعركة الأخيرة حتى إذا ما وصلنا إلى وادي متسع نسبيا يتوسطه جدول ماء شاهدنا ثلاث مدرعات محترقة، وتقدمنا مطيع الله على حذر وطالبنا بالإحتراس من الألغام، شعرت بالعرق البارد يتصبب من جسدي. وأردت أن أسأله كيف نحترس من الألغام؟.

وإذا هو يقدم الإجابة عمليا قبل أن أتكلم، فقد كان يقفز بخفة الغزال فوق الصخور والنتوءات الحجرية وكذلك فعل باقي المجاهدين، فقلدناهم أنا وأصدقائي بشيء من النجاح وكثير من الخوف.

كانت الألغام التي إستخدموها مصنعة محليا ومكونة من عدة أصابع من الديناميت مع صاعق كهربائي وبطارية صغيرة، أما مفتاح الدائرة فهو قطعتين من الكرتون ينطبقان عند المرور فوقهما فتنفجر الشحنة. كانت تركيبة خطيرة وغير متقنة وقد يتسبب مرور كلب أو ماعز فوقها في تفجير اللغم. وعلى أية حال فقد إنفجرت عدة مصفحات، وكان ذلك كافياً كي تنهار معنويات القوة المهاجمة وتستسلم بعد وقت قصير من فتح النيران عليها من جانب المجاهدين.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي نتعرف فيها على مشكلة الألغام التي أضحت من معضلات الحرب الأفغانية، وسوف تستمر كذلك لمدة ألف عام حسب تقديرات الأمم المتحدة.

واختلفت التقديرات في عدد الألغام التي تخلفت في باطن الأرض بعد الحرب فهي عشرة ملايين في أحد التقديرات ومائة مليون في تقديرات أخرى.

إذا كان هناك شعار غير الكفر يمكن إطلاقه على نظام) طرقي) الشيوعي فهذا الشعار هوالحماقة.

كانت الحماقة هي السمة البارزة لتصرفات طرقي وحزبه الشيوعي) خلق (في كافة المجالات سواء في سياسته الداخلية أو سياسته العسكرية. فقد ركبهم الغرور وأفرطوا في الثقة بأنفسهم فاستخدموا القوة بإفراط زائد فتألب الشعب ضدهم هذا إلى جانب عدائهم العلني للإسلام وقد إرتكبوا عسكريا مغامرات طائشة أودت بقطعات كبيرة من الجيش حتى كاد النظام أن يسقط لولا تدخل السوفييت.

ومن مظاهر تلك الحماقات الحملات العسكرية) الثقيلة (في أعماق المناطق الجبلية. فقد قام قادة طرقي العسكريين ومعهم مجموعة من الحمقى السوفييت بتجريد حملات كبيرة من قوات المشاة المدعومة بالدبابات والمدافع الثقيلة والطائرات النفاثة ضد قواعد المجاهدين في الأعماق الوعرة للجبال.

وكانت النتائج مأساوية على يد مجاهدين يتميزون بالإيمان والتصميم ويقاتلون بشراسة.

وقد أدت تلك الحملات الحمقاء إلى تزويد المجاهدين بثروات هائلة من الأسلحة والعتاد.

كان لدى) طرقي (في ذلك الوقت خمسة آلاف "خبير عسكري" سوفييتي يعملون في مختلف قيادات الجيش الأفغاني حتى مستوى الفصائل. ويشاركون في توجيه وقيادة معظم الحملات ضد المجاهدين. وكان واضحا منذ بداية الحرب وحتى نهايتها باستثناء فترات قليلة أن السوفييت يؤمنون بعقيدة عسكرية تعتمد كليا أو إلى درجة عالية جدًا بالضخامة .. ضخامة المعدات وضخامة الأعداد المستخدمة من الجنود والآليات.

لقد أثبتت الحرب الأفغانية بأن الجندي المؤمن هو السلاح الحاسم في الحرب وليست الضخامة أو التكنولوجيا. فقد خسر النظام الشيوعي الحرب في مجال المعنويات حينما لم يتجاوب الشعب مع الشعارات الشيوعية بل قرر مواجهتها بالسلاح ومهما كانت النتائج المترتبة على هذا القرار.

أما القوات السوفييتية فلم تكن تبرهن طوال مدة الحرب عن معنويات عالية أو إيمان حقيقي بهدف الحرب أي حماية نظام شيوعي صديق ضد تدخل أجنبي لقد ماتت الشيوعية في نفوس الجنود السوفييت قبل أن يحضروا إلى أفغانستان، ثم ماتت أمام أعينهم في أفغانستان رغم كل ما فعلته دولتهم من مجهودات خارقة لإبقائها على قيد الحياة. لذلك عندما عاد هؤلاء الجنود إلى بلادهم محبطين مهزومين إنهارت الشيوعية في الإتحاد السوفييتي. فالجيش الاحمر عماد الدولة وحامي النظام قد أيقن بأنه يحمي جسدا ميتا عفا عليه الزمن.

غادرنا مركز مطيع الله في منطقة) زيروك (بالأرجون. وتوجهنا حسب برنامج مضيفنا صوب مركز مولوي جلال الدين حقاني في سيرانا

قالوا لنا أنه عالم دين وقائد عسكري شجاع ومشهور كما أنه الرجل الثاني في جماعة مولوي يونس خالص) حزب إسلامي) إضطررنا للإلتفاف مسافة طويلة في الجبال الصنوبرية للتحرك من زيروك إلى سيرانا تفاديا لمدينة نكا أو) نقا (بالعربية وكانت حكومة طراقي مازالت تحتفظ فيها بحامية قوية.

قبل أن نبلغ سيرانا بعدة كيلومترات طلبوا منا البقاء إلى أن يتم إخطار حقاني المتواجد خارج سيرانا والمشتبك في معركة مع القوات الشيوعية.

إنتظرنا يوما كاملا حتى جاءنا الإذن بالتوجه لمقابلة حقاني الذي إستقبلنا مع عشرين من رجاله المسلحين وسط منطقة كثيرة الأشجار في وادي بين جبلين. لم يطلقوا النيران كما حدث في معسكر مطيع الله، والأكثر من ذلك أن حقاني أمرهم بالبقاء قريبا من الأشجار بعيدا عن ضوء الشمس.

كان واضحا أن الموقف متوتر وأنهم يتوقعون قصفا بالطائرات على منطقتهم في أعقاب معارك الأيام الماضية التي علمنا أنهم قد ربحوها بجدارة.

تجمهر حولنا المجاهدون بأسلحتهم القديمة وتزايد عددهم تدريجيا. طلب مني حقاني أن ألقي فيهم كلمة، وكم كان ذلك محرجا. فقد كنت أستصغر شأني إلى جانب هؤلاء الرجال كما أنني لست خطيبا. جلس الرجال على الأرض وبنادقهم في أيديهم يترقبون كلمتنا فيهم، فألقيت فيهم كلمة قصيرة أذكر أنني قلت فيها: إن راية الجهاد التي رفعت في بدر قد وصلت إلى أيديكم، وهي أمانة كبيرة وشرف عظيم لكم، وأن أمة الإسلام تنظر إليكم وقد رفعتم هذه الراية بعد أن

طال إنتظارها أن ترفع، بل أن العالم ينظر إلى نتيجة هذه المعركة الدائرة على أرض أفغانستان بين الإسلام والشيوعية ... . أذكر أنني أنهيت الكلمة بالآية الكريمة:) إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. (

تولى جلال الدين حقاني شرح الكلمة باستفاضة ثم دعانا إلى الصعود إلى بيت في أعلى التل القريب حتى نستكمل الحديث.

شرح لنا حقاني بالتفصيل الوضع في أفغانستان وفي منطقتهم محافظة باكتيا والوضع بين المنظمات الجهادية وإحتياجات المجاهدين. وأخيرا نتائج القتال الذي دار في اليومين الماضيين حيث حققوا إنتصارا كبيرا. ودعانا لرؤية آثار المعركة على الطريق العام على مسافة ليست كبيرة.

ما زلت أتذكر الزيارة لموقع المعركة على الطريق الواصل بين مدينتي جارديز وخوست - على مسافة ليست بعيدة كثيرا عن جارديز عاصمة الولاية، ولكن تفصلها عنها سلاسل جبال) ساتي كندو (الشاهقة ... (٦-١).

كان الطريق يتلوى بين القمم الجبلية. لقد وقعت القافلة المتوجهة نحو خوست في كمين قاس ... كانت آثاره المدمرة واضحة. أكثر من عشرين شاحنة إحترقت تماما وجثث السائقين و معاونيهم قد تحولت إلى تماثيل بشعة من الفحم الذي تبرز منه عظام آدمية بيضاء إضافة إلى أكثر من عشر مصفحات محترقة، وقد سقطت جثث الجنود خلف مزاغل إطلاق النار و بعضهم إحترق داخل المصفحة أو على أسفلت الطريق العام.

جثة أخرى لعسكري أو ضابط زحف إلى خارج الطريق وأسند ظهره إلى صخرة وماتت حتها، لقد تعفن الجسد وأصبح أسودا مثل الفحم بينما إنكشفت عظام الجمجمة واليدان فوق البطن وعظام الفك مفتوحة عن إستغاثة يائسة. عدد آخر من المدرعات ترك الطريق العام ونزل إلى الوادي الصخري المجاور حيث يسير نهر شمل بمياة قليلة لكنها شديدة الإندفاع.

فتعطلت بين الصخور وغرزت فيها العجلات والجنازير، وهكذا ضاعت عدة دبابات فيا لوادي أيضا.

وفوق الجسر منظر غريب آخر، مصفحتان إقتحمتا الحاجزالحديدي كي تسقط

في الوادي من إرتفاع ثلاثة أمتار تقريبا، وكأن السائقين فوجئوا بالكمين فقرروا الفرار بهذه الطريقة، والأغلب أنهم قتلوا. من المناظر الغريبة أيضا، إحدى ناقلات الجنود وقد إخترقت طلقة الحديد السميك المجاور لمزغل إطلاق النار فقتل الجندي وسقط فى مكانه.

نظرنا إلى المكان الذي جاءت منه تلك الطلقة الغريبة، وكيف إستطاعت اختراق حديد بتلكا لسماكة، وهذا غير ممكن إلا بطلقة أو قذيفة مضادة للدروع وهو الشيء الذي لا يمتلكه المجاهدون في ذلك الوقت.

كان في الإتجاه المقابل للمزغل جبل صلد مرتفع لم تحدث من جهته أية عملية إطلاق لأن الكمين كله جاء من جهة واحدة عبر الوادي حيث تشرف عدة تلال

(١-) ساتى كندو وتعنى الجبل القاتل فى لغة الباشتو

متفاوتة الإرتفاع أما الجانب المقابل فهو جبل مرتفع لا يتيح للقوة أية فرصة للإختباء، فكأنها تقف أمام حائط كي يطلق عليها المجاهدون النار من الجهة المقابلة، فسحقت القوة وهي في وضع سيء.

إكتملت الصورة بكثير من الجثث التي تحللت وأصبحت أشبه بالرماد المحترق وقد تناثرت فوق الطرق وكأنها كتل بارزة من الإسفلت، وقد تجمعت الكلاب حولها تنهش منها ما تشاء، بينما جلست كلاب أخرى متكاسلة على جانبي الطريق وقد أصابتها التخمة.

وفي وسط هذه اللوحة المأساوية وجدت كتابا ضخما وقد تلوثت صفحاته المصقولة بالدماء، لقد كان ديوان شعر باللغة الروسية، مزينا برسومات رومانسية غير متقنة لضباط وجنود مع فتيات جميلات حولهم العديد من الزهور والأشجار وزجاجات الخمر والطيور. خمنت أن الديوان كله يتحدث عن ضباط وجنود ذهبوا إلى الجبهة للقتال وتركوا خلفهم الأهل والعشيقات ومتع الحياة.

أضافت الدماء التي لطخت الصفحات خاتمة مأساوية لحياة إنسان فقد حياته على أرض غريبة، لقد قتل وهو يطلق النار على الأبرياء بينما يقرأ أشعارا الغزل ولوعة الفراق كمثل نيرون الذي أحرق روما وهو يغني أشعارا. لقد سقط الجندي الروسي ولا ندري أين جثته وسط هذا الحشد المتفحم، فقد حياته بلا معنى. وبعد يوم وفاته بإحدى عشر سنة تقريبا سقطت الشيوعية وإنهارت دولة السوفييت فوق نفس الجبال في أفغانستان.

تصاعدت وتيرة الأحداث في المنطقة بعد معركة الطريق. وإرتفعت المعنويات بشكل غير متوقع، فوصلت وفود من المجاهدين من المحافظات المجاورة خاصة) غزني (تطلب المعاونة خاصة من الأسلحة المضادة للدروع آر بي جي. كما أن القوات الحكومية في جرديز بدأت في التذمر ضد قياداتها، وفجأة وصل أحد عشر ضابطا من رتب متوسطة فروا من الخدمة وأفادوا بأنهم كانوا يرتبون لعملية تسليم كبيرة مع قواتهم، وأوشكت الخطة أن تنجح لكن الإستخبارات الحكومية) خاد (تنبهت للأمر فاضطر الضباط إلى الفرار بسرعة قبل القبض عليهم وإعدامهم.

جلسنا مع الضباط وكانوا من أسلحة مختلفة. ورسموا لنا صورة عن الأوضاع داخل الجيش، و في صفوف النظام في كابل وأوحت الصورة بأن النظام يتآكل بسرعة غير عادية.

وقد كانت تلك الصورة صحيحة إلى حد كبير فما أن جاء شهر ديسمبر من نفس العام حتى إضطر السوفييت إلي إقحام الجيش الأحمر للسيطرة على البلاد ومنع إنهيار الشيوعية في أرض مجاورة لهم خاصة وأن البديل سيكون هو الإسلام.

كانت الضربات التي تلقتها القوات الحكومية في أمثال ذلك الكمين على الطريق العام) جرديز-خوست (قد فاقمت الوضع داخل صفوف الضباط، وانقسموا بين ضباط عاديين وآخرين منتمون إلى حزب) خلق (الحاكم المدعومين بمستشارين سوفييت وهم أصحاب القرار الحقيقي داخل الجيش. أما الغارات الحمقاء التي قررها السوفييت وأتباعهم من ضباط خلق فقد إنتهت بكوارث مأساوية بين جبال مناسبة تماما لتدمير الجيوش وعلى أيدي رجال تدفعهم حماسة دينية غير عادية.

ومع هذا ظهرت بين المجاهدين قضية الحاجة إلي التدريب بشكل ملموس، فغاية تدريب المجاهدين آنذاك كان البنادق القديمة وبعض الأسلحة الخفيفة التي غنموها حديثا، وما سوى ذلك كان لا بد أن يتلقوا عليه دروسا تعليمية من الجنود والضباط المنضمين إليهم. وهؤلاء العسكريون كانوا نادرا ما يمكث أحدهم فترات طويلة بين المجاهدين.

بالنسبة للدبابات والمصفحات، كان المجاهدون يسلبون منها ما يمكن حمله ثم تحرق الدبابة.

وعندما وصل الضباط من جرديز أرسلهم حقاني إلى الطريق لمحاولة إصلاح شيء من الدبابات المدمرة ولكنهم عادوا والأسى يغمرهم، فلم يعد هناك ما يمكن الإستفادة منه.

ومع هذا فلم يمكث الضباط طويلا وغادروا إلى باكستان للعودة مرة أخرى إلى مناطقهم أن لاستدعاء أسرهم حتى لا يتعرضوا لبطش السلطات.

وكانت قصة المجاهدين مع القاذف الصاروخي المضاد للدروع) آر بي جي (: قصة طريفة، فلم يكن لديهم أي علم بوجود مثل هذا النوع من الأسلحة أصلا. وفي أحد كمائنهم على نفس الطريق "جرديز/ خوست" هاجموا قافلة من المشاة المنقولة بالشاحنات وخلفها

عدد من المدرعات وقطع المدفعية.
تشتت القافلة وفر أكثر المشاة وبقيت المدرعات والدبابات تطلق نيران أسلحتها الرشاشة والثقيلة وتجمد الموقف عند هذا الحد ولم يستطع المجاهدون جمع الغنائم أو إخلاء الجرحى والشهداء. وشاهدوا جنديا يحمل هذا السلاح العجيب فسألوه عنه فقال لهم إنه" ضد الدبابة" (¬١)
فطلبوا منه إطلاق النارعلى إحدي الدبابات ولكنه خاف أن يتقدم، واكتفى بشرح الطريقة لأحد المجاهدين، الذي تناول السلاح وتقدم وأطلق قذيفته الأولى المضادة للدروع في تاريخ حياته العسكرية بل وفي تاريخ المحافظة كلها. فطار برج الدبابة ولم يكن ذلك هو المفاجأة الوحيدة بل المفاجأة الأكبر هي أن كل أطقم الدبابات والمصفحات قفزوا منها رافعين أيديهم إلى الأعلى، واتضح أن خوفهم من الآر بي جي أكبر من خوف المجاهدين من الدبابات.
ومنذ ذلك التاريخ دخل هذا السلاح العجيب سجل الخدمة العسكرية لدى المجاهدين. وفي الحقيقة أنهم أبدعوا في إستخدامه طوال مدة الحرب واستخدموه حتى ضد طائرات الهيلوكبتر. وكان يخيف الطائرات المنخفضة.
واكتشفنا متأخرين بعد نهاية الحرب أن المجاهدين كانوا يرفضون إستخدام منظار التصويب الخاص بهذا السلاح. كنا نظن في البداية أنهم لا يمتلكونه،

____

(¬١) وهكذا صار إسمه لدى المجاهدين لفترة طويلة قبل أن يتعلموا إسمه الأصلي.

٩.٢ ماهو مذهبك؟

وفي الواقع فإن المنظار يقفز كثيرا بإمكانات ذلك السلاح وقيمته في المعارك وقدرته الفائقة على الإصابة.
وكان بعض الأفغان يضحكون لرؤيتهم أحدا من العرب وهو يستخدم المنظار ولما سألناهم عن السبب قالوا أن المنظار هو فقط لضعاف البصر. ومع البحث والإستفسارعلمنا بعد سنوات أن المخابرات الباكستانية أثناء تدريبها للأفغان على قطع المدفعية كانت ترفض تدريبهم على إستخدام مناظير التصويب.
لذا كانت مدفعية المجاهدين في الغالب الأعم هي لمجرد التهويش والتطفيش مع وجود إستثناءات محدودة في أواخر مدة الحرب.
أما عن تكتيكات إستخدام المدفعية فكانت متخلفة للغاية وشبه منعدمة فيما عدا ما يقدمه الضباط الباكستانيون من مشورات فنية لرجال المدفعية الأفغان، وهي مشورات ضارة أكثر منها نافعة والهدف منها زيادة إعتماد المجاهدين على إمدادات الذخائر القادمة من باكستان وعلى المشورات الضارة لرجال الإستخبارات العسكرية الباكستانية الذين حرصوا على إبقاء الفعالية العسكرية للمجاهدين على مستوى منخفض لا يتطور حفاظا على المصالح الأميركية الباكستانية في توجيه الدفة السياسية للصراع بما يتوافق مع حدود التنافس المحكوم بدقة بين أمريكا والسوفييت.
كان التدريب أحد جوانب المشكلة العسكرية لدى المجاهدين طوال مدة الحرب، وكان أيضا وثيق الصلة بالجانب السياسي للقضية كلها. وفي سنوات الحرب التالية عندما ظهر العنصر العربي على مسرح الأحداث سوف نرى جوانب هذه المشكلة لديهم أيضا.
ماهو مذهبك؟
في تلك الأيام أتذكر كثيرا الوفد الذي قدم من ولاية غزني برئاسة ذلك المولوي الشاب، الذي يتفجر قوة وعزيمة. قابلته في تلك الأيام حال وصوله إلي مركز "سرانا" وهو مازال يلهث من صعود الجبل. سألني بعربية فصيحة: هل أنت عربي؟
وعلمت منه أنهم يسكنون في مناطق ريفية مفتوحة ويعانون بشدة من الدبابات وأنه قدم يطلب المعونة من مولوي جلال الدين، فقد علم أن لديهم "ضد الدبابة" ويريد واحدا منها على الأقل. فلما سألته عن مشكلة الطائرات، قال أنهم لا يبالون بها كثيرا، فالطائرة "الجت" أي النفاثة ترمي قنابلها وترحل، أما الدبابة فإن الجيش يدخل بها إلي وسط البيوت، وينتهك الحرمات ويستبيح الدماء بدون أن نملك له دفعا.
ولما سألته متعجبا من عدم خشيتهم من الطيران كانت تفسيراته أشد غرابة. فقد كان يجلس علي ظهر البيت مع أمه العجوز، وفجأة وصلت الطائرات وبدأت ترمي قنابلها فوق القرية، فلما أراد أن يجري إلى الأسفل للإحتماء من القصف وبخته أمه العجوز قائلة:

أنت مولوي تحفظ كتاب الله وتخاف من كافر؟. فشعر
بالخجل والندم وبقي معها حتى إنتهي القصف ثم نزل كي يساعد في إسعاف الجرحى ونقل جثث الشهداء.
كانت قصة الأم غريبة بالنسبة لي، ولكن أمثال تلك المواقف كانت حقيقة، من نساء ورجال وكان ذلك أحد الجوانب الخفية للأسطورة الأفغانية.
ولما سألت المولوي عن برنامجه الجهادي وما هي غايته، كانت إجابته التي ترن في أذني الآن (سنقاتل الشيوعيين حتى نفتح بخارى وسمرقند).
بحلقت في وجهه مندهشا ... كيف تذكر هذا الجبلي تلك الأسماء التي ترقد في غياهب التاريخ ا لإسلامي؟ كيف يجرؤ؟ .. لقد نفذت كلماته في أعماقي وشعرت كأنها نبوءة قادمة لا محالة، وإن كانت فوق كل خيال وتصور.
كم كانت نبوءة ذلك الشاب المولوي صادقة وأنا أرى أمامي الآن مجاهدين من بلاد الطاجيك وبلاد الأوزبك يتدربون) فى معسكر الفاروق (، ويقاتلون لدحر الشيوعية المتبقية في بلادهم.
إن بخارى وسمرقند باتت على قاب قوسين أو أدنى. ولكن إلى أي مدى خذلنا الأفغان؟ وبالتحديد قياداتهم التي خانت شعبها بل خانت قضية الإسلام في الأرض.
تلك الصلابة وذلك الإقدام والتعالي الإيماني كانت دروسا لا تقدر بثمن، وكنا نحن الذين تربينا في أجواء الذل والقهر والإستخزاء أشد ما يكون حاجة إلى أن نتلقاها على أيدي هؤلاء الأساتذة.
المذهبية ... ثم فاجأني المولوي الشاب بسؤال لم أدرك خطورته إلا بعد سنوات عدة، ... فقال لي: (ما هو مذهبك؟) ... كانت مفاجأة أخرى، فلأول مرة يوجه لي هذا السؤال، وحتى تلك اللحظة لم أكن أدري تحديدا ما هو مذهبي، بل لم يكن لذلك أدنى أهمية لدي.
وتذكرت أن مصر يغلب عليها المذهب الشافعي، فاستنتجت أنني لا بد أن أكون شافعيا كذلك.
فأخبرت الرجل أنني شافعي المذهب. ولكنه واصل السؤال: ماذا تعرف عن محمد بن عبد الوهاب؟.
وقد تصادف أنني أحضرت معي كتابا جامعا لمؤلفات ابن عبد الوهاب، وقد أعجبتني كثيرا خاصة وأن ما كنت أسمعه عنه كان شديد العداء له ولحركته، ولكنني عندما بدأت في قراءة كتبه أعجبني أسلوبه ومنهجه.
وبكل سذاجة بدأت أعدد مزايا إبن عبد الوهاب أمام المولوي الشاب. وبعد عدة سنوات أدركت لماذا لم أر هذا المولوي إطلاقا بعد ذلك وكان هذا هو حديثي الأول والأخير معه. وبعد سنوات أخرى أدركت مدى العداء الشديد الذي يكنه أحناف أفغانستان وهو المذهب الوحيد هنا تقريباً للشيخ إبن عبد الوهاب.
وبعد الجلاء السوفييتي وتفجير الخلافات بين الأفغان والعرب المجاهدين، كان الخلاف المذهبي والعداء بين "الوهابية" و"الأحناف" هي الراية المقيتة لذلك
الخلاف الذي أشعلته أمريكا في حملة طويلة لمطاردة المجاهدين العرب واستئصالهم من منطقة وسط وجنوب آسيا.
الورقة "الشيعية" كانت هي الأخرى ورقة رابحة في اليد الأمريكية البارعة واستفادت منها على إمتداد العالم الإسلامي كله ومن ضمنه المنطقة الأفغانية. وقد إنساق المسلمون على الساحة الأفغانية وراء المستنقعات العفنة التي حفرتها أمريكا بسواعد حلفائها أو أتباعها من الدول) الإسلامية (والحركات الإسلامية التي إنساقت بدوافع مختلفة خلف ركب الفتنةلاوقد غطت العيون والقلوب ستائر الجهل أو التعصب أو المنفعة المادية أو جميعها وكانت أفغانستان ساحة خصبة لكل ذلك.
كانت الثورة الإسلامية الإيرانية حدث العالم في ذلك الوقت، بينما أفغانستان تخوض في بحارالدماء بعيدا عن الأعين والأبصار.
وأذكر أنني جلست مع صديقي إسماعيل لتسجيل رسالة صوتية من الشيخ جلال الدين حقاني. وجهنا سؤالا له عن الثورة الإيرانية و الإمام الخميني.
وكان رده طيبا ومرحبا، ولم نجد نحن حرجا من توزيع الرسالة بعد عودتنا إلي أبو ظبي.
وكانت الثورة في إيران قد وصلت إلى السلطة منذ أشهر قليلة وسط ترحيب شعبي هائل علي مستوى الرأي العام الإسلامى.

وبعد سنوات كم تغيرت الصورة وأصبح الطعن فى الأمام الخميني وتكفير الشيعة "فرض عين" على كل مسلم. وعندما تنامى الدور السعودي العلني في أفغانستان سمعت عام ١٩٨٦ م، من بعض أنصارها المذهبيين أقصد السلفيين أن أخطر الأخطار على مستقبل أفغانستان هم الشيعة الأفغان وليس الإحتلال السوفييتي.

وعلى قدر ما أدهشني الطرح وهو من شاب إسلامي مرموق في الوسط) المهرجاني) وأوساط الندوات والمؤتمرات شرقا وغربًا، على قدر ما فشلت في إقناعه بأهمية تأجيل ذلك الخطر الداهم و التعامل معه، إلى ما بعد الجلاء السوفييتي!! ولكنه نظر إلي متشككا. فمن المفروض في رأيه أن كل مسلم صحيح العقيدة لايتردد في تأييد طرحه ذلك على طول الخط.

وفي نفس العام قابلت آخرا من نفس المدرسة وينتمي إلى الشمال الإفريقي ترك الجهاد في أفغانستان وأخذ يدعو غيره إلى ذلك وبالطبع دعاني أيضا، فسألته عن السبب فقال لي بأن المذهب الحنفي يحتوي على ما لا يقل عن عشرة مسائل يخالف فيها عن سبق إصرار وترصد السنة النبوية المشرفة.

إعتذرت له بكوني غير عالم حتى أحكم على) إنحرافات (أبي حنيفة ولكنني سأصدق ما يقوله بلا مناقشة بأن لدى "أبو حنيفة" عشر مسائل يخالف فيها السنة النبويه عن عمد ولكنني متأكد في حدود علمي أن بابرك كارمل رئيس النظام الشيوعي في كابل لا يوافق الشرع أو السنة في مسألة واحدة. فأيهما أولى بأن يحكم أفغانستان؟ شرع "أبو حنيفة" أم شرع ماركس؟.

بالطبع لم يعجبه القول ولم أره بعد ذلك إلا مرة واحدة بعد إنسحاب الروس وقد إنحصر معسكر المسلمين في نظره إلى أشخاص قلائل، هو بالطبع على رأسهم.

الجانب الحنفي لم يقصر في رد التحية بأحسن منها فموقف معظم العلماء عندهم أكثر تشددًا إزاء الوهابية منهم إزاء الشيعة. فالأولى كفر والثانية بدعة.

أما المودودية، نسبة إلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند، فهو يلحق بإبن عبد الوهاب من حيث الدرجة في الحكم. تميز الجانب الأفغاني بضبط النفس، ثم عبر عن نفسه بدرجة معقولة من الوضوح بعد معركة جلال آباد.

ثم بكثير من الوضوح بعد سقوط النظام الشيوعي في كابل حيث تجلت المواقف الحقيقية لقادة الأحزاب "الجهادية"، سواء مواقفهم الإعتقادية أم السياسية، وجميعها كانت معاكسة بشكل كلي لما كان معلنا في سنوات المحنة و "الجهاد المقدس".

وفي قندهار أطلقها أحد العلماء بأن قتل وهابي واحد أكثر أجرا عند الله من قتل ثلاثة عشر روسيا بالتحديد)!!. سمعت تلك الفتوى عام ١٩٨٩ عام جلال آباد والمدهش أنني سمعتها منذ شهرين - يوليو ١٩٩٤ - عندما أوقفنا أحد-المجاهدين- التابعين لبرهان الدين رباني رئيس الدولة وكان يظننا من الطاجيك ولكنه إعتذر قائلا: لقد ظننتكم عربا وهابيون ...

وكم أتمنى من الله أن أقتل أحدهم فذلك أعظم أجرا وثوابا من قتل ثلاثة عشر روسيا!!.مرة أخرى نفس التسعيرة التي وضعت في قندهار. والعجيب أن لدى معظم العوام هنا في أفغانستان أن كل عربي وهابي وليس كل وهابي عربي لأن هناك بعض الأفغان قد تحولوا إلى الوهابية وتلك قصة أخرى.

كانت زيارتنا الأولي مثل البذرة التي تحوي كل الخصائص الوراثية للنبات القادم من أحشائها. ولم أتبين ذلك بوضوح إلا على مراحل. وفي الوقت الراهن أعتقد أن الوضوح هو في أقصى درجاته بعدما إكتملت التجربة وظهر جليا كل أو معظم ما كان خافيا أوغامضا غير مفهوم بالنسبة لنا الأخطاء والمزايا جميعها كانت موجودة، على جانبنا نحن العرب ولو كمجموعة بسيطة كمجموعتنا الثلاثية ولكن معظم سمات التواجد العربي اللاحق و ملامحه الرئيسية تواجدت فينا من ضعف التأهيل الديني والسياسي والعسكري لمواجهة عظيمة بهذا الحجم بين الإسلام، الذي يمثله أفراد مندفعون غير مؤهلين، ومن خلفهم أمة تائهة ضائعة مستعبدة مستباحة الحرمات.

وتواجدت فينا الأحلام الهائلة الهلامية غير محددة العالم، ولا ندري لها كيفية للتنفيذ على أرض الواقع.

تلك الأحلام تعكس مدى جهلنا بواقع العالم بل واقعنا نحن. ولعل ذلك الجهل كان أحد أسباب جرأتنا في الحركة. إنها شجاعة الجهل التي أدهشت كثيرين، وجلبت لنا الكثير من المشاكل والإتهامات والتشكيك وقادتنا إلى الصدام مع الأقوياء.

والذي أدهشنا أكثر من أي شيء آخر أن أول صدام وأقساه على نفوسنا جاء من تلك الجهة الإسلامية التي حاولنا التعلق بها كما يتعلق الغريق بقشة وسط موج هائج. وأقصد بها جماعة الإخوان المسلمين التي لاقينا منها أشد العنت طوال عملنا في قضية أفغانستان. ثم لاحقتنا بعض) بركاتها (عندما حاولنا هذه الأيام الإنتقال للعمل في قضية طاجيكستان.

لقد أحيت فينا التجربة الأفغانية الكثير من الآمال وأوضحت لنا وأنارت الكثير من السبل العملية وزودتنا فيها بشيء من البصيرة والخبرة، لكنها أيضا أطاحت بآمال وأحلام أخرى كثيرة أولها كان جماعة- الإخوان المسلمين-، وآخرها تلك الآمال الساذجة في دولة على وشك الظهور في أفغانستان تحكم على نهج النبوة، على أيدي خلفاء راشدين!!.

وبين هذه وتلك تقع أحلام أخرى خاصة بتجميع "أمة الإسلام" خلف قضية ما أو زعامة ما.

ورغم أن قناعاتنا مازالت على أن السعي نحو تلك الوحدة إنما هو فريضة دينية إلا أن قناعتنا حاليا هي أن ذلك هو المستحيل الثامن إلا أن يتغمدنا الله برحمته، لأن تلك الوحدة ظهر لنا بالدليل العملي أنها فوق قدرة البشر أجمعين (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم (إنها معجزة إلهية بحتة وإن كان السعي الإنساني إليها ضرورة دينية كما أسلفنا رغم يقيننا بالعجز أمام تلك المهمة.

وما أشبه ذلك بالقتال ضد جيوش جرارة حديثة ومتفوقة في كل شيء ما عدا الإيمان وهذا ما رأيناه ولمسناه بالحواس الستة في أفغانستان أنها مهمة مستحيلة بالمقياس البشري ولكنها تحققت أمام أعيننا في أفغانستان، وما أظن أن بني إسرائل مع نبي الله موسى كانوا أشد دهشة منا وهم يشاهدون بأم أعينهم معجزة شق البحر وإبتلاع الموج لأقوى طواغيت الكفر وجنوده.

إذن وحدة الأمة هي المعجزة المنتظرة كما أظن ويأتي بها الله عندما يرى سبحانه أن عباده قد تهيأوا لاستقبالها بما هو أهل له من طاعة وإنقياد وتذلل إلى الله من دون العباد.

لقد أظهرت التجربة الأفغانية من وجهة نظري مدى ضعف بنية العمل الإسلامي الطليعي المتمثل في الجماعات. وكم أن تلك الجماعات بعيدة عن الأهداف المعلنة لها بل و مناقضة لها في أكثر الأوقات. وكم أن الفردالمسلم المنتمي للجماعات أو الملتزم وغير المنتمي ما زال بعيدا عن المستوى المطلوب.

باختصار لم ألاحظ في تلك التجربة أن لدينا الآن الفرد المسلم الحقيقى الذي يمثل هذا الدين والذي يمكن له أن يقابل النماذج البشرية الكفرية المدججة بأسباب القوة المادية.

إن قوانا الروحية والأخلاقية لم يتم شحذها. فما زلنا ملوثين إلى درجة خطيرة بالمثل والخلق الجاهلي. ومهزومين داخليا مهما علا صراخنا بعكس ذلك أمام حضارة الغرب الملحدة.

من السهل إنحرافنا أو شرائنا أو تسخيرنا لمشيئتهم ومخططاتهم بعلم منا أو بجهل. وما حركتنا في أفغانستان ثم البوسنة إلا أمثلة لهذه السيطرة الطاغوتية وتحكمها عن بعد أو عن قرب بأفضل تحرك إسلامي في العصر الحديث ألا وهو التحرك الجهادي.

هذا التحرك الذي برز وتنامى فى أفغانستان، ولم تتبلور له قيادة أو أسلوب عمل أو أدوات تنظيمية أو فكر واضح المعالم ومتكامل ويغطى مجالات الحركة المطلوبة، عسكريًا وسياسياً فى ظل مفاهيم شرعية واضحة ومنضبطة.

هذا كله لم يحدث في أفغانستان، وحتى الآن لم يحدث في أي مكان آخر حسب علمي لا في البوسنة ولا طاجيكستان ولا مصر ولا حتى الجزائر رغم التقدم الكبير للعمل الجهادي بها حتى لحظة كتابة هذه السطور.

فقد أثبتت أفغانستان أن العبرة بالنتائج النهائية للعمل الجهادي وليس بمقدار التقدم العسكري لهذا العمل في مرحلة من المراحل. وتعلمنا من أفغانستان أن الصراخ الجهادي مهما علا وثقب الآذان وهز الجدران لا يعني بأي حال أننا أمام عمل جهادي صحيح أو قيادة إسلامية مخلصة. وكثيرا ما تتناقض حدة الصراخ مع درجة الإخلاص.

وإلا لكان الشعب الروسي أكثر الشعوب إيمانا بالشيوعية، وإلا لكان القادة الأفغان والمنظمات الجهادية في أفغانستان أكثر إلتزاما بأبسط أحكام الإسلام وأقل خضوعا للدول الخارجية الكبيرة منها والصغيرة، من أمريكا وحتى باكستان مرورا بالسعودية وإيران وحتى أوزبكستان وطاجيكستان المحكومتان بنظم شيوعية حتى الآن. ولكن نفوذها داخل أفغانستان الإسلامية المجاهدة أكثر من

النفوذ العملي لأبي حنيفة رضي الله عنه.

كان من أخطائنا البارزة ذلك الخطأ في تقييم الشخصية الأفغانية، وتلك الشخصيات التي قابلناها في رحلتنا الأولى حينما كان الجهاد في أنقى صوره قد أسرتنا مثالياتها من بطولة وإيمان وتضحية وتقشف وحماس ... إلخ، فعممنا ذلك على كل الأفغان، وتصورنا المجاهد الأفغاني في صورة أقرب للملائكة. وأعترف أنني كنت الأكثر مغالاة في ذلك الجانب من صديقاي أحمد وإسماعيل. وقد كانت أول مرة أغضب فيها على صديقي المنياوي هي تلك المرة التي إتهم فيها أحد المجاهدين بسرقة بعض متاعه وإن كان قد صرح بذلك سرا بيني وبينه وغضبت لكونه إتهم مجاهدا بالسرقة، ومرة أخرى إتهم آخر بالكذب. وكان تقييمه النهائي للأفغان إنهم قوم يستحيل معاشرتهم ... أحزنني وأغضبني هذا التقييم القاسي، ولكن السنوات أثبتت أن هناك الكثير من السراق والكاذبين بل والمنافقين كانوا دوما في صفوف المجاهدين وبنسبة متزايدة مع الزمن.

ساعد على ذلك ظروف خاصة يمر بها المجتمع الأفغاني إضافة إلي ملابسات القضية الأفغانية والتداخلات الخارجية فيها.

وليس الشعب الأفغاني منفردا بتلك العيوب، مع كونه يجمع مزايا أخرى نادرة يصعب العثور عليها في أكثر الشعوب الإسلامية الأخرى.

لقد كان صديقنا الصعيدي أكثر خبرة بالناس ساعدته في ذلك ظروفه الشخصية التي سادها الإضطراب فترة الصبا التي نضجت فيها شخصيته مبكرا. أما أنا فكنت أقرب إلي تكوين طالب الجامعة المثالي قليل التجربة. أما صديقي إسماعيل فهو المثقف الذي إكتسب تجربة في العمل السياسي الجامعي فيما بعد مرحلة عبد الناصر. لذلك وبعد زيارته الأولى إلى أفغانستان كان رأيه أن الأفغان أقل من مستوى طموحاتنا والدور الذي نحلم أن يلعبوه على

المسرح الإسلامي والدولي وكان أيضا صادقا فيما ذهب إليه، وكنت أوافقه على رأيه ولكنني كنت مصرا على أنهم سوف يفعلون الكثير للإسلام ولمشروعنا الجهادي أيضا رغم بساطتهم السياسية على حد تعبير إسماعيل بعد زيارته الأولى.

ثم تابع كل منا تجربته من مسار مختلف وزاوية مغايرة فزاد التباين بين وجهات النظر منذ العام الأول فبينما ذهبت مع أحمد إلى جبهة القتال، عاد إسماعيل إلى بيشاور بعد أن تورمت ركبتاه المصابتان منذ عهده الرياضي الحافل، وهناك التقى مع جماعة "حكمتيار" وهم مثقفون نشطون يختلفون كثيرا عن مجاهدي الجبهة الذين هم رجال من الصخر أو أشد، ولا يكاد يكون لهم دراية بعالم السياسة المعقد والغامض.

كون إسماعيل رأيا بأن حكمتيار قد يكون الأقدر على القيادة وأن كوادره لا بأس بها لو وجدت الفرصة والإمكانات، وخالفته بشدة في ذلك بعد ما رأيت وسمعت في الجبهات ثم في بيشاور من جهات معارضة لحكمتيار. فقد كان رأيي أن حكمتيار مشروع كارثة.

وللأسف فإن علاقاتي قد توترت مع إسماعيل لفترة نتيجة إصرار كل منا على وجهة نظره. وإنتهى الأمر بإسماعيل إلى ترك العمل في القضية الأفغانية تماما.

بينما أكملتها إلى الرمق الأخير، وأبقي أحمد على نوع من الإرتباط المرن والفاعل وحرص على عدم الغرق في بحارها كما فعلت. ولكنه ظل مفيدا حتى اللحظة الأخيرة للقضية.

وأثبتت الأحداث أن كلانا أنا وإسماعيل كان على شيء من الحق. فالرجل "حكمتيار" كان نشطا وذكيا وحادا، ويمتلك أفضل تنظيمات الأفغان نشاطا وحركية. ولكن كل ذلك كان يتحرك في إتجاه الكارثة ومكرسا بالكامل لمصلحة قوة خارجية هي باكستان ومصالحها وتوجهاتها السياسية أكثر من إرتباطه بقضية إسلامية أو حتى وطنية على أرض أفغانستان.

وقد إتضحت لي هذه الصورة بدون إلتباس في أواسط الثمانينات عندما بدأت أتلمس عن قرب في إسلام آباد أثناء عملي الصحفي، الآلية الدولية التي تحرك الصراع داخل أفغانستان.

حتى أخطاء العمل العسكري كانت بذورها واضحة في تلك الزيارة. وأبرزها مشكلة القيادة وتبعثرها وعدم الإجماع على قيادة واحدة حتى داخل المنطقة الواحدة.

ثم مشكلة التدريب على الأسلحة الحديثة والتكتيكات العسكرية المناسبة. أما الإستراتيجية الشاملة للعمل العسكري فلا تسأل عنها حتى نهاية الحرب.

ومشكلة الغنائم كانت معضلة بقدر ما كانت مأساة وتستحق أن نفرد لها حديثا مفصلا. ولكنها معضلة ظهرت واستمرت وتفاقمت منذ اللحظة الأولى حتى اللحظة الأخيرة للقضية الأفغانية.

وكانت نتائجها مأساوية على مسيرة الجهاد كما سنتحدث لاحقا. وعلى الجانب العربي، فقد كان ثلاثتنا مشروعا لتواجد عسكري عربي دائم وطليعة لذلك المشروع الطموح والهلامي لقوة إسلامية ضاربة ومتحركة.

وكان من مشاكلنا التدريب والتسليح والتمويل والقيادة ثم الإتصال "بالأمة الإسلامية" التي نطمح إلى إيقاظها والدفاع عنها كل ذلك دفعة واحدة بدون أن ندري إجابة لأي سؤال يبدأ بكلمة كيف؟

كانت تلك مشاكلنا أو الجزء الهام منها وقد ظلت مشاكل أيضا للتواجد العربي طوال فترة عمله في القضية الأفغانية. وقد ذكرنا من قبل أن مشكلتنا المبكرة في عدم وجود قيادة لنا أو رؤية موحدة لنفس الحدث الذي نعايشه والقضية التي نعمل لها، ولا حتى إدراك كافى لهذه القضية وأبعاد ها السياسية أو مستلزماتها العسكرية من وجهة نظر إحترافية فما نحن إلا هواة عديمي الخبرة إضافة إلى سذاجتنا في تناول الحدث والتعامل معه أو في فهمه وتحليله. لقد قفزنا ببساطة إلى المجهول كي نتعلم. فهل تعلمنا؟ ... أرجو أن نكون قد تعلمنا قليلا.

....

إنتهت فترة إنتظارنا في) سرانا (بعد وصول أسلحتنا التي اتفقنا مع) مطيع الله (على شرائها وإرسالها بعد توزيع الغنائم.

إستلمت وصديقي أحمد بندقيتين من طراز كلاشنكوف مع مخزنين من الذخيرة لكل واحدة. كان إسماعيل قد غادر منذ فترة يعاني من الآلام المبرحة في ركبتيه وأخذ معه كمية من الأفلام التي تم تصويرها وتقرير صحفي عن أهم ما شاهدناه إضافة إلى بعض الأخبار. وكانت تلك أول مساهماتي الصحفية الميدانية في قضية أفغانستان.

كان يوم الخميس عندما ودعنا حقاني وأرسل معنا أحد رجاله كي يصطحبنا إلى الخط الأول حيث مركز مولوي عبد الرحمن في) دارا (، وهي قرية كبيرة تقع على الطريق الرئيسي في بدايته تقريبا المتوجه صوب خوست. تلى) دارا (قرية أخرى إلى الجنوب تسمى) غلجاي (ثم تبدأ مرتفعات) ستي كندو (الرهيبة والتي تكسوها غابات الصنوبر.

قضينا ليلة الجمعة قريبا من قمة جبل يشرف على دارا من جهة الغرب وعلى بعد عدة كيلومترات منها. ذلك البيت المكون من غرفة واحدة ويديره مجاهد في منتصف العمر مع إبن له، كمركز متوسط بين القيادة الخلفية في) سرانا (وبين البؤر المتقدمة حول سياج المدينة الخارجي. توافد علي البيت حوالي عشرة مجاهدين آخرين قرروا المبيت حتى الصباح حيث يواصلون المسير إلى مواقع مختلفة. وقد أكرمنا مدير المنزل بدجاجة كاملة، إحتفالا بالمجاهدين القادمين

من عربستان. ولم تكن تلك هي المناسبة الأولى أو الأخيرة التي إكتشفنا فيها أن لحم الدجاج الأفغاني غير قابل للأكل فهو قاس جدا وغير قابل للطهو مهما طالت المدة وتعالت النيران.

مع أول ضوء شرعنا في نزول الجبل مع الدليل، وكانت رحلة سهلة لكونها تنحدر إلى أسفل، وأدهشنا وجود كتل ثلجية في أخاديد تلك الجبال الشاهقة، ونحن في شهر يونيو.

وصلنا إلى أحد الشعاب المتسعة نسبيا والذي يشبه مجرى نهر جاف غير أن جدول ماء رائق وغزير نسبيا يتخلله من المنتصف.

على الجانبين أجراف ترتفع عدة أمتار، وقد حفر المجاهدون على مسافات متباعدة بعض الحفر الأفقية في محازاة مستوى الأرض إلى داخل الجرف، وقد

ظهر لنا فيما بعد أهمية هذا الإجراء البدائي في الوقاية من نيران المدفعية والطائرات، وقد لمسنا ذلك بعد وقت يسير في نفس المنطقة.

إنحرفنا يمينا إلى شعب أضيق يمر به مجرى مائي أصغر. وبعد حوالي خمسين مترالا بدأت تظهر علامات لا تخطئ بأن هناك بشرا يسكنون المكان. هناك عمائم منشورة علئ سفوح التلال الشرقية كي تجف، فاليوم الجمعة وقد شاهدنا أفراد من المجاهدين منهمكين في غسل ملابسهم. تلك العمائم تبلغ الواحدة منها عشرة أمتار تقريبا في الطول ومترا ونصف المتر في العرض وقد نشرت في ضوء الشمس متتابعة فبدت كعلم ضخم متعدد الألوان. فهناك الأبيض والذهبي والأسود والأخضر. كانت مظاهرة فلكلورية جميلة لكني شعرت بالخطر

فأي طائرة تمر بمكنها تمييز المركز بسهولة.

ولم نكد نسير إلا قليلا حتى رأينا عرضا آخر عبارة عن عدد من الآنية المستخدمة في الطبخ وأباريق الشاي وعلب السمن الفارغة وقد نثرت على جانب الوادي تحت أشعة الشمس وقد أعطت إشارات لا يخطئها عاقل بأن هناك مركزا للمجاهدين في ذلك الوادي.
تعرفنا على"مولوي عبد الرحمن" قائد المركز وهو شاب فارع الطول وقوي البنية لا تنقصه روح الدعابة مع إبتسامة ساخرة لا تكاد تفارق وجهه، يضع نظارة طبية منذ فقد إحدى عينيه في معركة مع الشيوعيين منذ أشهر قليلة.
كان مشهورا بشجاعته ومواقفه الفاصلة مع رجال الحكومة في جردين. وتعرفنا أيضا على مولوي "محمد سرور جان" وهو خال مولوي عبد الرحمن رغم تقاربهما في العمر وهو يتكلم العربية لدرجة تكفي لأن يكون مترجمنا الخاص
منذ لحظة إنضمامنا إلى المعسكر وحتى عودتنا إلى ميرانشاه مرة أخرى وكلا الرجلين مازال حيا إلى الآن ضمن مجموعة قليلة من أفراد ذلك الجيل الأول الذي فجر الجهاد وشارك فيه حتى لحظات النصر الأخيرة ... ومعظم هذا الجيل قد لاقى حتفه على طريق الجهاد.
بإنضمامنا إلى المركز صار عدد المجاهدين إثنا عشر شخصا ثلثهم تقريبا من جنود الجيش الذين إنضموا للمجاهدين. ضحك مولوي عبد الرحمن قائلا: ما أغرب هذا المركز عندنا إثنا عشر مجاهدا يتكلمون أربع لغات!!.

٩.٣ لقاء حار مع الطيران

تنبهت إلى تلك الحقيقة التى تختزن حقائق أعمق وأخطر، وهي إنصهار تلك القوميات المختلفة تحت راية الجهاد منذ ذلك الوقت المبكر كان هناك البشتون، أهل المنطقة، والعرب أنا وصديقي أحمد ثم الفرس والأوزبك من جنود الحكومة المنضمين إلى المجاهدين.
ذكرني ذلك الموقف الإسلامي الرائع والبسيط في مركز مولوي عبد الرحمن، بذلك العفن الذي تديره أمريكا الآن فى أفغانستان لإثارة النعرات القومية والنزاعات المسلحة بين القوميات.
ومنذ الفتح وحتى الآن والحرب دائرة بواسطة التنظيمات الجهادية التي تديرها أمريكا ودول المنطقة لإزالة آثار الجهاد من أفغانستان وعودة النتن الجاهلي ... إن الجهاد ضد الشيوعية ولإعادة الإسلام إلى أفغانستان كان نموذجا عمليا ناجحا لمشكلة القوميات في آسيا الوسطى الإسلامية، وبدون ذلك لا مستقبل لتلك المنطقة الحيوية غير الصراعات الدامية التي لا تنتهي، أو أن تتوحد مرة أخرى تحت قهر الروس الدموي. لهذا تبذل أمريكا ونظامها الدولي حاليا أقصى الجهود في سبيل منع الحركة الجهادية من الإنتقال إلى طاجيكستان التي بدأ فيها
القتال بين المسلمين والشيوعيين على أسس قبلية وعرقية في البداية ثم على أساس ديني لاحقا.
وتشارك أمريكا في ذلك المجهود، المنظمات الجهادية النافذة والتي تتولى أو تشارك في السلطة حاليا داخل كابل. وقد أبدى عدد قليل من القادة الإسلاميين الشباب إقتناعهم بأن الحل الوحيد لمشاكل القوميات في بلادهم داخل آسيا الوسطى هو الحل الجهادي الإسلامي، الذي يزيل الفوارق بين الأجناس ويجعل التقوى والعمل الصالح والجهاد هما أساس التفاضل بين الناس.
لقاء حار مع الطيران:

بعد الترحيب وجلسة الشاي التقليدية، بدأنا مع مولوي عبد الرحمن، الهواية العربية التقليدية التي لم تبارح العرب في أفغانستان، ألا وهي هواية إسداء النصح والتوجيه الديني والإرشاد ... وصولا إلى إقتراح الخطط العسكرية الناجعة التي تنبع أفكارها غالبا من أفلام السينما الأمريكية ومسلسلات التلفزيون.
كان ذلك الدور التعليمي للعرب غير متقن بل ممجوجا في أكثر الأحوال. فلا النصح الديني كان مبنيا على معلومات دينية دقيقة ومؤصلة، ولا النصح العسكري صادر عن خبرة ودراسة. ومع هذا فإن ما مارسناه من نصح مع مولوي عبدالرحمن كان معقولا في ظني. فقد حدثناه في شأن كرنفال العمائم المنشورة على سفح الجبل والأوعية المعدنية المتناثرة في الشعب.
ضحك مولوي عبد الرحمن على إستحياء قائلا بأن المجاهدين لا يبالون عادة بمثل هذه الأشياء، وأصدر بعض الأوامر لإصلاح الخلل كنوع من المجاملة لنا وقمنا لمساعدة المجاهدين في إخفاء تلك الإعلانات الفاضحة عن الموقع، وكانوا يفعلون ذلك بلا اقتناع.
وتناقلوا بالطبع فيما بينهم وكما حدث معنا كثيرا في سنوات تالية مقولة هازئة بأن العرب خائفون.

مرت طائرة مرتفعة عدة مرات فوق الموقع، ولم نكن إنتهينا من عملنا لأن بعض المجاهدين لم تجف عمائمهم بعد.
وضحك بعضهم وأشاروا إلى الطائرات قائلين، إنها مرتفعة جدا ولا يمكن لها أن تشاهد مثل هذه الأشياء الصغيرة. لقد أدهشني طوال مدة الحرب إستخفاف
المجاهدين بالطائرات النفاثة ولم يكن الحال كذلك مع طائرات الهيلوكبتر كما لمسنا ذلك أيضا منذ زيارتنا الأولى تلك.
كان تقديرنا لخطورة الطائرات كبيرا ويرجع ذلك إلى تراثنا العربي العسكري مع إسرائيل، ذلك التراث المخزي الذي ضخم من دور الطيران وأهميته لتغطية التآمر الرسمي العربي.
رغم أن دور الطيران في الأساس هو دور هام في الحروب خاصة بعد دروس الحرب العالمية الثانية التى أفادت بأن الحرب الحديثة يتم كسبها أو خسارتها فى السماء أى أن السيطرة على السماء هي المقدمة للسيطرة على أرض المعركة. لقد إكتشفنا لاحقا ذلك الإستثناء الهام لكون حرب العصابات لا تسري عليها نفس القاعدة بشكل كامل.
فالجبال والأشجار وقلة الكثافة البشرية للمقاتلين وقلة عتادهم ومرونة حركتهم،
تجعل الطائرات القاذفة والمقاتلة النفاثة أو الجت كما يسميها الأفغان قليلة الفعالية بشكل ملحوظ وإن كان تأثيرها النفسي على الأهالي كبيرا لبشاعة الضرر الذي تلحقه بقراهم ومدنهم.
أما الهيلوكبتر فقد أثبتت مرة أخرى في أفغانستان بعد أن أثبتت قبل ذلك في فيتنام أنها السلاح الجوي الأمثل للتأثير على قوات المجاهدين.
على أية حال فإن الطائرات إحترمت ضيافتنا والإجازة الأسبوعية للمجاهدين، واكتفت بعدةد ورات فوق المنطقة، ولكنها منذ صباح السبت تصرفت بشكل غير لائق بالمرة.
فلم نكد نرفع أكواب شاي الصباح حتى صبحتنا أول غارة جوية ونحن مازلنا جلوسا نتبادل البسمات والأحاديث المشوقة، حين فاجأتنا الطائرات المنقضة على مركزنا الصغير.
ساد الإضطراب والفوضى، وتركنا كل شيء وبدأ كل منا يفكر بأقدامه لتقوده إلى أي حفرة. كان وقتا عصيبا لم نواجه مثله من قبل.
ومرت الدقائق كأنها ساعات طوال والإنفجارات تتلاحق في كل مكان من حولنا.
إنتهت الغارة فجأة كما بدأت فجأة. وساد صمت رهيب وإبتعد هدير الطائرات. زففت الخبر السار إلى صديقي أحمد المستلقى إلى جانبي في حفرة شقها السيل في سفح الجبل، وقلت له بصوت خافت لقد ذهبوا وكأنني خشيت أن تسمعني الطائرات. جهزت نفسي لسماع أخبار سيئة ورؤية مناظر فاجعة، فلا بد أن هناك إصابات وقتلى بعد أن تساقطت فوق رؤوسنا مئات من القنابل الصغيرة المليئة بأشرطة من رقائق الألومنيوم التي تتناثر مثل الشفرات القاطعة المشتعلة.
تنادى المجاهدون وكل منهم يخرج من مكان غير متوقع والكل يضحك وكأنها نكتة مرحة.
وكان نفس الشيء يحدث أعقاب كل الغارات التي شاهدتها فيما بعد.
لقد كانت الضحكات إعتذارا مهذبا عن الإختباء والهلع الذي أصاب الشخص لحظة المحنة الجوية.
لم يصب أي أحد وهذا ما أدهشني ما عدا شاب واحد قد أدمت أذنه اليمنى شظية من الألومنيوم المشتعل فأصابته بخدش صغير.
تولى صديقي أحمد علاجه بما يحمله من أدوات إسعاف أولية وكانت تلك أحد مآثره العملية الرائعة. لم نكن نحن أصحاب المشاريع الإستراتيجية الكبيرة نفكر في إصطحاب قطعة من الشاش إلى موقع القتال. لقد كانت أدوات الإسعاف التي حملها المنياوي معه مصدر سعادة للمجاهدين وتجمعوا حولها ينظرون إليها وإلى أحمد وهو يعالج الخدش وكأنهم يشاهدون جراحة معقدة في القلب.
وظن بعضهم أن صديقي إنما هو طبيب نادر المثال، هذا على عادة الأفغان في المبالغة.
سادت البهجة والمرح في صفوف مركزنا بعد النجاة من هذه الغارة المفاجأة والعنيفة، وأعد المجاهدون طعام الغداء والذى يتكون من "الثريد" بشكل ثابت ويومى. وتحلقنا حول القصعة نتناول الطعام غير الشهي بطبيعته ولكننا نتناوله بسعادة وشوق كأننا نستقبل حياة جديدة.
لم يستمر ذلك طويلا فقد باغتنا العدو مرة أخرى بغارة مفاجئة وعنيفة كسابقتها.

تكرر المشهد وتبخرت البهجة. وأطلقنا العنان لأرجلنا وإرتميت وصاحبي في ذات الحفرة.
ومرت السنوات الطوال والقنابل تتساقط على جانبي حفرتنا وعلى طول المعسكر حتى نهاية الشعب، وتحولت التلال المحيطة إلى دخان وأتربة ونيران. مرة أخرى، لا إصابات ولا خدوش.
ولكنني لم أستطع إستعادة حالتي المرحة إلا بعد وقت طويل نسبيا، أي قرب صلاة العصر.
ولم أكد أفعل حتى عادت الطائرات مرة ثالثة لتكرر معنا نفس المشهد البائس، ومرت سنوات أخرى من الرعب وإنتهى المشهد ولكن هذه المرة لدينا جريح، إنه نفس الشاب الذي أصيبت أذنه في الصباح.
هذه المرة أصابته شظية ألومنيوم في سطح قدمه اليمنى فمزقت النعال وحفرت شقا طويلا في الجلد بعمق عدة مليمترات.
لقد نزف كثيرا من الدماء، وتمكن أحمد من إيقاف النزيف وتضميد الجرح، والشاب يضحك مع زملائه ويتبادل النكات حول مغامرات هذا اليوم مع الطائرات وكيف أنه المصاب الوحيد في غارتين.
كانت مشكلته الحقيقية ليس مع الجروح ولكن مع النعال الذي تلف وكيف يتحرك
فوق الصخور والأشواك بقدم جريحة وبلا نعال؟.
بعد صلاة المغرب تجمعنا حول بقايا من الخبز اليابس بدون شاي، فأحداث اليوم لم تترك مجالا لغير ذلك، ودارت الهمسات حول شكوك بوجود جاسوس في المعسكر أو قريبا منه أبلغ "الحكومة" بمكان المركز وتواجد العرب فيه. ولكنني ضحكت وقلت لهم أن مهرجان العمائم كان كافيا لاجتذاب سلاح الطيران الشيوعي بأكمله، ولعل ما حدث اليوم يكون درسا في الحذر.
لم يقصف الطيران هذا الشعب مرة أخرى وإكتفى بقصف مناطق قريبة منه، فقد كان منطقيا ألا يحاول مخلوق أن يقترب من ذلك الوادي مرة أخرى بعد كل تلك القنابل التي أحرقته وأحرقت الجبال المحيطة به.
كان ذلك هو الحساب المنطقي لأي رجل عسكري، ولكنه كان غير صحيح، وكم كان مخطئا ذلك التفكير المنطقي في معظم أوقات الحرب الأفغانية.
لقد كان منطق العمل لدى المجاهدين هو مخالفة كل منطق وذلك لأسباب تتعلق بالشخصية الأفغانية العنيدة وغير المبالية بالمخاطر. كان من المستحيل تقريبا على أي قائد عسكري يواجههم أن يتنبأ بأفعالهم أو ردود أفعالهم إزاء أي عمل. وكانت تلك من ميزات المجاهدين الهامة جدا في عملهم وإن كانت غير مقصودة بالمرة بل غريزية تماما.
وفي ظني أن الغريزة القتالية هي خير أستاذ لرجال حرب العصابات خاصة في مرحلتها الأولى والغرائز لدى الرجل البعيد عن الحضارة هي أقوى منها لدى رجل آخر نشأ في وسط المدينة. لذلك فإن الشعوب "البدائية" أفضل أداء في حروب العصابات من الشعوب المتحضرة.
ولكن تلك الحرب في مراحلها التالية والأكثر تعقيدا، لإحتياجها أكثر وأكثر لمزيد من الأسلحة المتقدمة وما يلزمها من تكتيكات قتالية معقدة نسبيا، في تلك المراحل تكون البدائية والعشوائية كارثة بكل معنى الكلمة. ولا بد من توافر قيادات وكوادر عالية المستوى لتولي زمام تلك الحرب، هذا بالإضافة إلي الأسلحة المتقدمة والتدريب اللازم لاستخدامها على أرض المعركة.
بقينا عدة أيام في نفس المنطقة، تلقينا فيها العديد من قذائف الهاونات الثقيلة أطلقها العدو كنوع من الإحتياط لتأمين المنطقة. وشاهدنا أيضا غارة جوية من هيلوكبتر عسكرية ضد مكان يبعد عنا حوالي كيلومتر واحد، وأدهشني مدى إنزعاج المجاهدين ورهبتهم من تلك الطائرة اليتيمة والبعيدة عنا، وهم المشهورون بالإستهزاء بالمخاطر خاصة إذا كانت بعيدة في الزمان أو المكان.
ولكنهم حكوا لي قصصا عجيبة عن قدراتها وأهما أنها دبابة طائرة لا تتأثر بطلقات أسلحتهم وكانت تلك المعلومة جديدة بالنسبة لي كما أنها صحيحة أيضا والخاصية الأخرى قدرتها على البقاء في الجو لفترة طويلة تفتش وتنقب وتطلق نيران رشاشات ثقيلة وقنابل متنوعة.
وفي الواقع فإن طائرات الهيلوكبتر الروسية من طراز) مى (٢٤ كانت من أفضل أسلحتهم فاعلية في حرب أفغانستان، ولكنها فقدت جزء من هيبتها بعد أن تزايدت عدد قطع الرشاشات الثقيلة المضادة للطائرات في أيدي المجاهدين.
وذلك عن طريق الغنائم أو المساعدات الخارجية التي تزايدت بعد تدويل الأزمة بالتدخل الأمريكي.

وقد هبطت تلك الهيبة إلى أدنى مستوياتها بعد إدخال صاروخ ستنجر الأمريكي المضاد للطائرات إلى ساحة المعركة في أواخر عام ١٩٨٦ ومع هذا ظلت تلك الطائرات محتفظة بتفوقها في المناطق المنبسطة خاصة في شمال أفغانستان وأجزاء من الجنوب خاصة الجنوب الغربي الصحراوي.

وهبوط فاعلية الطيران كان في ظني جزء من هبوط فاعلية القوات الشيوعية بشكل عام، سواء الروسية أو الأفغانية، والفجوة الواسعة بينهم وبين المجاهدين في المجال المعنوي.

لقد أفرط الشيوعيون روسا كانوا أو أفغانا في الإعتماد على سلاح الجو لتعويض عجزهم على الأرض وهبوط معنويات جنود المشاة لديهم. ومع مرور الوقت كان ذلك الإعتماد يتزايد ولا يتناقص حتى خرجت بنتيجة شاركني فيها الكثير من المجاهدين، بأن الضربات الجوية كلما تكاثرت في العدد وزادت في العنف كلما كان ذلك دليلا على تدني معنويات الخصم، أو قرب إنهياره.

وبالفعل فإن الغارات المكثفة والعنيفة، كما كانت مقدمة لهجوم واسع أحيانا فقد كانت إشارة إلى قرب إنسحاب أو إستسلام وشيك للقوات الشيوعية فى أوقات أخرى.

وبعد إتمام الإنسحاب السوفييتي من أفغانستان في ١٥ فبراير ١٩٨٩ م أضاف الشيوعيون إلى سلاح الجو طائرات جديدة أبرزها "ميج ٢٩ مع تعزيز أعداد الطائرات "سوخوي" ٢٥ وهي أيضا من أفضل القطع التي أثبتت فعالية في أفغانستان.

وقد تضاعفت الأنواع الجديدة من القنابل التي تلقى من الجو، وأبرزها القنابل العنقودية، والقنابل الموجهة الذكية وقنابل ضد المغارات. والأبرز من هذا كله سلاح الصواريخ التي كان نجمها بلا منازع صاروخ) سكود بي) الذي إستهلك منه عدة آلاف على مدى الثلاث سنوات الأخيرة من الحرب، أى منذ الإنسحاب السوفيتي وحتى سقوط النظام الشيوعي في كابل.

إذن فقد تعزز سلاح الجو كثيرا كما ونوعا، ودخل سلاح الصواريخ بغزارة لم يسبق لها مثيل خاصة في أمثال تلك الحروب.

وأظن أن تلك الإجراءات لم تفد كثيرا على المستوى العسكري مع كونها قفزت بالتكلفة الإجمالية للحرب، وخاصة التكلفة السنوية لفترة السنوات الثلاث الأخيرة. فقد قدرت مصادر باكستانية ثمن صاروخ (سكود بي (بمبلغ مليون دولار.

وتفيد شواهد عديدة أن دول الخليج العربي قد تكفلت بتمول نفقات الحرب على الجانب الشيوعي ودفعت لموسكو تكلفة صفقات السلاح في السنوات الثلاث الأخيرة منها.

ورغم المجهود الجوي الكاسح، بالطائرات ثم بالصواريخ، إنتهت الحرب بهزيمة شاملة للشيوعيين.

وعلى هذا فلا يمكن الزعم بأن لسلاح الطيران قيمة حاسمة في معارك العصابات في كافة مراحلها، وقد ثبت ذلك في أفغانستان.

كما أن السيادة الجوية ليست حاسمة كذلك حتى في المعارك التقليدية وقد ثبت ذلك في حرب "العراق / إيران" فقد استطاعت إيران الصمود طوال السنوات الثمانية التي إستغرقتها الحرب بدون سلاح جوي تقريبا.

ومع هذا كله لا يمكن المجادلة في أهمية الدور الذي يقوم به سلاح الطيران في أي حرب تقليدية كانت أو غير تقليدية.

وعلى المجاهدين أن يعتبروه عدوا رئيسيا وخطيرا ويبذلوا غاية العناية في التخطيط لمواجهة تأثيراته السيئة معنويا أولا و ماديا ثانيا.

والهيلوكبتر بلا شك هي العدو الأول لرجال العصابات. وماديا فإن الصاروخ المضاد للطائرات و الذي يطلق من الكتف هو أفضل علاج ضدها ظهر حتى الآن. ولكون أن هذا العلاج صعب جدا توفيره في معظم الحالات فسوف تظل المواجهة الأساسية للخطر القادم من الجو هو القدرة المعنوية للمجاهدين والإجراءات الوقائية السلبية ضد الطيران، مع محاولة ضرب هذه الطائرات في حالة جثومها على الأرض سواء في المطارات والقواعد الجوية أو قرب خطوط القتال أثناء العمليات وقد حدث ذلك في أفغانستان أيضا.

وقد يتصور البعض متأثرا بالدعاية التجارية والسياسية الأمريكية بأن صاروخ "ستنجر" كان هو السلاح الحاسم الذي مكن المجاهدين من النصر، وهذا كذب فاضح روجته آلة الدعاية والأكاذيب الأمريكية. وقد ساعدهم المجاهدون على ذلك من حيث لا يدرون بإذاعة أرقام مبالغ فيها كثيرا عن إصابات لحقت بطائرات العدو بواسطة تلك الصواريخ.

والواقع أن ما قامت به أمريكا بالنسبة لصواريخ "ستنجر" استهدف غرضين رئيسيين

الأول: سرقة النصر الذي تحقق على أيدي المسلمين والإستحواذ على نتائجه المادية والمعنوية وحرمان المجاهدين من كل فضل، ثم إدانتهم

وتدمير قضيتهم بعد ذلك وهو ما حدث فعلا.

الثاني: ترويج السلاح الأمريكي تجاريًا عبر حملة دعاية وإستغلال قضية كانت في قمة الإهتمام العالمي شعبيا ورسميا لأكثر من عشر سنوات.

وغني عن الذكر أن تجارة السلاح تأتي على قمة الموارد بالنسبة للخزينة الأمريكية، بعد تجارة المخدرات الدولية و تجارة النفط. إن أي سلاح مهما كان حديثا وفعالا لا يمكن له أن يحل محل المعنويات المنهارة والعزائم الخائرة.

إن التدريب والسلاح الحديث والإداريات الجيدة من طعام وملبس وغيرها كلها عوامل تحسن الوضع المعنوي للجندي أو المجاهد، ولكنها أشياء عابرة ومؤقتة والشيء الأساسي في أي حرب هو ذلك الإعتقاد والإيمان الذي يدفع الشخص كي يبذل كل ما يملك في ساحة القتال، ذلك هو السلاح الحاسم الحقيقي في كل حرب منذ بداية الخليقة وحتى قيام الساعة.

....

في مركز مولوي عبد الرحمن، في تلك الأيام الأولى من بدايات صيف ١٩٧٩، كنت وصديقي أحمد نمتلك نصف عدد البنادق الآلية في المعسكر. ومع الآخرين سبعة بنادق إنجليزية قديمة.

(السيد أحمد) رامي الهاون السلاح الرئيسي للجماعة كان بلا سلاح شخصي.

إن قيمة القنابل التي ألقتها طائرات العدو على مركزنا في غارتها الأولى تفوق في قيمتها المادية جميع محتويات المركز من سلاح وذخائر وطعام وألبسة. وهذا وجه آخر للإستنزاف الذي واجه الروس.

ولا بد من إدراك أن سلاح الجو مكلف جدا من الناحية المادية ومن علامات نجاح المجاهدين هو إرغام سلاح الجو على العمل المستمر لاستنزاف عدوهم اقتصاديا ونفسيا. وفي ظني أن أكثر الطيارين الشيوعيين الذين شاركوا في الحرب الأفغانية قد تم تحويلهم أو تحويل من بقي على الحياة منهم إلى مستشفيات الأمراض العقلية.

لقد إستهلكت القيادة الشيوعية طياريها بجنون وفي الواقع لم يكن هناك أكثر أمنا من الطيارين أثناء العمليات، فتحملوا مزيدا من العبء نيابة عن زملائهم الذين يلاقون الهلاك على الأرض.

أصبح مركزنا تحت ضغط مستمر من نيران العدو الأرضية، ودوريات الطيران التي لا تكف عن الزمجرة فوقنا والقصف قريبا منا. فقرر "مولوي عبد الرحمن" ترك المركز وخرج في رحلة إستطلاع إستغرقت يومين إنتخب فيها موقعا جديدا. ثم جاء إلى المعسكر وأرسل بعد ذلك بعض الرجال لحفر مغارة في الموقع الجديد.

وكانت تلك هي المغارة الأولى التي نشاهدها في الخط الأول في أفغانستان، وربما كان مولوي عبد الرحمن هو صاحب الفكرة الأولى في هذا المضمار على مستوى البلاد كلها.

لقد كان الرجل يتمتع بموهبة تكتيكية مشهود بها، إلى جانب صلابته العقائدية التي أكدتها المواقف الصعبة.

لقد كانت المغارة بسيطة وساذجة التصميم ولكنها أدت دورا في حماية تلك العصبة الصغيرة كما أنها كانت مدخلا لبداية فن الحفر الذي تطور إلى أشكال ممتازة ومحكمة في مرات كثيرة.

وقد كان للحفر دور بارز في معركتين هامتين على مستوى الحرب الأفغانية وهما معركة خوست ومعركة جاجى وهو ما سنذكره في الفصول التالية بإذن الله.

في معركة جاجي الشهيرة، وهي أول عمل عسكري كبير يقدم العرب به أنفسهم على الساحة الأفغانية كانت عمليات الحفر التي قام بها أبو عبد الله أسامة بن لادن بغرض تدعيم مراكز المجاهدين الدفاعية، كانت عمليات الحفر هذه سببا رئيسيا من أسباب نشوب تلك المعركة.

أما في خوست فكانت عمليات الحفر أحد الأسباب الهامة في نجاح عمليات العرب ضد مطار خوست عامى ١٩٩٠ و ١٩٩١،ثم فتح المدينة.

٩.٠٤ مع السلاح الثقيل

وقد لاحظنا أن عمليات الحفر سواء كانت لإنشاء مغارات أو خنادق هي من أشق الأعمال على نفس المجاهدين أفغانا وعربا وقليلا ما فعلوها بأنفسهم. فقد كانت من الأعمال المخصصة للأسرى أو الجنود الفارين من خدمة الجيش، حيث يسخرهم المجاهدون لقضاء فترة تجنيد إجبارية في مراكزهم لخدمة المراكز أو لحفر الخنادق والمغارات.

ولم تلبث أن ظهرت فرق المحترفين لأعمال الحفريات وكانت أشبه بشركات مقاولات مصغرة تقوم بالحفر على نظام المقاولة بالقطعة. وأكثر تلك الفرق كانت من أبناء ولاية - وردك- الذين برعوا في ذلك الفن، إلى جانب تنظيم أعمالهم الإدارية وشئونهم العمالية حتى كونوا ما يشبه جيش الحفريات، المكون من مجموعات معظمهم من الأقارب. وجميع المجموعات متعارفة فيما بينها ومتعاونة أيضا.

وفي أيام فتح مدينة خوست، وقبل العمليات بأيام فلتت أعصاب نجيب الله وئيس النظام الشيوعي ووجه حديثا مباشرا إلى تلك المجموعات العاملة في حفريات المجاهدين في خوست وقال لهم:

إن غاراتنا الجوية على مواقع الأشرار في خوست لم تعد تجدي بسبب تلك المغارات القوية التى حفرها أبناء الجرذان من ولاية وردك. وإني أدعوا هؤلاءإلى ترك عملهم في خوست والإنضمام إلينا وسوف ندفع لهم ما يشاءون من الأموال.

ولعلنا ندرك ماذا يعني تحييد قدرة سلاح جو متطور بواسطة عمل بدائي غير مكلف مثل حفر بعض مغارات في الجبل. وماذا يعني السيطرة على مرتفعات ومضائق هامة بواسطة عدد من الخنادق الجيدة. إن الطرف الأضعف عسكريا في حاجة دوما إلي مزيد من الحفريات وقد قال الحكيم الصيني صن تسو منذ أكثرمن ألفي عام: إذا كنت ضعيفا فأحفر عميقا في باطن الأرض وعندما تصبح قويا إهجم من أعلى كأنك عقاب.

ويمكننا القول بأن الحفريات تعيد جزءا من التوازن المفقود بين الضعيف والقوي وكان في أفغانستان برهان جديد لتلك الحقيقة القديمة جدا.

....

مع السلاح الثقيل:

لقاءاتنا الأولى مع السلاح الثقيل لا تنسى. وهو ثقيل بالنسبة لإمكانات النقل والقوة العضلية لدي المجاهدين، وليس بالعرف العسكري التقليدي الذي لم تكن له قيمة كبيرة في أفغانستان.

كانت أول أسلحة شاهدناها قيد الإستعمال هي الأسلحة المضادة للطائرات. وكان أولها في مركز مطيع الله في زيروك وقد شاهدناه في حالة تطفيش لطائرات نفاثة متسكعة قرب المعسكر. وكان مدفعا روسيا من الغنائم عيار ١٤.٥ مم

ويشتهر بين المجاهدين باسم زيكوياك وقام العسكريون الأفغان الفارين بتدريب إخوانهم المجاهدين على استخدامه.

وكذلك الحال بالنسبة لباقي الأسلحة التي سوف نذكرها هنا حيث أن باكستان لم تكن قد قررت التدخل بعد، أقصد لم تكن الأوامر الأمريكية قد صدرت إليها كي تفعل ذلك. أما في مركز سرانا فقد شاهدنا مدفعا مضادا للطائرات وهو رشاش بلجيكي الصنع عيار ١٢.٦٧ مم صنع. خصيصا للمملكة الأفغانية حسب ما كتب عليه بالإنجليزية وسنة الصنع كانت ١٩٤١ كانت قدرة المدفع عمليا هي إطلاق رصاصتين، أما الثالثة فإنها تحشر في الماسورة ويحتاج الأمرإلى عملية صناعية لاستخراجها وتستغرق العملية عشر دقائق إذا كانت ميسرة.

ولقد شاهدنا (بادشاه) وهو المجاهد المسؤول عن الدفاع الجوي في سيرانا وهو يشتبك عدة مرات مع الطائرات تحت هذه الظروف. وبالطبع كنا حريصين جدا على أن لا نكون إلى جانبه في أمثال تلك الإشتباكات، خاصة وأنه يمضي معظم وقت الإشتباك وهو يخرج الطلقة المحشورة في مدفعه، ومن جهة ثانية فإنه رفض رفضا قاطعا إستخدام موقع جهزناه للمدفع وأحطناه بالصخور وغصون الأشجار للحماية والتمويه، ويبدو أنه إعتبر ذلك إنتقاصا من شجاعته.

لقد استشهد "بادشاه" في معركة جاور. وهو الرجل الوحيد الذي رأيته في حياتي ولم يكن للخوف مكان في قلبه. لقد إنهار النظام الشيوعي في كابل في ديسمبر ١٩٧٩ ولم يكن في كل ولاية باكتيا الإستراتيجية سوى هذان المدفعان للعمل ضد سلاح الجو الشيوعي المكدس بالطائرات الحديثة. وربما كان ذلك ردا على أمريكا التي تزعم أن إنتصار المسلمين في أفغانستان إنما كان بفضل صواريخ

ستنجر التي دفعت عنهم الطيران السوفييتي وحيدت دوره.

كان السلاح الثالث الذي شاهدناه في حالة إشتباك هو (هاون السيد أحمد (وقد مر علينا إسم "السيد أحمد" رامي الهاون في مجموعة مولوي عبد الرحمن. وعلى يد الرجلين تلقيت بعض الدروس التي أفادتني طول مدة الحرب. كما أنها ظلت مستخدمة بين المجاهدين على نطاق واسع.

أول هذه الدروس تأخير وقت الإشتباك إلى قرب غروب الشمس حتى لا يعطي الطيران فرصة في التدخل ضده. الدرس الثاني كان إختيار الأهداف ... فقد كان سيد أحمد يتناقش سبقا مع قائده عبد الرحمن في تحديد الأهداف التي سيوجه إليها نيرانه أثناد العملية. الدرس الثالث كان إقتصاد الذخيرة، فقد كان لكل هدف طلقة واحدة ولم نسمع يوما أن سيدأحمد قد أخطأها. بقي أن نعرف أن سيد أحمد كان مختصا في سلاح الهاون أثناء خدمته في الجيش الأفغاني وقبل أن يفر من وحدته ويلحق بالمجاهدين. وقد أخذ معه سلاحة الهاون عيار ٨٢ مم وظل يستخدمه أثناء إلتحاقه بالجهاد. والغريب أنه يقصف وحدته العسكرية المستحكمة في قرية دارا.

ومن هذا نفهم لماذا لم يكن يخطئ الهدف أبدا فهو إلى جانب مهارته الفنية يحفظ تماما مواقع الأهداف ومسافاتها. ونفهم أيضا لماذا يناقش إختيار الأهداف مع

قائده وكان يصر على عدم قصف خيام الجنود، وكان دائما يقول:" إنهم ليسوا شيوعيين وقد كنت بالأمس واحدا منهم، وكلهم ينتظر الفرصة للإلتحاق بإخوانه المجاهدين ولكن الضباط الشيوعيين يحرسونهم جيدا ويقتلون فورا كل من يشكون في نواياه من الجنود".

لقد ظل المجاهدون طوال مدة الحرب يفرقون بين الجندي الأفغاني المغلوب على أمره وبين الضابط الشيوعي الذي يأمره ويتحكم فيه بل ويستعبده.

وكل هؤلاء الجنود تقريبا كانوا من مزارعي الأرض في مناطق أفغانستان الناطقة بالفارسية.

وكان ذلك ضمن مخطط إشعال الكراهية بين القوميات التي يتركب منها المجتمع الأفغاني، فالجنود والضباط في كل قومية يقاتلون في مناطق القوميات الأخرى أما الضباط الشيوعيون الحزبيون فإنهم يقاتلون في كل مكان لأنهم يكرهون الجميع لقد إستشهد السيد أحمد بعد ذلك بعدة أشهر بواسطة قذيفة مدفعية من العدو هبطت لتأخذ أحمد فقط ولم تعقبها قنابل أخرى.

ما زلت أعتقد أن ذلك الشاب هو نموذج للمجاهد المثالي خلقا وعملا. وكونه من السادة أي سلالة تنتهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو أمر لا أرفضه أو أقبله من أي شخص بسبب صعوبة الإثبات أو النفي في معظم الحالات. ولكن سيد أحمد كان سيدا نبيلا بكل معاني الكلمة. كان هادئا دمث الطباع محبوبا من الجميع متواضعا. يتصرف بثقة من تعود على السيادة والقيادة. هذا عن أخلاقه أما مهنيا فلم أر مثله في أفغانستان، من عرب أو عجم، شخصا يعشق سلاحه ويهتم به كما تهتم الأم بطفلها الرضيع. لقد حفر مغارة خاصة صغيرة

لمدفعه وذخائره القليلة. أما بطانيته التي ينام عليها فكان يخصصها لتغطية ماسورة المدفع التي ينظفها يوميا من الأتربة، عدا التنظيف الحتمي بعد الإشتباك والرماية، وأثناء التحرك بالسلاح إذا أمطرت السماء فكان يتخلى عن ردائه "البآتو" كي يلف به الماسورة حتى لا تطالها الأمطار، أما هو فلن يصدأ إذا تبلل جسده بالمطر ولفحته الرياح.

عن إستخدام الهاون فقد رأيت قلة من الأفغان وبعضا من العرب، إستخدموا هذا السلاح بدقة مدهشة كانت مؤثرة جدا في نتائج الإشتباكات مع العدو. وأذكر منهم "خان ولي" ذلك المجاهد الذي تحول إلى أسطورة ودخل اسمه في الأهازيج الشعبية وهو من جماعة جلال الدين حقاني، وقد بترت قدمه وما زال حيا يرزق. ومن العرب رأيب يحيى المصري (¬١) وأبوهمام الصعيدي (¬٢) * وكان

¬__________

(¬١) يحى المصرى: ناسك يقيم فى الخط الأول شهورًا لا يخرج منه إلا بالقوة ليحصل على الراحة. من أبرع العرب فى استخدام الهاون والمدافع عديمة الإرتداد. تزوج وأقام فى كابول حتى دهمته الحرب الامريكية. ومصيره مجهول.

(¬٢) همام الصعيدى: له مواصفات يحى مضافا اليها موهبة محارب العصابات المغرم بالمراوغة التكتيكية - بعد نهاية الحرب اعتقل فى الامارات وتم تسليمه الى مصر. ومصيره مجهول. ترك فى افغانستان زوجة وطفلة فى التاسعة مصيرها مجهول. يحى وهمام شاركا

فى حملة فتح مدينة خوست ضمن قوة عربية مهمتها منع العدو من الاستفادة من مطار المدينة الذى كان شريان الاتصال الوحيد مع الخارج - تكللت العملية بالنجاح رغم خطورتها الاستثنائية.
لهما مآثر لا تحصى على الهاون وبعض قطع المدفعية الأخري. وكلاهما مازال حيا يرزق أيضا. وسوف يرد ذكرهما عند الحديث عن حملة فتح مدينة خوست.
*
وبالنسبة لدور المدفعية في حرب أفغانستان من طرف المجاهدين، ذكرنا تلك القيود التي فرضتها عليهم باكستان بهدف التحكم في وتيرة الحرب الأفغانية بما يتفق مع المصالح الأمريكية أساسا، وتنافس أمريكا مع السوفييت على الأرض الأفغانية لبسط مزيد من النفوذعلى الإقليم كله الذي تعتبر أفغانستان بموقعها الإستراتيجي مفتاحه الأساسي.
كان قليل من المجاهدين يستطيعون إستخدام قطع المدفعية بكفاءة. أما صيانة قطع المدفعية وحتى نظافتها فكانت مأساوية.
ومن ناحية تكتيك إستخدام المدفعية فكان شبه منعدم باستثناء التكتيكات الرديئة والفاسدة التي كان ينصح بها ضباط الإستخبارات الباكستانية عندما بدأ عهدهم المظلم في الجهاد على أرض أفغانستان.
إن حرب العصابات في مرحلتها الأولى، لا يحتاج فيها المجاهدون إلى إستخدام الأسلحة الثقيلة، وبالذات قطع المدفعية والدبابات وذلك لصعوبة نقلها وصعوبة الحصول على الذخائر اللازمة أو أطقم التشغيل من الفنيين أو الدفاع عنها ضد هجمات العدو المتفوق والمجهز جيدا بالمعدات الحديثة.
فأهم متطلبات المجاهدين في مرحلتهم الأولى هي حرية الحركة وسرعة المناورة، والضرب والإختفاء السريع وتفادي التطويق والإبادة من جانب قوات العدو.
وإذا كان من الممكن بسهولة نسبية الحصول على كميات كافية من الأسلحة بأنواعها من أيدي العدو، فإن الحصول على الذخائر لتلك الأسلحة أشد صعوبة. وطول مدة الحرب تبقى مشكلة الحصول على الذخائر الكافية هي مشكلة عسيرة الحل. لهذا من الضروري للمجاهدين إستخدام ذخائرهم بحكمة بالغة وتخطيط عملياتهم بعناية بحيث يحصلون من عدوهم على أكبر قدر من الذخائر.
وقد رأينا في أفغانستان كيف تحكمت أمريكا بمساعدة عملائها من باكستانيين وعرب أن تسيطر على أحزاب الجهاد وذلك بواسطة التحكم في كميات الأسلحة ونوعها ونسب توزيعها بين الأحزاب، وعلى مختلف المحافظات الأفغانية، بما يضمن شراء ولاء التنظيمات والزعامات السياسية وحتى تمكنوا من السيطرة على كثير من القيادات العسكرية في الجبهات (القادة الميدانيين). وتحكموا إلى درجة كبيرة في مسار الحرب وتوجيه العمليات.
وعلى الجانب السياسي صادروا مسار القضية الأفغانية سياسيا لمصالح أمريكا في المنطقة والعالم.
وعن طريق قطع إمداد الذخائر أو تقليله أو زيادته أو إدخال أنواع بعينها وحجب أنواع أخرى تحكموا إلي درجة مفجعة في العمل العسكري.
ولا ننسى بالطبع تدخل ضباط الإستخبارات العسكرية في العمل العسكري الميداني وتحكمهم فيه وكانوا هم المشرفين على توزيع المعونات العسكرية والمالية على التنظيمات والقيادات الميدانية حتى صاروا في وقت من الأوقات
ولفترة طويلة حتى نهاية الحرب هم الطرف الأقوى في قيادة العمل العسكري وتوجيهه. ومع ذلك لم تكن تلك السيطرة تامة بل تمكن المجاهدون المخلصون أحيانا من النفاذ خارج هذا الطوق الشيطاني وتحقيق بعض الضربات الخطيرة
بنتائجها العسكرية والسياسية وذلك أسفر في نهاية المطاف عن سقوط النظام الشيوعي على عكس الإرادة الأمريكية والباكستانية والعملاء العرب الآخرين.
وفي مرحلة حرب العصابات الثانية ثم مرحلتها النهائية الثالثة تبرز أهمية الأسلحة الثقيلة وتشتد الحاجة إليها وإلى ذخائرها وإلى تكتيكات مناسبة لاستخدامها في العمليات.
ومع هذا فإن الهاون عيار ٨٢ مم أثبت في أفغانستان وفي مرحلة حرب العصابات الأولية أنه سلاح مؤثر ومرن وعظيم الفعالية، وكان) السيد أحمد (أول من أثبت لنا ذلك. ورغم أن العدو كان يمتلك عشرات من الأسلحة الثقيلة التي شاركت في الرد على السيد أحمد إلا أن الذعر الذي ركب ضباط العدو دفعهم إلى طلب مساندة الطيران في كل مرة. في البداية إستخدموا الطائرات النفاثة ثم

تحولوا إلى الهيلوكبتر. ودفع ذلك السيد أحمد وقائده عبد الرحمن إلي إختيار اللحظات القاتلة قبل الغروب لتوجيه ضرباتهم في الوقت الميت الذي لا يستطيع الطيران أن يكون فيه فعالا.

لقد كان الهاون المتوسط ٨٢ مم والهاونات الثقيلة ١٢٠ مم والشهيربالغرناي شديد الفعالية لدي العدو وأوقعت إصابات كثيرة بالمجاهدين خاصة في القصف العشوائي علي مراكزهم الثابتة أو التي تم إكتشافها، أو في حالات هجوم المجاهدين بأعداد كبيرة وغير مرتبة في تقدمها مما يسهل إصابتها بالهاونات. وكل هذه الحالات تعتبر أخطاء تكتيكية للمجاهدين. ولكنها تكررت كثيرا حتى لحظات الحرب الأخيرة.

فلم يطبق المجاهدون تكتيكات المشاة بشكل جيد. وسبب لهم ذلك خسائر ثقيلة في الأرواح وأجهضت الكثير من مشاريع هجومهم على العدو.

ونشير هنا إلى الدور الكبير الذي تلعبه تضاريس الأرض الجبلية إلى جانب المجاهدين في حالتين، الأولى حالة إختيار مكان مناسب للرماية على العدو بواسطة قطع المدفعية عامة والهاونات خاصة، وحتى بدون حفريات أو تحصينات، وهي الأعمال التي ينفر منها المجاهدون كما ذكرنا. والحالة الثانية توفير حماية من القصف المعاكس من جانب العدو سواء بالمدفعية أو الهاونات خاصة أو الطيران. فقد تنفجر القنابل قريبا جدا من المجاهدين بما يعتبر إصابات مباشرة مؤكدة ولكن إختلاف منسوب الأرض إرتفاعا أو إنخفاضا يذهب بتأثير الإنفجار والشظايا. ورغم أن الهاون الثقيل "الغرناي" أبعد مدى وأكبر عيارا إلا أنه أثبت أنه سلاح معوق ولم يكن مجديا بشكل عام لدى المجاهدين وليس لدى الحكومة التي كانت تستخدمه بفعالية وكفاءة والسبب أنه سلاح ثقيل تصعب المناورة به

كما أن قذائفه قليلة لدي المجاهدين سواء من الغنائم أو من الإمدادات (المبرمجة) التي تأتي بها الإستخبارات الباكستانية.

وظل الهاون ٨٢ مم الوسط نجما بين أيدي المجاهدين حتى نهاية الحرب.

وهذا السبب الذي دفع أمريكا إلى إرسال كميات كبيرة من ذخائر هذا امدفع إلى المجاهدين كان من بينها الكثير من القذائف المفخخة والتي أودت بحياة العشرات من خيرة المجاهدين العرب والأفغان وهو ما سيأتي ذكره في موضع آخر.

وخلاصة القول أن هذا المدفع هو سلاح فعال في حرب الجبال وفي جميع مراحلها سواء على جانب المجاهدين أو إلى جانب جيوش أعدائهم.

تمكن المجاهدون في أواخر مرحلتهم الأولى من حرب العصابات من الحصول على قطع دفعية ثقيلة، وبعض الدبابات وأتاح لهم ذلك مستفيدين من طبيعة الأرض الجبلية الوعرة وسيطرتهم عليها بإحكام في بعض المناطق خاصة في باكتيا من توجيه ضربات مدفعية في العمق إلي المدن. وأدى ذلك إلي نتائج بعضها إيجابي وبعضها سلبي.

فقد إهتزت هيبة الحكومة المبنية على قدرتها على الدفاع عن السكان وإدعائاتها بالقضاء على الأشرار المجاهدين، وأجبرتها على القيام بحملات عسكرية لتدمير تلك المدافع والمجموعات العاملة عليها. وكانت تلك الحملات باهظة التكاليف تافهة النتائج، وينتج عنها غالبا وقوع الكثير من الأسرى والغنائم وتسليح المجاهدين بالمزيد من المعدات الثقيلة.

أما نتائجها السلبية فكانت عدم دقة الرمايات والتي تصيب غالبا بيوت المدنيين. ونتج عن ذلك مشاعر معادية للمجاهدين، وتزايد تيار الهجرة. وكلا العاملين أضعف العمل الجهادي داخل المدن، وكان ذلك من أبرز سلبيات العمل الجهادي في أفغانستان. إذ كانت للحكومة على المدن خاصة الرئيسية منها سيطرة شبه كاملة، وكانت العمليات الداخلية فيها قليلة وتنتهي فى الغالب بخسائر فادحة للمجاهدين القائمين عليها سواء بالإعتقال أو القتل.

ودفع ذلك المجاهدين إلى الإعتماد أكثر وأكثر على القصف البعيد. حتى خلت المدن الهامة من السكان إلا من المتعاونين تماما مع العدو، أو المستفيدين ماديا من الوضع القائم أو عديمي الحيلة الذين لا يستطيعون سبيلا، إذ توفر لهم الإقامة في المدن المأوى والطعام اللذان تساعد الحكومة في توفرها لضمان ولاء السكان.

لذلك كانت شبكات التجسس الحكومية في تلك المدن رهيبة من حيث الكثافة والدقة. وقد صدرت الحكومة ما لا يحصى من الجواسيس إلى المناطق التي يسيطر عليها المجاهدون. بل واخترقت معظم المجموعات العاملة عسكريا بواسطة هؤلاء الوافدين من المدن

للتطوع فيها، بل حيدت آلافا من سكان المناطق الجبلية.
أما فى بيشاور حيث التكدس غير المنضبط لمكاتب المجاهدين ومئات الآلاف من المهاجرين من شتى أرجاء البلاد. فكانت مرتعًاخصبًا ومجالا خطيرا إمتدت إليه حرب الإستخبارات وأحرز فيه الشيوعيون الروس والأفغان إنتصارات مخيفة.

٩.٥ 15 طلقة فى سبيل الله

١٥ طلقة فى سبيل الله
لم تعد الحرب كما كانت في قديم الزمان يوم كان القتال رجلا لرجل، فالأسلحة الحديثة جعلت الناس يتقاتلون بدون أن يرى بعضهم بعضا في معظم الأحوال. وإذا كنت مجاهدا في إحدى حروب العصابات فإنك سوف تعاني كثيرا من ذلك الوضع.
فأنت سوف تتعرض كثيرا للمهالك بدون أن تتاح لك الفرصة لمشاهدة وجه عدوك أو تتاح لك الفرصة كي تعامله بالمثل إلا عندما تتقدم بك الحرب إلى مراحلها التالية وتقع في حوزتك بعض الأسلحة الثقيلة ومع هذا فسوف تعاني حتى نهاية حربك المظفرة بإذن الله من ذلك الشعور بالعجز والإحباط الذي ينتابك من وقت لآخر من جراء قصف الطيران المفاجئ بغاراته العنيفة بدون أن تملك لها دفعا، أو قصفا مدفعيا أو صاروخيا لا تدري ماذا تفعل إزاءه سوى أن تتوارى في أية حفرة أو كومة من الصخور.
وإذا لم تصب أو يصب أحد إخوانك فإنك لا تلبث أن تشعر بالفرح والأمل وبأنك سوف تنتصر رغم كل شيء. أما إذا أصيب أحد إخوانك أو قتل فسوف ينتابك شيء من الحزن والوهن يستمر معك فترة على قدر قوة إرتباطك بالمصاب وعلى قدر إمتصاصك للصدمات وهي إمكانية تختلف من شخص إلى آخر.
ولكن عند زوال الحالة فسوف يكون عسيرا عليك للغاية أن تتخلي عن تلك الحرب حتى تقتل مثل زميلك أو تنتصر على عدوك والأغلب أنك سوف تشهد ساعة الإنتصارلأن نسبة عدد الشهداء إلى إجمالي عدد المجاهدين طوال الحرب يعتبر نسبة قليلة على عكس ما يتصور البعض.
ولو كان الشهداء في أمة الإسلام هم هؤلاء الذين يسقطون في ساحة القتال فقط لكان عدد الشهداء في هذه الأمة قليلا كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم.
عليك إذن التحلي بالصبر فهو الصفة الأولى في المقاتل المنتصر والحرب صبر ساعة كما قال رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.
في البداية، بأسلحتك البدائية ذات المدى القصير لا بد أن تبذل مجهودا كبيرا حتى يصبح العدو في مرمى نيرانك لتقتله. أما هو فيستطيع قتلك وهو على بعد عشرات بل مئات الكيلومترات.
لقد تعرضت مع زميلي أحمد للقتل مرات عديدة قبل أن نطلق طلقاتنا الأولى والقليلة في سبيل الله.
وكان علينا أن نصبر أكثر وأكثر على نيران العدو المضادة التي لا تتناسب مطلقا مع طلقاتنا لا من حيث العدد أو من حيث العيار، ولا من حيث المدة التي إستغرقها الإطلاق.
في رحلتنا الأولى تلك أطلق كل منا خمسةعشر طلقة فقط على وجه التقريب فى عمليتين مختلفتين.
في العملية الأولى أطلق كل منا عشر طلقات فقط وعلي مدى نصف دقيقة فقط، ورد علينا العدو بالهاونات ثم بالمدفعية الثقيلة ثم بالهيلوكبتر ثم بالطائرات النفاثة وعلى مدى ثمان ساعات!!.
وفي المرة الثانية أطلق كل منا خمس طلقات ورد علينا العدو بكل ما يمتلك من أسلحة رشاشة خفيفة ومتوسطة ثم بالهاونات من العيارات المتوسطة والثقيلة وعلى مدى ثلاث ساعات فقط.
وهذه ملاحظة أخرى ثابتة على طول مدة الحرب في الأغلبية العظمى من الحالات.
وهي عدم التناسب بين الفعل من جانب المجاهدين ورد الفعل من جانب العدو. والسبب الأساسي في ذلك هو حالة الرعب التي تنتاب العدو، وهي حالة يصعب تفسيرها ماديا أو حتى باستخدام علم النفس.
وقد دار مؤخرا حديث بيني وبين أحد إخواننا العرب المطاريد من حولنا وكان الحديث حول ما جاء من نصرة الله للمسلمين في غزوة

بدر حيث كلف الله الملائكة (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)، وهذا هو تنكيل الملائكة بالكفار أثناء الغزوة. أما التنكيل الإلهي فجاء في قوله تعالى (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) إن إلقاء الرعب في قلوب الكافرين هو من عمل الله سبحانه وتعالى المباشر وليس من مهام الملائكة. ولقد رأينا في أفغانستان ورأى قبلنا المجاهدون منذ بدر حتى الآن، وسيرى المجاهدون القادمون بعدنا ذلك التأثير الساحق والمدمر للرعب الذي يقذفه الله في قلوب الكافرين قبل وأثناء وبعد المعركة. ومهما قلت إصاباتهم أو كثرت.
إن النصرة الحقيقية للمسلمين على الكافرين تأتي بعاملين

١) الصبر من جانب المجاهدين وهذا هو مهمتهم الأولى والتحدي الأكبر أمامهم

٢) الرعب الذي يلقيه الله في قلوب الكافرين فيعصف بهم ويدمر بنيانهم.

وكلا العاملين مرتبط بالآخر طرديا فكلما زاد صبر المجاهدين تزايدت كمية الرعب التي تزلزل قلوب الكفارين. وكلما تزلزلت صفوف الكافرين زاد صبر المؤمنين.

والصبر شاق جدا على النفس، الصبر على المشقة والأخطار وطول النزال، وترقب ساعةا لنصر، وكثرة المصائب في الأموال والأنفس والثمرات.

وهذا كله لا شيء بجانب الصبر على النصر نفسه. وهذا ما رأيناه في أفغانستان، فمعظم الأبطال الذين صمدوا السنوات الطوال وكانوا أساطير في البطولة والثبات والصبر، عندما فتحت المدن والأمصار وأقبلت الدنيا طاروا إليها وركبوا إليها كل مركب ولو على أنهار من دماء إخوانهم.

ولو بارتكاب المعاصي والمحرمات والكبائر، ولو بنكران العهود وممالأة الكفار، وهجران المسلمين والأنصار والإنقلاب عليهم. كما حدث بين العرب المجاهدين وقادة الأحزاب وأعوانهم عندما جحدوا إخوانهم العرب وتنكروا لهم وظاهروا عليهم اليهود وأهل الصليب.

هناك نوع ثالث من الصبر أعتقد أن زمانه قد إنتهى وهو الصبر على المجاهدين الأفغان عند العمل معهم. لهذا الصبر أوجه كثيرة، لكن ما يعنينا هذا هو الجانب القتالي للعمل.

فرغما عن أية خطة ومهما كان القائد متمكنا من عمله فإن الجماعة من المجاهدين ما أن تتحرك نحوالهدف حتى يتحكم بها العقل الجماعي. (٦-١).

في العام الأول لم نشاهد جهاز لاسلكي واحد قيد الإستخدام رغم أن عددا منها كان من ضمن الغنائم. ولكن الوضع تحسن كثيرا بعد تدويل القضية وبالذات عندما تكثف التواجد العربي، وللعرب الفضل الأكبر في تزويد المجموعات القتالية من الأفغان بأعداد كبيرة من أجهزة اللاسلكي الصغيرة. وأدى ذلك بالطبع إلى تحسين درجة السيطرة على المجموعات بواسطة قيادتها وإن كانت درجة السيطرة ظلت أقل من المستوى المطلوب. أي أن) العقل الجماعي (ظل متواجدا رغم خفوت حدته.

كان لقاؤنا الأول مع) العقل الجماعي (غير سار بالمرة. فقد فوجئنا في عصر أحد الأيام بخروج جميع أفراد معسكرنا بدون سابق إنذار، وحتى بدون أن يخبروني وصديقي، بتحركهم صوب قرية دارا.

تعجبنا من الأمر وخرجنا من شعبنا الصغير لنستطلع الأمر فوجدنا أعدادا كبيرة من المجاهدين لا ندري من أين أتوا وإلي أين يسيرون وجميعهم متوجه بالخطوة السريعة نحو قرية دارا تعرف علينا أحد الشباب وكان يتكلم العربية بصعوبة وأشار بسبابته في إتجاه القرية وقال (جنك شروع (أي أن الحرب سوف تبدأ.

توقفت وصديقي في إرتباك: ماذا ينبغي أن نفعل؟ إذا تحركنا معهم كان تحركنا بلا أمر، مع أناس لا نعرفهم نحو هدف لا ندري ما هو. وإن نحن بقينا في المعسكر كان منظرنا مخزيا فقد سار الجميع نحو "الجنك" وقعدنا نحن من الخوالف.

قررنا المسير مع العقل الجماعي وما هي إلا بضع مئات من الخطوات صوب القرية وسط تجمع ذكرني بنفرة الحجيج في أيام التشريق، حتى لعلع رشاش ثقيل يصب حممه بين صفوفنا بطلقات متفجرة، إنفجرت إثنتان منها على مسافة ليست بعيدة عن قدمي اليمني، لم أدر تماما أين يوجد ذلك الرشاش ولكن إرتميت إلى الجانب الأيسر محتميا ببعض الصخور.

نظرت حولي فإذا الجميع قد إختفوا يحتمون بالصخور جاء صديقنا الجديد وأشار إلينا أن نتبعه وصعد بنا تلا صغيرا ثم إنحدر إلى مكان

حصين بين صخور ضخمة وعنده نبع ماء.
توالت إنفجارات قذائف هاون العدو، ونحن نسأل صديقنا عما يجب أن نفعله وعما ينوي المجاهدون فعله ولكنه لم يجب بشيء يفيد.
إستمر الحال كذلك حتى غروب الشمس وتوافد على موقعنا حوالي عشرين مجاهدا فصلينا المغرب جماعة ثم عدنا إلى مركزنا والجميع يتسامر ويضحك ونحن نتساءل في بلاهة: ماذا حدث؟ ... ماذا حدث؟ ... فرد علينا الزملاء ببساطة (جنك جنك!!.)
سألني صديقي: هل فهمت شيئا؟ فأجبته بأنني مثل الأطرش في الزفة.

(¬١) ورغم عدم معرفتي الدقيقة بمعنى هذا المصطلح، ولكنني أحاول عن طريقه أن أتفادى مصطلحا آخر وهو -روح القطيع- لأنه قد يعطي دلالات غير مقصودة أنظر الكتاب الثالث من سلسلة آدب المطاريد: معركة جلال آباد، أو، حرب المعيز.

واستمرت تلك المعاناة عدة سنوات، حتى قررنا أن نعمل بصورة شبه مستقلة. بل أن بعض العرب عملوا في مراحل لاحقة بصورة مستقلة تماما ولكن علي مستوى الإشتباكات المحدودة.

ولهذا قصص أخرى ... في مركزنا الجديد كنا في موقع يهدد مدخل دارا من الشمال حيث الطريق القادمة إليها من عاصمة الولاية جارديزالواقعةعلى مسافة خمسة عشر كيلومترا تقريبا
وكان موقعنا الجديد أكثر خطورة على الحامية العسكرية بالقرية لأنه يهدد طريقها الرئيسي للإمداد والحركة.

وهذا ما بدأ به مولوي عبد الرحمن علي إثر تلقيه معلومات تفيد أن قافلة إمدادات عسكرية في طريقها من جارديز إلى دارا، وأن القافلة قد تحمل معها أموالا كرواتب لأفراد القوة وضباطها.
وكان موعد تحرك القوة هو اليوم التالي عصرا أو صباح اليوم الذي يليه. تحركت مجموعتنا بسرعة في صباح اليوم المحدد على أمل أن تكمن للقافلة القادمة عصرا.
وصحبتنا مجموعة أخرى من المجاهدين كانوا على مسافة غير بعيدة فإنضموا معنا في نفس البرنامج.
ركبنا سلسلة التلال المشرفة على الطريق والتي تبعد عنه حوالي مائتي متر، فوجئت بأن مولوي عبد الرحمن قد وضع مدفعا قصير السبطانة بشكل مبالغ فيه ويتحرك على عجلات من خشب صغيرة جدا وله ساتر من الحديد لحماية الرامي. كان مظهر المدفع غريبا وبدائيا. سألت عن وظيفته فقالوا أنه ضد الدبابة. لم أر في حياتي مثل ذلك المدفع لا قبل ذلك الوقت ولا بعده، ومازال بالنسبة لي يمثل لغزا عسكريا يستعصي على الفهم.
لم تحضر القافلة واضطررنا لقضاء ليلة عل الصخور في البرد القارس في الصباح إصطحبنا "مولوي محمد سرور" مترجمنا في المركز إلى مواضع جديدة وأبلغنا بأن الأوامر تقضي بعدم إطلاق النار إلا عند سماع طلقات مولوي عبد الرحمن الذي تقدم صوب الشارع العام للهجوم على القافلة من مكان قريب بينما نقوم نحن وآخرون بالإسناد ومنع عساكر الحكومة من تطويق الجماعة المتقدمة.
في حوالي التاسعة مرت شاحنتان عسكريتان أظن الآن أنهما كانتا لجس النبض وسمعنا طلقة ثم طلقة أخرى وتساءلنا هل هي طلقات القائد أم لا. ولما لم نجد إجابة أطلقنا على الشاحنتين وأطلق آخرون ولكنهما إستمرتا في المسير حتى وصلا القرية وظل الموقف لنصف ساعة في هدوء قاتل، ونحن لا ندري ماذا بعد.
على أية حال قضينا باقي النهار حتى غروب الشمس تحت نيران لا ترحم من جانب العدو شاركت فيها جميع صنوف الأسلحة. وكان لقاؤنا الأول مع الهيلوكبتر التي زنقتنا في حفرة عميقة تتوسطها صخرة عالية وقد شك الطيار في الموضع وظل يحوم فوقه عدة دقائق بينما أنا وزميلي قد فقدنا النطق.
أما مولوي سرور فقد وضع طرف عمامته البيضاء ليخفي بها نصف وجهه ويطالع بعينيه مسار الهيلوكبتر العنيدة. لم أتمالك نفسي من الضحك لأني تصورت أن طاقم الهيلوكبتر يحمل معه صورة مولوي سرور للبحث عنه، بينما هو تحت الصخرة يضع قناعا على وجهه ليختفي عنهم. وعندما أخبرته عن سبب ضحكي إنفجر هوالآخر ضاحكا بصفاء نفس عجيب.
وما أن إبتعدت الهيلوكبتر لتصب نيرانها على تل قريب، حتي أطلقنا العنان لأرجلنا النفاثة، فهبطنا إلى مجرى جدول بجانبه جرف عال إختبئنا تحته باقي النهار لنحتمي من نيران النفاثات التي حضرت الإحتفال، ونيران مدفعيات العدو التي لم تهدأ إلا بعد أن غربت الشمس.

وكان أشق الأعمال علينا هو أداء الصلوات في ظل تلك الكربات والمحن، أما عن الطعام فقد نسيناه حتى وصلنا إلى المعسكر.
كان الجميع بخير وفرحنا بعودة مولوي عبد الرحمن الذي سرت إشاعة بيننا وقت الظهيرة بأنه قد حوصر. وكان الخبر غير صحيح كالعادة.
كما أن الطلقات التي سمعناها وقررنا على إثرها دخول المعركة لم يكن مصدرها مولوي عبد الرحمن، ولا يدري أحد مصدرها.
وقد قتل مجاهد من أحد المجموعات التي هرعت نحو مكان القصف كي تقدم المساعدة.
أما المجموعة الأخرى التي تحركت معنا فقد أصيب أحدهم بجروح سطحية وإن كان ثوبه قد تغطى بالدم، ولكنه كان بصحة جيدة ومرحا طول الوقت. وإنتهت بذلك أول تجربة قتالية جهادية لنا كأعضاء عاملين، وكان ذلك الكمين هو الأول بالنسبة لنا.
لم يحقق الكمين الهدف منه وهو إعتراض قافلة العدو، ولكن نجاتنا كانت معجزة حقيقية بعد أطنان القنابل التي إنهالت فوق رؤوسنا.
وفي كل مرة كانت النجاة هي الإنجاز الأكبر بالنسبة لنا حتى إنتهت الحرب على هذا الحال رغم أن كمائن أخرى كثيرة كانت أكثر نجاحا من حيث إيذاء العدو.
تناقص عدد المجاهدين في المنطقة فجأة. بسبب إقتراب شهر رمضان وبسبب رغبة بعضهم في حضور موسم حصاد القمح. وهذه إحدى القواعد التي ظلت ثابتة طول حرب أفغانستان، فإنه يمكن تأجيل كل شيء عند المجاهدين حتى الحرب ولكن المواسم والمناسبات الدينية فلا يمكن تأجيلها، ولا بد من قضائها مع الأهل.
وكانت لتلك القاعدة آثار مأساوية لا تحصى، فقد كانت تلك المناسبات هي مواعيد ثابتة أيضا للقوات الشيوعية كي تسترد ما فقدته أو أن تتوسع في مناطقها. وغالبا ما كانت تنجح في مسعاها ... ولكن بشئ من الصبر وبعض الشهداء والجرحى كان المجاهدون يستعيدون ما فقدوه!!.
قرر مولوي عبد الرحمن أن يهاجم العدو قبل أن يهاجمه العدو. وكنت خطته بسيطة ولكنها آتت ثمارها.
فقد أمر كل مجاهد أن يصعد منفردا على أحد التلال المشرفة على المواقع الحكومية في "دارا" ثم يرمي على الجنود خمسة طلقات لا تزيد وأن تبدأ العملية في وقت واحد قبل الغروب بنصف ساعة.
تم تنفيذ العملية بنجاح، ومعيار النجاح هنا هو ردع العدو عن الهجوم. وبالفعل لم يحاول أن يستغل فترة رمضان وعيد الفطر في توسيع نطاق دفاعاته أو التسلل إلي المنطقة وتلغيمها إلى آخر مشاريعه التخريبية. بالطبع شاركت مع صديقي المنياوي في تلك العملية ومعنا دليل من المجاهدين فكنا بذلك أكثر مواقع الرماية عددا. وقد تنبه العدو إلى ذلك بالطبع، فكانت نيران رشاشاته تزأر من فوق رؤوسنا تماما، وكنا نطلق نيراننا من خط الأفق فوق الجبل، وقد ساعد
ذلك العدو كثيرا على التسديد الدقيق علينا، ولكن الله سلم، ولم نكد نفرغ من طلقاتنا المقررة ونتراجع قليلا إلى الخلف ونتبادل الإبتسامات حتى بدأت قذائف الهاون تتساقط فوق القمة، وكالعادة في مثل تلك المواقف المحرجة، تركنا لأرجلنا العنان كي تتصرف بما يلزم.
وصلنا إلي صخرة ضخمة في مجرى سيل ضيق إرتمينا تحتها وتوافد إلينا آخرون من إخواننا.
لقد عاد الجميع سالمين وتوارت الشمس في المغيب، وظهر لنا هلال شهر شعبان فوقف الجميع يدعون الله ويطلبون النصر، وبكى آخرون من التأثر. تمنيت وقتها ألا أغادر ذلك المكان وألا يتحرك الهلال من موضعه، فلم يسبق لي أن رأيته بذلك الجمال.
هكذا كانت طلقاتنا الأولى في سبيل الله، وكنت قد إنتظرت سنوات طوال، بل عمري كله كي أطلقها. وكنت أظنها سوف تطلق في فلسطين، فشاء الله أن تكون في أفغانستان، ولم نكن نتصور أن تؤثر كلا القضيتين على الأخرى بهذا الشكل، وخاصة في تكوين الشباب المسلم في العالم العربي.
خمسة عشر طلقة فقط؟ ... كنت وصديقي نتساءل بدهشة. بعد كل هذا العناء لم نطلق سوى هذا العدد القليل من الطلقات، ولم يكتب لنا أن نشاهد ونشارك في نصر كبير على العدو.
وفي مقابل كل طلقة نطلقها تلقينا من العدو مئات القنابل وآلاف الرصاصات.
وتخيلنا أننا نتلقى من الضربات أكثر مما نوجهه للعدو. لم نستسلم للإحباط، وما أكثر دوافعه التي قابلتنا في هذا الطريق منذ ذلك الوقت

وحتى الآن.
تذكر صديقي حديثا شريفا يقول (من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة)، وأخذ يغزي نفسه قائلا: الحمد لله فقد قاتلت فواق ناقة.
أما الخمسة عشر طلقة فلم تكن قليلة كما تصورنا ... بل كان عددا مبالغا فيه بالنسبة لمعايير ذلك الوقت، حيث كان المجاهد يأخذ بندقيته الإنجليزية القديمة وعشر طلقات، ويقضي على ذلك عدة أشهر في غارات وكمائن، وقد يستشهد أو يعود محملا بالغنائم. لقد كان ذلك الجيل الأول يدعو الله ويبكي قبل أن يضغط الزناد ليخرج طلقة على العدو لأنه يعلم أن عدد طلقاته قليل جدا، وقد لا يجد فرصة لتعويض ذخائره ومواصلة الجهاد.
ويوم الكمين الأول أطلقت وزميلي عشرين طلقة من إجمالي مائة وعشرين طلقة كانت معنا في أربعة مخازن. بينما لم يطلق أكثر المجاهدين ولا طلقة واحدة، والذين أطلقوا لم يستخدموا أكثر من طلقتين، وما كان معي وزميلي من ذخائر كان أكثر مما يمتلكه معسكرنا كله. ويساوي إستهلاك عدة أشهر من العمليات لهذه المجموعة النشطة ذات الشهرة والمرهوبة الجانب لدى قوات الحكومة.
وهذا جانب آخر من السلبيات العربية في أفغانستان، ألا وهو الإسراف في كل شيء تقريبا، الذخائر، الطعام، المهمات، النصائح والإرشادات بمناسبة وبدون مناسبة ... إلخ.
هذا إلى جانب أوجه الإسراف التقليدية مثل الإسراف في الخلافات والإسراف في التشدد في الأحكام الفقهية والإسراف في الجدال والإسراف في تكوين الجماعات والإنشقاق عليها.
ضروب الإسراف تلك كانت طافية على السطح فطغت على الصورة العربية ولكن ذلك لا يعني أن الجميع قد غرقوا في نفس المستنقع بنفس الدرجة.
ولا أنسى قصة ذلك الأفغاني الذي قابلناه على الحدود الباكستانية يبيع بقرته ويشتري بثمنها طلقات لبندقيته الإنجليزية ثم يتوجه إلى الجهاد، وقد وهبني وصديقي مائة روبية من ثمن البقرة.
وقد وجدنا حرجا شديدا في قبول الهدية النقدية لولا أن مرافقنا مولوي محمد سرور قال أن قبولها واجب في الأعراف المحلية فقبلناها.
إن البقرة في تلك المناطق الجبلية الفقيرة ثروة ومصدر رزق ولقمة عيش، وإستبدالها بطلقات بندقية هو عمل غني بالدلالات. ويبرر الحرص الشديد من جانب المجاهدين في إستخدام طلقاتهم.
لقد تغيرت تلك الصورة المشرقة كما تغيرت كثير من الصور بعدما أوغلت لقضية في التدويل وتعاظم الدور الباكستاني الذي كان رأس رمح أمريكي للعمل ضد الإسلام في أفغانستان.
لقد أصبحت الذخائر مجانية ومتوفرة بشكل جنوني بالنسبة لما كان في مقدور المجاهدين أن يوفروه بجهودهم الذاتية وأموالهم في الأيام الأولى للجهاد أي أيام الإخلاص والإيمان الصافي والممارسة الحقيقية الرائعة لمعاني الفداء والتوكل على الله والبذل للأرواح والأموال في سبيل الله ودفاعا عن دين الله.
إنزوت تلك المعاني وذبلت وكانت تندثر تدريجيا ولم يبق منها في أيام الحرب الأخيرة إلا شذرات شاحبة وأفراد قلائل تخلفوا عن ركب الجشع والمتاجرة بالدماء بل المتاجرة بدين الله، والجري وراء الدنيا والمال والسلاح الذي فتحت خزائنه، أمريكا وحلفائها على إختلاف أصنافهم.
لقد كان الهدف الأول لتوزيع الذخائر والأسلحة في أفغانستان وهي السياسة التي وضعتها أمريكا وطبقتها المخابرات الباكستانية تهدف قبل كل شيء إلى تدمير الدافع العقائدي للقتال وتحويله إلى تنافس على الأموال والأسلحة والزعامات التي تقوم على كثرة ما يمتلكه ويتحكم فيه الزعيم من أموال وأسلحة تأتيه بأوامر أمريكية عبر قنوات باكستانية وكثير من الأموال بل معظمها فيما بعد كانت
تأتي بأوامر أمريكية عبر قنوات سعودية بعدما استطاعت حكومة المملكة تكوين قنواتها وأدواتها الخاصة للعمل على الساحة الأفغانية.
وبعد أن كان الجهاد مجالا
للبذل والعطاء أصبح مجالا للأخذ. فتوافد على ساحة الجهاد، التي لم يكن يجرؤ أحد على الإقتراب منها سوى الأفذاذ المخلصون، توافد عليها الصعاليك وقطاع الطرق والمنافقون من كل حدب وصوب وهدفهم (الجهاد (ولكن ليس في سبيل الله بل في سبيل الحصول

على أسلحة وأموال وعتاد من يد ضباط الإستخبارات الباكستانية الذين تنامى نفوذهم في سنوات التدويل حتى فاق نفوذ رؤساء القبائل. بل أن رؤساء القبائل كانوا يتسابقون في التزلف إليهم للحصول على ما في أيديهم من مساعدات أمريكية.
وتدريجيا تحولت الحرب إلى مصدر رزق لعشرات الألوف من الحثالة لم يتورع أكثرهم من اللعب على كافة الحبال، فتارة ينتمي لهذا التنظيم الجهادي وتارة إلى التنظيم الآخر وثالثة ينضمر إلى الحكومة.
وفي كل الأحوال فإن له إنتماء علني، وعدة انتماءات سرية لتنظيمات أو حكومات.
وكان القادة الجهاديين الكبار من زعماء الأحزاب أو التنظيمات المسماة بالجهادية هم أبرع وأسوأ من لعب تلك اللعبة القذرة. وظلوا مع هذا يرفعون راية الإسلام والجهاد ويتاجرون بها.
وما زالوا كذلك فى مرحلة الفتنة الحالية التي يلعبونها لحساب نفس الجهات ويقبضون من نفس السادة الذين مولوهم في مرحلة) الجهاد (أي أمريكا وعملائها في باكستان والسعودية.
في أيام التدويل لاحظنا الإسراف الشديد في إستخدام الذخائر وبدون أدنى ضرورة.
بل ظهرت حالات سرقة الذخائر وبيعها في الأسواق. حتى أن بعض قيادات الأحزاب مارست ذلك بلا خجل.
فباعت أسلحة وذخائر قبل أن تدخل إلى أفغانستان أي فور إستلامها من باكستان من مخازن الإستخبارات في إسلام آباد وبيشاور وكويتا، وغيرها من الأماكن الثانوية.
بعض الأحزاب برر ذلك بحاجته للمال وأن العرب لا يتبرعون لهم بل يتبرعون للأحزاب الأصولية سوف نتكلم فيما بعد عن تلك التقسيمات المأساوية المضحكة وللحقيقة فإن قيادات الأحزاب الغنية الأصولية التي إنهالت عليها التبرعات الشعبية من الخليج لم تكن بحاجة لبيع الأسلحة والذخائر في الأسواق، ولكن رجال الصفوف الخلفية في القيادة وحتى قادة الجبهات الصغار معظمهم كانوا دوما في حاجة لبيع مثل هذه الأشياء للإرتقاء إلى مستوى قادة الصف الأول الذين إرتقوا في معيشتهم إلي مستوى معيشة المسؤولين الباكستانيين.
وامتلكوا الفيلات والسيارات الغالية وعشرات الحرس ومخصصات عالية تصرفها لهم باكستان كمخصصات إعاشة للقادة. وهي مخصصات تضمن تليينهم وسحبهم بعيدا عن معاناة شعوبهم وأحكام دينهم. وقد نجحوا في ذلك أيما نجاح. وتجدر الإشارة إلى تفشي حالات منطقية من الفساد في أوساط المخابرات الباكستانية العسكرية) آي إس آي (والذين كانوا مكلفين بمهام توزيع الأسلحة. وكالعادة كان معظمهم مرتشون، فالرشوة تقليد قومي في الطبقة البيروقراطية الباكستانية بجميع مستوياتهم العليا والسفلى.
وقد تقاسم هؤلاء نسبة من عوائد بيع المهمات العسكرية من أسلحة وذخائر مع قيادات الأحزاب والقيادات الميدانية داخل أفغانستان حتى أن بعضهم أشرف على بناء مخازن عبارة عن مغارات ضخمة في أفغانستان لتخزين تلك المسروقات ثم طرحها للبيع في الأسواق القبلية وتقاسم الربح مع قيادات أفغانية"جهادية" وفي نهاية الحرب قام هؤلاء بخدعة أخرى إذ طلبوا من بعض القيادات إعادة تسليم ما عندهم من ذخائر وأسلحة كانوا قد إستلموها سابقا وبقيت لديهم حتى إنتهت الحرب. وإنتهى ذلك بمساومات تجارية ودفع كمية من الأموال لهؤلاء الضباط العظام من المخابرات العسكرية الباكستانية.
ومع كل مخازيهم لم يستح هؤلاء كما لم يستح سادتهم الأمريكان من الإدعاء بأنهم أبطال فتح كابل وتحرير أفغانستان.
وقد أصدر أحدهم (١-٦) * كتابين حول هذا المعنى، وقد صوروا مخازيهم في صورة بطولات، وصادروا بطولات القلة التي ظلت مخلصة في أفغانستان وما أجراه الله من فتوحات على أيديهم على أنها إنجازات المرتشين من خدم الصليبية الأمريكية.
كما مر علينا فإن مشكلة الذخائر أعقد من مشكلة السلاح. والحصول على كليهما ممكن وضروري أثناء المعارك ومن أيدي جنود العدو. هذه إحدى القواعد الجوهرية للحروب الجهادية حروب العصابات. وكما لاحظنا أيضا فإن الحصول على الذخائر يتم بوتيرة أقل من الحصول على السلاح.
لذا لزم العمل بحكمة في إستهلاكها. وهذا يأتي من دقة التخطيط ورفع مستوى تدريب الأفراد.

ومن دقة التخطيط عدم مهاجمة أهداف عقيمة، أي تستهلك ذخائر بدون أمل في الحصول على غنائم، ما لم تكن هذه الأهداف ذات قيمة حيوية في ذاتها مثل إغتيال قيادات العدو، أو تدمير منشآت ذات قيمة عالية للمجهود العسكري كالجسور والمطارات. وكثيرا ما يكون الحصول على الذخائر هو الهدف من العملية العسكرية.

....

(١) هو العميد محمد يوسف الذى تولى قسم افغانستان فى المخابرات الباكستانية فيما بين ٧٩١٩٨٦ م. ثم أصدر كتابين هما المجاهد الصامت و فخ الدب وهو الكتاب الأهم. وسوف نناقش لاحقا بعض ما جاء فيه

٩.٦ مخاطر الأرض الصديقة

مخاطر الأرض الصديقة

تجمع كتب العصابات علي أهمية الأرض الصديقة خارج الحدود والتي توفر

لرجال العصابات خلفية إدارية آمنة وإمدادا منتظما من السلاح والطعام. والذي لم أجدهمذكورا في أي من تلك المراجع هو أن لتلك الأرض الصديقة سلبيات وربما آثارا مهلكة على حرب العصابات.

لحرب العصابات لا يمكنها أن تتخطى النظام السياسي القائم على الأرض الصديقة، أو تتجاهل مصالحه الحيوية، ولا أن تتأخر عن سداد الفواتير سواء حدث نصر أو تمت تسوية أو إندحرت الحركة. في كل الحالات هناك دين واجب السداد ولا يمكن الإفلات منه.

تلك قاعدة جوهرية ومنطقية، وكم كنا كمسلمين في غفلة وتعام بل وبلاهة عندما تخيلنا أنها غير موجودة في الحالة الأفغانية.

وقد دفع الأفغان ويدفعون حتى الآن الفواتير الواجب سدادها لباكستان، خادم الصليبية الأمريكية في المنطقة. كما يسددون الآن أيضا الفواتير للسيد الأمريكي في البيت الأبيض الذي يدير العالم عبر مؤسسته المسماة زورا وبهتانا بالأمم المتحدة. ومؤسسات تلك الأمم هي الأقوى نفوذا في أفغانستان حاليا من كل المنظمات وجميع الشخصيات مهما كان مركزها.

فالحرب الأهلية في أفغانستان تدار أولا وأخيرا من البيت الأبيض مع سلسلة من القنوات الرسمية المشهورة أوالمهتمه، من هيئة الأمم وحكومة باكستان وإيران والسعودية وحتى الحكومات الورقية في طاجيكستان وأوزبكستان.

ولكن بدون الأرض الصديقة من أين للمجاهدين بالذخائر؟.

كما ذكرنا فإن الأرض الصديقة هي في الواقع أرض سيطرة وهيمنة علي الحركة سواء حرب عصابات أو حرب عقائدية جهادية. ولا بد أن يكون هناك تطابقا في أهداف الأرض الصديقة وأهداف الحركة الجهادية.

فلا يمكن أن ترتكز حركة جهادية على أرض صديقة غير جهادية علمانية أو إشتراكية أو ديمقراطية .. إلخ.

والذي حدث في أفغانستان هو أن الحركة الجهادية كانت هكذا بالإسم فقط على مستويات القيادة التي كانت في حقيقتها قيادات متطابقة تماما مع الوضع السياسي في الأرض الصديقة (باكستان (، التي كانت وما زالت ذات حكومة تضع نفسها في خدمة) الصليب الأمريكي (وكانت نشأتها بفعل وتخطيط الصليب البريطاني الذي كان يحتل الهند التي كانت مسلمة لعدة قرون قبل الإحتلال الصليبي البريطاني لها.

باختصار فإن قيادات الأحزاب المسماة جهادية والتي تمركزت في باكستان كانت جميعها بحكم تاريخها والأمر الواقع لها، قيادات عميلة تضع نفسها بالكلية في خدمة الصليب الأمريكي وتخدع المسلمين وتخدع شعبها بشعارات الإسلام التي كان من الواضح أنها أول من يخالفها في التطبيق. ولكن المسلمين تعاموا وكذبوا أعينهم وآذانهم وطمسوا عقولهم بأنفسهم وتمنوا الأوهام أن تكون حقائق حتى سطعت شمس الحقيقة من وراء ستائر الكذب الكثيفة.

فمنذ أن فتحت كابل، لم يكن خافيا على ذي عينين، أي قيادات كانت تقود الشعب المسلم المجاهد في أفغانستان، وإلى أي مدى أودت غفلتنا، نحن أنصار الجهاد، بمستقبل الجهاد في أفغانستان ومنطقة وسط آسيا بل والعالم.

وأتحنا الفرصة لعدونا الصليبي كي يسخرنا لخدمة مصالحه بل وللإضرار بمصالحنا الإسلامية.

لقد ساعدنا بدمائنا وأموالنا، الصليبية الأمريكية على تحقيق أهدافها الحيوية على مستوى العالم حتى صارت الحاكم الأوحد له. وألحقنا الضرر بمصالح المسلمين والإسلام وساعدنا أمريكا واليهود على إلحاق الضرر بسمعة الإسلام وسمعة الجهاد وإلصاق الصفات القبيحة بالمجاهدين والمسلمين عامة.

لا يعني ذلك قطعا بأن تلك هي كل الحصيلة الختامية لجهاد أربعة عشر عاما في أفغانستان.

ومشاركة عربية طويلة في هذا الجهاد مع دماء ما لا يقل عن خمسمائة شاب عربي. هناك الجانب المضيء والمشرق لهذا الجهاد ولذلك مواضع أخرى.

وما يهمنا الآن هو ضرورة إستقلال العمل الجهادي عن الأراضي المحيطة به مهما بدت صديقة ومهما حاولت التزلف أو تقديم التسهيلات التي تشبه جرعات المواد المخدرة. ثم ما تلبث قيادات الحركة أن تتعود عليها حتى يصعب التخلي عنها ثم ترضخ للشروط وتتحول إلى تابع ذليل لهؤلاء الأصدقاء، إلا إذا كان هناك بالفعل تطابقا عقائديا/سياسيا معهم.

الغنائم من أهم الأبواب الشرعية لتحقيق إستقلال العمل الجهادي. وهو المدخل الشرعي والعملي لتفادي السقوط في فخ "الأصدقاء" من عملاء "الصليب السياسى".

الأحكام الشرعية في الغنائم لم يتم تطبيقها في أفغانستان، هذا بشكل عام. ولكن حدث كثيرا أن تم توزيع الغنائم بشكل صحيح بين أفراد مجموعة ما. ولكن المجموعات المختلفة كان يحكمها قانون الإغتصاب والغلول. فلكل مجموعة الحرية في أخذ ما تستطيع بالكيفية المتاحة. فتحول مسرح الجهاد إلى ساحة لتصارع الذئاب البشرية.

لقد بدأت تلك المشكلة منذ اللحظة الأولى وتنامت حتي وصلت قمتها المأساوية بنهاية الفتح وسقوط النظام الشيوعي. من المعلوم أن القبلية نظام قوي عميق الجذور في أعماق تاريخ الشعب الأفغاني.

ولتلك القبلية قوانينها التي تأثرت كثيرا بالإسلام ولكن مازالت لها أعراف وقوانين مخالفة للتعاليم الإسلامية، منها على سبيل المثال ما يختص بحقوق المرأة، ومنها ما يتعلق بالمعاملات مع الآخرين.

فالمجتمع الأفغاني شديد الحرص على الأعراض عظيم الغيرة عليها، وهذا شيء إيجابي يتفق مع الإسلام ولكنه من جهة أخرى لا يعطي المرأة حقوقها التي كفلها الإسلام في الميراث والمهر والموافقة على إختيار الزوج.

أما معاملة الغير فإن العادات القبلية القديمة هى قطع الطريق والسلب والنهب وعدوان القوي على الضعيف والبعد عن روح العدل والإنصاف إذا كان الظلم والبغي ممكنا ...

لقد كانت النظرة العامة إلى الغنائم على أنها نوع من النهب المباح شرعا. وهنا تحركت شهوة السلب والسطو في الروح القبلية، ظهرت برداء إسلامي شرعي، فصارت أكثر خطورة.

لقد نتج عن ذلك مئات الصدامات وفشلت عشرات المعارك، ولكن الأهم من ذلك كله هو ضياع هذا المورد الشرعي الهام لتمويل الجهاد. وسقوط الحركة الجهادية نفسها في يد الممولين من أصدقاء الصليبية الأمريكية من باكستانيين وعرب الحكومات.

بالتدريج بدأ نوع من التخصص الوظيفي، فالبعض يقاتل إذا كان يرى ذلك ضروريا وآخرون يخطفون الغنائم في الوقت المناسب. وحتى لا يوصم الصنف الأخير بالنفاق وهو مصطلح شرعي كان شائعا في ذلك الوقت لوصف هؤلاء من الجنس الثالث بين المجاهدين والكفارالشيوعيين، وكان وصفا مستقذرا، كان الحل أن إنضم هؤلاء الخطافة إلى منظمات جهادية كانت تكفي لاستيعاب كل ما هو متاح من أمثال هؤلاء.

كان عدد المنظمات دائما في إزدياد وإستيعابها لأي صنف وجنس من الناس ليس له ضوابط سوى التنافس الحزبي والشخصى والقبلي العرقي وجميع الخبائث والأنتان الأخرى.

كان هناك دوما في كل تنظيم أناس يقاتلون في سبيل الله وفيه أيضا عدد أكبر من الخطافة.

وهناك من يمارس كلا العملين حسب الأحوال والظروف. وهذه الحالة هى التي أثارت دهشتنا أكثر من سابقتيها.

وفي الجبهة تجد كل تنظيم يتهم التنظيم الأخر بأنه ترك الجهاد وتخصص في الخطف أي الغلول. وهذا غير صحيح لأن الصفوف كانت

دوما مختلطة كما ذكرنا والأصناف الثلاثة كانت متواجدة دائما في كل تنظيم، مع إختلاف نسبة التركيب من منطقة إلى أخرى.
فقد يغلب الصلاح على مجموعات تنظيم معين في منطقة محددة، وقد لا يكون الأمر كذلك في منطقة أخرى ربما كانت قريبة من الأولى.
أول ما لمسنا مشكلة الغنائم كان من خلال موقف فكاهي بين رجلين تخطى كل منهما الستين، وهما أصدقاء طفولة. ولكنهما إختلفا على غنيمة كانت صندوق ذخائر صغير. عندما لقيناهما في قرية جبلية عاد مجاهدوها من معركة مع قوات الحكومة، فقدوا فيها ثلاث شهداء منهم رئيس القرية الذي كان يقود المجموعة، وأحد الشهداء الثلاثة حطم ضابط شيوعي رأسه بحجر عندما عثر عليه جريحا.
كانت القرية تلملم أحزانها، ولكن الصديقان العجوزان ظلا يبحثان مشكلة صندوق الذخيرة.
بعد أن رحبا بنا قصا علينا قصة الخلاف، وهي أنهما في أثناء المعركة الأخيرة شاهدا صندوق الذخيرة الحديدي ساقطا قرب شاحنة مشتعلة، وكان هناك ضابط يرمي نيرانا شديدة من رشاش يحمله. واتفق الصديقان على خطة، الأول يناوش الضابط بالنيران والثاني يتسلل ويخطف الصندوق. وبالفعل نفذ الصديقان الخطة بنجاح كامل. ولكنهما ولعدة أيام لم يستطيعا الإتفاق
على ملكية الصندوق. فالذي تسلل وخطف الصندوق إدعى ملكيته لأنه هو الذي خاطر بحياته وأحضر الصندوق. أما صديقه فأراد التقسيم مناصفة لأنه يرى أن تغطيته لصديقه كانت أساسية في الحصول علي الصندوق ولولاها لما استطاع أن يتقدم، ولو حاول التقدم بدون تغطية لكان الآن في عداد الشهداء.
الطريف أنهما كانا يتقابلان بعد صلاة الفجر كل يوم، كعادتهما منذ عشرات السنين، ولا يفترقان إلابعد صلاة العشاء والذهاب إلى النوم. وطوال الوقت يبحثان نفس الموضوع، وبدون أدنى بادرة غضب أو ملل أو حدة. وكلما أتيحت لهما فرصة توسيع المناقشة وإشتراك آخرين فإنهما يرحبان بذلك ويبدأ كل منهما في سرد حجته ولم يحدث أبدا أنهما قبلا أي حكم.
فدائما أحدهما يقبل والآخر يرفض. حتى تركناهما على هذا الحال. ولا أدري الآن وبعد مرور خمسة عشر عامًا على ذلك الحادث هل إتفقا أم لا؟.والأرجح عندي أنهما ما زالا يديران نفس النقاش، هذا إذا كانا من الأحياء.
ولما كانت رحلتنا وسط مجموعات تنتمي إلى زعامة مولوي يونس خالص وحزبه "حزب إسلامي" فقد استمعنا إلى شكاوى وإتهامات للمجموعات المجاورة لهما وهي مجموعات تنتمي لحزب إسلامي "حكمتيار" وحزب "محاز مللي" للسيد أحمد جيلاني شيخ الطريقة الجيلانية في أفغانستان. وكانت المشكلة هي سرقة الغنائم بدون الإشتراك الفعلي في المعارك.
وقد ظننا خطأً بأن تلك المنظمات متخصصة في الغلول، ولم يكن ذلك صحيحا كما ذكرنا آنفا. وكما ذكرت لقاءنا الأول مع مصيبة الغلول فمن المفيد أن أذكر اللقاء الأخير معه. وكان ذلك عندما إستسلمت مدينة جارديز في أبريل ١٩٩٢ م.
عندما شاع خبر مفاوضات التسليم بين حامية المدينة والمجاهدين بدأت قوافل من الشاحنات و"التراكتورات" و"البيكابات" وكل وسائل النقل الممكنة تتوافد علي الطرقات المؤدية إلى المدينة ورابطت على مسافة أمان مناسبة، واستمر ذلك أياما متوالية رغم الأمطار والسيول وبعض قذائف المدفعية والألغام التي أودت بحياة البعض ودمرت مركباتهم. إلا أن ذلك لم يفل في عضد قوافل الغلول كما أطلقنا عليها وقتها جميع تلك المركبات قدمت عبر الحدود الباكستانية، ويقودها مهاجرون أفغان، وهم الأكثرية، أو رجال قبائل الباتان التي تعيش في المناطق الباكستانية.
ولما كانت مدينة خوست التي تم فتحها منذ عام تقريبا) في ٣١ مارس ١٩٩١ م (وكانت أكبر تجربة غلول في أفغانستان منذ بداية الحرب حتى وقتها آنذاك، فقد
صارت هناك خبرة فى الغلول الجماعي للمدن واستقرت أعراف لتنظيم العملية بأقل قدر من المشاكل والصدامات.
وأهم قاعدة هى أن تصطحب كل جماعة غلول مجموعة من أعلام أي حزب من الأحزاب (الجهادية (مع صور زعيم ذلك الحزب. وفور دخول المدينة يبدأ سباق مع الزمن في رفع الأعلام ولصق الصور على المقار العسكرية والمخازن والمرافق والمباني الحكومية وحتى على الدكاكين المغلقة والدبابات وراجمات الصواريخ والمطارات. والجميل هو ذلك التعاون في الإحترام الجماعي لتلك الأعلام والملصقات، بدون أي تدقيق فيمن رفعها وجدية إنتمائه للتنظيم الذي يرفع علمه ويلصق صورة زعيمه.

والطريف أن الأحزاب قد إستفادت هي الأخرى من) فتوحات الغلول (تلك. فعند محاولة إنشاء سلطات جديدة داخل المدن) المحررة (كانت الصلاحيات الأكثر تفوض لذلك الحزب الذي إرتفعت له رايات أكبر ولصقت لزعيمه صور أكثر أثناء موجة الغلول أو) فتح الغلول /الذي تم للمدينة المنكوبة في جميع الأحوال.

القسم الأعظم من مكتسبات الغلول، بعد أن سقط النظام الشيوعي وقبل ذلك أيضا وجدت طريقها إلى خارج الحدود "باكستان" كي تباع هناك. وبذلك نزحت معظم ممتلكات الدولة الأفغانية وتحولت إلى باكستان كي تباع هناك خردة بالكيلو.

عشرات من الدبابات الصالحة والمعطلة والمدمرة تم تقطيعها بأنابيب لحام "الأكسى/ أسيتلين" وتحولت إلى قطع صغيرة تم شحنها على السيارات أو حتى الجمال كي تباع بالكيلو في أسواق ضخمة للخردة علي الحدود الباكستانية.

أيضا حطام العشرات من الطائرات وبعضها كان قابلا للإصلاح قد بيعت بنفس الطريقة. وكذلك منصات إطلاق الصواريخ الثقيلة بأنواعها.

رغم أن تلك المهمات العسكرية المتطورة بها أجزاء من معادن ثمينة مثل الذهب والفضة والبلاتين وبكميات تشكل ثروة ضخمة، ولا يفهم ذلك غير الأذكياء من التجار الباكستانيين.

لا داعي للقول أن ذلك النشاط إمتد حتى إلى الكابلات تحت الأرض وفوق الأبراج والأبراج نفسها بالطبع. وهكذا ساهم الغلول بدوره الفعال في إتمام الأجهاز على أفغانستان كي تصبح عن حق، قاعا صفصفا.

وعلى الفور بدأت الحرب الأهلية بين الإخوة الأصوليين في كابل وكل فريق معه حلفاءه من الرفاق الماركسيين لإحراق الحطام المتبقي من حرب الأربع عشر عاما ضد الشيوعية.

ثم ذلك النزح والتخريب في أضخم حملة غلول في التاريخ الإسلامي القديم والحديث وهي الحملة التي رافقت سقوط النظام الشيوعي.

وقبل أن نترك الغلول ومشاهداتي في جارديز أذكر موقفين أحدهما أضحكني حتى البكاء، أقصد حتى طفرت الدموع من عيني. والثاني أصابني بالفزع وكان يؤدي إلى معركة مع أبطال الغلول.

المشهد الأول: كنا في عصر اليوم الأول لفتح المدينة وإنفعالاتي يصعب حصرها، إذ ثارت ذكريات تلك السنوات الطويلة وذكريات الطلقات الأولى في سبيل الله التي كانت في جبال جرديز، وهاهي لحظة الفتح بكل جلالها وقد لوثتها تلك الأدران التي أراها. بل أن أفغانستان تبدو كأنها تنحدر إلى هاوية لا قرار لها. وهو شعور أضاع بهجة النصر وغمرني بكآبة.

في عصر اليوم الأول كانت عمليات وضع اليد ورفع الأعلام ولصق الصور قد شارفت نهايتها وأثناء تجوالنا في أطراف المدينة شاهدنا مولد كهرباء ضخم مركب عليه هيكل ذو عجلات كي يسهل نقله من مكان إلى آخر ولم نشاهد عليه علما ولا صورة فلم نصدق أعيننا واقتربنا منه حتى نتأكد من صحة تلك المعجزة.

وسرعان ما اتضح لنا الأمر، فإن) المجاهد (الذي سيطر على تلك) الغنيمة (كان قد إستنزف ما يمتلكه من أعلام وصور وخاف إذا هو ترك تلك الغنيمة أن يغتصبها آخر. وبسرعة تفتق ذهنه عن حل عبقري، فإلتقط عصا من الأرض وفك تكة سرواله وهي بيضاء اللون من حسن الحظ وهو نفس لون علم تنظيمه المفضل، وربط التكة بطرف العصا ورشقها على فتحة في أعلى المولد، وبهذا صار من ممتلكات التنظيم ذو العلم الأبيض.

كان محرجا بعض الشيء أن يعود المجاهد إلي زملائه وهو ممسك سرواله بيديه حتى لا يسقط على الأرض، ولكن ما هي إلا سويعات حتى عاد مع إخوانه المجاهدين وقد وضع تكة جديدة في سرواله وأحضر علما جديدا للمولد الكهربائي. لقد أضحكني حتى البكاء ذلك المشهد النادر من الكوميديا المأساوية.

المشهد الثانى: لم يكن لطيفا إلى تلك الدرجة. الزمان: اليوم الأول لفتح جرديز.

قرب الغروب بدأت عملية تحطيم أقفال دكاكين المدينة في شارعها الرئيسي. وهو العمل الذي حاول المجاهدون منعه ولكنهم فشلوا لأن كل شيء في المدينة كان قد تم نهبه فلماذا لا تنهب الدكاكين؟.

بدأت كل عصابة تتقدم بوسيلتها للنقل وتقف أمام الدكان المعني ويقف عدد من المسلحين حول الدكان وإلي جانب السيارة لمنع أي إعتداء على حقوقهم. ويتم كسر أقفال المحل ونقل الموجودات إلي السيارة ويمضون بها ويحضرون أخرى من حسن الحظ أن معظم تجار المدينة كانوا قد أفرغوا محتويات محلاتهم. ولكن عددا قليلا منهم كانوا على إرتباط بقادة المجاهدين المحاصرين للمدينة، ويعملون في نقل الأخبار إليهم بشكل منتظم. وفي صباح يوم التسليم وحتى قبل ذلك أخذ هؤلاء التجار المتعاونون رسائل من القادة البارزين المجاهدين تضمن سلامة ممتلكاتهم ومحلاتهم في المدينة، وتطلب من جميع المجاهدين إحترام ذلك العهد.

وكنا في الشارع الرئيسي للمدينة عندما حصل أحدهم، وهو صاحب صيدلية كبيرة على رسالة ضمان من جانب قائد كبير كنا على صلة وثيقة به.

٩.٧ العودة

وما كاد القائد يتحرك إلى مكان آخر حتى بدأت عمليات) الغلول المسلح) وهجمت عصابة غلول على تلك الصيدلية بينما صاحبها واقف إلي جانبها ومعه الرسالة حتى يحمي أمواله.

ولكنهم جذبوه بعيدا مع التهديد، وكسروا أبواب الصيدلية وحملوا صناديق الدواء والرجل يتوسل ويعرض عليهم الرسالة، ثم يعرض عليهم مكافأة مالية، على أن يتركوا الدواء. ولكن ذلك كله لم ينفع، فتقدمنا إلى رئيس العصابة، وكنا ثلاثة أو أربعة من العرب ومعنا مترجم أفغاني، وأفهمنا الزعيم أننا كنا حاضرين عندما حصل صاحب الصيدلية على ضمان لممتلكاته من جانب ذلك القائد الكبير.

فما كان من رئيس العصابة إلا أن خطا إلى الخلف خطوة واسعة وأفرغ مخزن رشاشه من فوق رؤوسنا مباشرة حتى أضطررنا إلي الإنحناء قليلا، وهو يصيح بوحشية والزبد يتطاير من شدقيه:

) الله أكبر ... جهاد في سبيل الله ... زنده باد إسلام (.

ولثوان خطر لي أن أطلق عليه النار وأقتله. كان من السهل القضاءعلى عصابته تماما، فقد كان لنا في لحظتها داخل المدينة مجموعة كبيرة من العرب في أفضل أحوالهم التسليحية والمعنوية، وكانوا يتجهزون منذ أشهر لخوض القتال لفتح المدينة.

ومن فضل الله أني تمالكت أعصابي في ذلك الموقف البائس وإلا لنشبت فتنة ضخمة ضاع فيها المئات داخل المدينة حيث الجميع متوجس من الجميع، وعمليات السطو تمر بتوازن حرج إذا إختل فقد يودي بالجميع.

إنسحبنا بسرعة تفاديا لأي إستفزاز آخر. وعدنا إلى المنازل التي نسكنها، وهي غنائم مؤقتة لنا وإحتسينا الشاي كي نبتلع حسرتنا ونتسلى بكرنفال الإنتصار، وليل أضاءته منذ الغروب الطلقات و القذائف والصواريخ من كل نوع و صنف وهي تغطي كامل سماء المدينة حتى الفجر.

وهي ذخائر كانت في تقديري أكثر من كل ما أنفقه المجاهدون في معاركهم الحقيقية.

العودة

إنتهت زيارتنا للخط الأول. لم نحضر معارك كبيرة ولكننا قاتلنا في سبيل الله فواق ناقة، وذلك كان عزاؤنا. شعرنا بالحزن ونحن نودع ؤلئك الأبطال في جبال جرديز، ونحن متأكدون أنهم خير منا، بل خير البشر في هذا الزمان تحركنا نحو مركز"سيرانا" تمهيدا لرحيلنا إلى خارج أفغانستان

ومشاعر مدهشة تنتابنا. لقد إكتشفنا عالما بأسره لا يعلم عنه أحد غيرنا، ولا بد أن نبلغ الآخرين أن الأفغان أروع مما تصورنا قبل مجيئنا، لقد أسرنا حب هؤلاء الرجال وتعلقت قلوبنا بهم.

والأروع من هذا كله هو إكتشاف عالم) الجهاد في سبيل الله (، ذلك العالم القدسي الذي كان حلما يؤرق نومنا ويشغل صحونا، وأتعبنا البحث عنه، حتى وجدناه أخيرا واقعا حيا يتحرك، ولم نكد نتخيل أن دخلنا هذا العالم بكل نورانيته، كي نبلغ إخواننا من خلفنا.

وتصورنا كم ستكون فرحة المسلمين وتسابقهم نحو ذلك الباب من أبواب الرحمة إلى ذروة سنام الإسلام.

وأخذت أفكر ... هل بدأنا الدخول في عالم العزة وترك تلك الذلة والمسكنة التي خلعها اليهود عن كواهلهم وألبسوها لنا ليس بأيديهم

بل بأيدي المرتدين والمنافقين وأشباه المسلمين؟.
هل أوشكت فكرتنا الطموحة أن ترى النور، هل تظهر تلك القوة الإسلامية من الشباب المجاهد الفدائي كي يقدم العون للمسلمين المظلومين أينما كانوا؟.
هل إقتربت ساعة لقائنا فى فلسطين، في معركة نرى أنها المعركة الأم، والغاية المثلى من قتالنا في سبيل الله؟.
عدنا إلى سرانا لنجد إشاعة غريبة تقول بأن "وزير الدفاع" من "عربستان" في طريقه إلى سرانا قادما من أورجون كي يبحث إحتياجات المجاهدين حتي يرسلها إليهم. لم نصدق تلك الشائعة فلا الدول العربية يمكن أن تساعد ولا وزير دفاع يحضر بنفسه إلى هنا.
في العالم العربي، مهام وزير الدفاع معلومة جيدا فهو يجلس على كرسيه في وزارة الدفاع كي يحمي طاغوتا أكبر يجلس على كرسي أضخم في قصر الرئاسة. وأعداء النظام هم دائما داخل حدود الدولة وليس خارجها.
تبدلت الإشاعة ليصبح المرشح للقدوم هو وزير خارجية عربي. وأخيرا جاء الخبر الأكيد بوصول موفد من طرف مطيع الله ليخبرنا أن صحفيا من جريدة الإتحاد وهو سمير عبد المطلب وبرفقته مصور، قد زارا مركز المجاهدين في زيروك وتجولا في المنطقة، وكان في نيتهما الحضور إلى سرانا لولا ضيق الوقت والإرهاق الذي أصابهما.
وقد أحضرا معهما أعداد من الصحيفة، نشر بها جميع الأخبار والتعليقات والصور التي أرسلناها. أثار ذلك من موجة فرح وتفاؤل عارمة في جبال باكتيا وتحلق العشرات حول أعداد الصحيفة يشاهدون صور إخوانهم وهم يضحكون ويحاول بعضهم ترجمه الكلام المنشور.
أما نحن فقد شعرنا بسعادة بالغة أن نجح ذلك الجزء الهام من عملنا، ووصل جزء من رسالتنا إلى المسلمين، وها هم المجاهدون أصبح صوتهم مسموعا وإتصالهم مباشر مع العالم العربي، ومنطقة الخليج الغنية التي يمكن أن توفر لهم ما يحتاجون. وها هي قضية جهادية تطرق أسماع المسلمين بشكل مباشر وقوي وبلا واسطة من الإعلام الغربي.
لقد كسب المجاهدون صحيفة عربية قوية هي الإتحاد، وصوتا صحفيا جريئا ونشيطا هو صوت الصحفي سمير عبد المطلب الذي كان من أعمدة الجريدة ونجومها آنذاك.
لم نتصور أن قضية أفغانستان سوف تصبح القضية الأولى في الإعلام الدولي ومن ثم العربي لأكثر من عشر سنوات، عقد الثمانينات كله وذلك بعد دخولها كقضية في صراع تنافسي بين الكتلتين وأحد الموضوعات الرئيسية للحرب الباردة بينهما أو بالأحرى واحدة من أهم الحروب بالوكالة، وهي الحروب التي شاعت على مسرح العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية وظهور السلاح النووي الذي جعل الحرب المباشرة بين الدول الكبرى أمرا صعبا للغاية بل قالوا أنه مستحيل ولا أظنه كذلك.
لقد كان المجهود الإعلامي المناصر للقضية الأفغانية مجهودا غير عادي، ولم تظفر به أية قضية إسلامية قبلا. ولكنه ظل إجمالا يخدم المصالح الأمريكية في القضية أكثر من خدمة العمل الإسلامي. وكانت مصطلحات الإسلام والجهاد من أكثر المصطلحات التي إبتذلها الإعلام المساند للقضية الأفغانية، كما إبتذلها السياسيون الأفغان ومنظماتهم الجهادية التي كانت كمنظمات أبعد ما يمكن عن هذه الصفة.
في طريق العودة، وأمامنا عدة أيام من المسير الشاق، كنا ن عر أننا أكثر نشاطا وإنشراحا من يوم قدومنا كنا نراها رحلة ناجحة حققنا فيها أهدافا هامة. ولكن ذلك الأفغاني الشاب نغص علينا صفاءنا بينما نحن نشتري بعض البسكويت اليابس من أول دكان صادفناه في عودتنا بعد أكثر من يوم من المسير. وكان مولوي محمد سرور يرافقنا في العودة كمترجم وحارس ودليل. وكنا قد تركنا سلاحنا وقسما من ملابسنا النافعة وأدوية صديقنا المنياوي للمجاهدين.
ذلك الشاب الأفغاني عندما علم قصتنا أثناء تجاذبه أطراف الحديث مع مرافقنا، إنبرى غاضبا مستنكرا قدومنا للجهاد في أفغانستان بينما تركنا فلسطين بلا جهاد كان في كلامه منطق معقول وبه أيضا جهل بواقع الحال في فلسطين وما حولها من ممالك العرب حسب قول الأفغان.
ولكن وجهة نظره تلك وجدت طريقها إلى ساحة الجدال العربية بين التيار الإسلامي المؤيد للجهاد في أفغانستان، والتيارات الأخرى المعارضة ليس فقط لفكرة الجهاد بل لفكرة الإسلام نفسها. فالتيارات المعارضة، خاصة بعد تدويل القضية الأفغانية، ترى في حماس

التيار الإسلامي وإنخراطه للعمل، وربما القتال في أفغانستان، دليلا جديدا علي قصر نظر التيار الإسلامي في أبسط الحالات أوعمالته للغرب ومعاداته للتقدمية، وهو الإتهام المحبب إلى نفوسهم. فكانوا دوما يعملون على ترويجه بتشجيع الكتلتين الإشتراكية والرأسمالية على حد سواء. وعندما سقط الإتحاد السوفييتي في أفغانستان إنضم العلمانيون

والتقدميون والإشتراكيون العرب إلى أعدائهم في المعسكر الرأسمالي للقتال تحت رايته ضد الإسلام الذي أسموه أصولية وضد الجهاد الذي أسموه إرهابا وتطرفا.

لقد أثبتت ذلك الجذور الواحدة للرأسمالية والإشتراكية والمنبع الواحد للتيارات الناجمة عنهما والتي تتفق جميعها في كراهية الإسلام ومحاربة أتباعه.

وحتى وقتنا الراهن مازال يحلو لبعض العرب، وبعض الآخرين من دول "إسلامية" وغير إسلامية من موظفي الإعلام الصليبي يحلو لهم ترسيخ تهمة باطلة بالمتطوعين العرب في الجهاد الأفغاني والذين أطلقوا عليهم لفظ الأفغان العرب بأنهم عملاء للولايات المتحدة. وأنها هي التي جلبتهم إلي أفغانستان ودربتهم وسلحتهم ثم أدخلتهم إلي الساحة الأفغانية ليقاتلوا السوفييت نيابة عنها.

ولا يحتاج إثبات كذب هذه المقولة إلي مجهود كبير. وحتى لم يكلف أصحاب ذلك الإفتراء أنفسهم مجرد إختراع أوتلفيق أي شواهد تثبت صحته.

كانوا فى حاجة إلى تشويه تلك الظاهرة النادرة، أي ظاهرة التجمع الجهادي العربي الضخمع لي أرض أفغانستان، وما نتج عنه من آثار بعيدة المدى في العالم العربي والإسلامي.

وكانت حاجة الصليبية الدولية ماسة لتشويه تلك الحركة الجهادية العالمية غير القومية وغير الوطنية. ولا يتعارض ذلك مع الإعتراف أن القوى الصليبية واليهودية قد إستفادت ببراعة من نتائج تحرك المجاهدين العرب والأفغان أيضا بل واستطاعت توجيه تلك الحركة في المسارات التي توافق خططها أو على الأقل لا تعرقلها. وقد نجحت في ذلك إلي درجة كبيرة، ومع هذا فقد كان لها حوادث فشل خطيرة كاسنذكر لاحقا. لقد إستفادت القوى الصليبية واليهودية من سيطرتها غير المباشرة على التحرك العربي والإسلامي الجهادي في القضية الأفغانية وخاصة على أرض القتال. ولكن على المدى البعيد وكما ثبتت الأحداث حتى هذه اللحظة بأن المكاسب الإسلامية غير المنظورة كانت من الضخامة والخطورة بما لم يخطر ببال المخططين اليهود والصليبيين.

وحتى الآن ... وفي المناطق الأفغانية الصديقة القليلة التي مازالت تحترم العرب أو تهادنهم حتى حين، خاصة تلك التي خاضوا فيها معارك عنيفة إلى جانب إخوانهم المجاهدين، من وقت لآخر يسمع أحد من هؤلاء القلة من العرب المنسيين في أفغانستان من أحد هؤلاء الأفغان الغيورين على وطنهم عبارة كهذه) رفيج إنت إيش يسوي هون ... جهاد ختم ليش أنت ما يروخ بلاد؟ (والسؤال يصعب الإجابة عليه لأن عبرات الحسرة تختنق داخل الصدر.

عند عودتنا إستقبلنا الأصدقاء والمعارف بمثل الدهشة التي أستقبل بها رواد الفضاء الذين عادوا من سطح القمر. أو كما أستقبل المستكشفون القدماء بعد عودتهم من بحر الظلمات وجزر واق الواق. الدهشة كانت القاسم المشترك لمشاعر ومواقف الذين علموا برحلتنا.

بعضهم ثارت لديه مشاعر وحوافز حركة وآمال عريضة للعمل الإسلامي. وآخرون أكثر حرصا وذكاءا تشككوا في الأمر كله، وأن وراءه مؤامرة ما يدبرها أعداء الإسلام. وللأسف كان أكثر هذا التيار من الدعاة و الحركيين و أبناء الحركة الإسلامية، إختر ما شئت من مسميات براقة. كان التعاطف

والتفاعل مع الرحلة وما ندعو إليه من مساعدة المجاهدين في مواجهة الشيوعية، هو الوجه الغالب لردود الفعل وبدأ التجاوب يتنامى ببطء لكن باضطراد.

خاصة وأن تلك النغمة كان مسموحا بها آنذاك في منطقة الخليج بل وكانت موضع ترحيب لكونها تماشى مع مزاج السادة الأمريكان وهذا هو الأهم إضافة إلي كونها تضفي الصبغة الدينية على أوضاع الحكم ذات التوجه العملي المعاكس للإتجاه الإسلامي في حقيقة الأمر.

كان مسموحا بالكلام عن مساعدة المهاجرين والمجاهدين الأفغان. أما الكلام عن الجهاد بالنفس فكان يدور في همس وتكتم. وحتى

عندما بلغ الحماس أوجه في أواسط الثمانينات كان الذهاب إلى أفغانستان للجهاد محاطا ببعض المنغصات فقد تعرض بعض من أعرفهم ممن ذهبوا إلى أفغانستان إلى الطرد من أعمالهم الحكومية خاصة ؤلئك الذين كانوا يعملون في وزارة الدفاع في الإمارات، وبعضهم تمكن من العودة إلى عمله بواساطات وبعضهم فقد عمله وترك البلاد.

كان هناك هامش لا بأس به من أجل الدعوة لمساندة الأفغان إنسانيا من منطلق إسلامي وليس عسكرى. لقد كانت جريدة الإتحاد منبرا هاما ساهمنا بجهودنا المتواضع في كسبه إلى جانب تلك القضية. ثم توسعنا في الإتصال بالرموز الإسلامية في البلاد بدءا بمشايخ وزارة الأوقاف الذين تحمس بعضهم معنا وكيف لا وهناك ضوء أخضر لا تخطئه الأعين الكليلة.

وقد ساهم بعضهم بفعالية في الدعوة لمساندة الأفغان في جهادهم. وإتصلنا بعدد محدود من أولئك العلماء الذين كانت لهم مكانة دينية وشعبية وأهمهم الشيخ أحمد بن عبد العزيز المبارك رئيس دائرة القضاء الشرعي في أبو ظبي. كذلك الشيخ محمد المحمود في الشارقة وكان ذو نفوذ وإحترام على المستويات الرسمية والشعبية.

ولما كانت تحرياتنا قد دلت على وجود أجهزة إذاعية قديمة لدى إمارة الشارقة بعد أن جددت الإمارة معدات إذاعتها فقد سافرنا إلي الشيخ المحمود بعد عودتنا وقصصنا عليه جانبا من رحلتنا وإحتياجات المجاهدين إلى إذاعة توضح الحقائق للشعب الأفغاني وترفع معنوياته لإسلامية

وافق الرجل على أن يبذل مساعيه لدى المسؤولين للإفراج عن الأجهزة القديمة لصالح المجاهدين الأفغان. وقد فعل الرجل ما وعد به لكن مساعيه في هذا الإتجاه لم تكلل بالنجاح ولكنها على أية حال فتحت أبوابا واسعة من التعاطف والمساندة في إمارة الشارقة للمجاهدين الأفغان.

لقد عقدنا عشرات من الجلسات الخاصة مع المهتمين بالأمور العامة للمسلمين. وأكثرهم من خلصاء العاملين والحركيين في البلد. وكان لا بد من كتابة تقرير عن رحلتنا لنقل تلك الصورة إلى نطاق أوسع من المهتمين داخل وخارج الإمارات وقد توليت مهمة كتابة التقرير بصفتي "صحفي الرحلة". وقمنا بتوزيعه على الجهات التي يمكننا الوصول إليها من فئة المهتمين بمثل
تلك الشؤون.

٩.٨ موقف الاخوان من الجهاد الافغاني

وكان الأهم من ذلك كله أننا أرسلنا ذلك التقرير مع عضو من أعضاء بعثتنا الأفغانية وهو صديقنا إسماعيل الذي أخذ التقرير وسلمه يدا بيد للمرشد العام للإخوان المسلمين في القاهرة "الأستاذ عمر التلمساني". وكانت تلك من أجرأ الخطوات التي إتخذناها منذ بدأت سلسلة طموحاتنا ومشاريعنا الإسلامية.
موقف الاخوان من الجهاد الأفغاني

وكنا نعقد آمالا واسعة على حركة الإخوان أن تتولى هي قيادة عمل إسلامي جهادي على أرض أفغانستان، وذلك بحكم تاريخها الحركي وقدراتها القيادية والتنظيمية وحتى العسكرية على قدر تصورنا آنذاك.

وقد إنتهى بنا ذلك التصور الساذج إلى كارثة في العلاقة مع الإخوان أنفسهم أدت إلي عداء سافر ثم تحريض قيادات الأفغان المحسوبة على التيار الإخواني كي يزيحونا من الميدان.

وحرضوا أحدهم بل كبيرهم آنذاك) سياف (ضدى عندما بدأت الكتابة المباشرة إلي جريدة الإتحاد، من وجهة نظر لا تتوافق مع الرؤية والمصالح الإخوانية وكان ذلك عام ١٩٨٥ كما سيرد ذكره لاحقا.

ورغم الإستقبال المهذب من جانب الشيخ التلمساني رحمه الله لصديقنا إسماعيل إلا أن رد فعله كان متحفظا بل جافا، فلم يناقش معه التقرير واكتفى بجملة واحدة لم يزد عليها حيث قال:

) جزاكم الله خيرا ... إن لدينا مصادرنا الخاصة التي تمدنا بتفاصيل ما يحدث في أفغانستان. ومنذ سنوات طويلة (.

خرج إسماعيل مبهوتا بل مصدوما. وقالها لنا بصراحة أن أمله قد خاب تماما في الإخوان ... ولا أمل لديه فيهم.

لقد إنتقل إلينا الشعور بالصدمة، وتوالت تلك الصدمات حتى إنتهت بعداوة وقطيعة. وللحق فإن صديقنا المنياوي لم يفاجأ كثيرا فقد

كانت آراؤه مستقاة من والده الحاج حسني المنياويالذي سبق لنا ذكر ماضيه الإخواني والجهادي، والذي كان يرى في الإخوان المعاصرين أنهم - متاجرون بالإسلام -

كان الرجل حاد الطبع مع الجميع لهذا لم أعر آرائه أهمية كبيرة في بداية الأمر. ولكن ذلك التقييم السلبي للإخوان المعاصرين وأنهم منحرفون عن مفهوم الإخوان كما وضعه المؤسس الأول للحركة الشيخ حسن البنا، كان أيضا رأي عدد من قدماء المجاهدين من الصقور خاصة مقاتلي فلسطين والقناة.

مسؤولي الإخوان في أبو ظبي ودبي أوضحوا الدور الذي إختاره الإخوان لأنفسهم إزاء قضية

أفغانستان، وهو المساعدة في جمع الأموال والمعونات) الإنسانية (... أما الدور العسكري فهو غير وارد. وقد أضاف أحدهم على غير العادة بأن دخول المجال العسكري سوف يعرضهم لمخاطر جسيمة في مصر والمنطقة العربية

ويكفي ما لحقهم من جراء التوجهات العسكرية في الجماعة وما جره ذلك عليها من مصائب.

قرأت الآن التقرير الذي كتبته عن رحلتنا الأولى إلى أفغانستان وفي ظني الآن أنه كان أهم الأعمال التي قمنا بها بعد عودتنا. والأخطر أنه سجل بصمات تلك المرحلة وهذه من مآثر الكلمة المكتوبة إذ تصبح مثل الحفريات التي تحفظ بداخلها تاريخا مضى لمن أراد أن يبحث ويفحص ويستنتج. وهكذا أفعل الآن بعد حوالي أربعة عشر عاما من كتابته.

ونظرا لخطورة محتواه رغم بساطة العرض والأسلوب إلا أن القضايا التي أثارها ظلت محور إهتمام وصراع طوال فترة إشتعال القضية الأفغانية منذ أن بدأت جهادا في أبريل عام ١٩٧٨ حتى تحولت إلى فتنة سوداء منتنة في أبريل ١٩٩٢ م. وقضايا أخرى إحتواها التقرير مازالت موضع جدال وخلاف بعد إكتمال المرحلة الأفغانية وظهور نتائجها.

وفي مناسبات أخرى غالبا بعد تطورات هامة في مسار القضية الأفغانية كتبت عدة تقارير أخرى كنا نوزعها باليد على المهتمين والأصدقاء. وأكثرها كان يرسل إلي جماعة الإخوان المسلمين بناء على إصرار بعض إخواننا وكانوا من قدماء الإخوان الذين رأوا في ذلك إبراء للذمة وإقامة للحجة. وحتى نوضح لهم ما قد يكون قد خفي عليهم.

وللحقيقة فإن بعض كبار الإخوان المقيمين في الإمارات أو الذين وفدوا إليها وإجتمعنا بهم، لمناقشة أوضاع أفغانستان وتقديم مقترحاتنا لإصلاح الإعوجاج في مسيرة الجهاد، والأعمال المثلى التي ينبغي علينا كأنصار عرب أن نقوم بها كي نساهم في إنجاح ذلك الجهاد قد اقتنع وتحمس. وطالبنا آخرون بمزيد من تلك الكتابات لمناقشاتها داخل الجماعة.

وهكذا رأت بعض تلك التقارير النور بناء على نصائح هؤلاء المخلصين.

ولما كانت كل هذه التقارير تقف موقفا غير ودي من) زعماء بيشاور (خاصة المنتمين لتيار الإخوان، فقد وجدت تلك التقارير طريقها إليهم مع تعيين مصدرها والتحريض ضده. وقد كلفني ذلك الكثير وما زال.

كانت وسائل النشر مفتوحة على الغارب بالنسبة لقضية أفغانستان وكنت أجد صدرا رحباً في صحيفه الإتحاد الذين قابلوا ما أكتبه عن أفغانستان بتقدير يشكرون عليه، وكانوا على علم بصلاتي المباشرة بالقيادات الأفغانية وبالجهاد الدائر في أفغانستان وعلى هذا الأساس كان تقديرهم الواضح لما أكتبه. ومكثت أكتب لهم من آن إلي آخر منذ رحلتنا الأولى وحتى عام ١٩٨٥ حين عملت معهم مديرا لمكتب الجريدة في إسلام آباد.

كان للتقارير الشعبية التي أكتبها لدائرة المهتمين بما فيهم الإخوان أحد ظواهر تلك الفترة.

وكانت تتناول الجوانب التى يصعب الإعلان عنها في وسائل الإعلام الإسلامية التابعة في مجملها لحركة الإخوان أو للسيطرة الحكومية المكشوفة.

وبعد تحول الجهاد المقدس إلى فتنة ملعونة على أيدي القادة الأفغان وعلى رأسهم المنتمين إلى حركة الإخوان. أو الأصوليون كما خدعنا الإعلام الغربي وأطلق عليهم هذا المسمى العدائي.

بعد هذا التحول التاريخي أو المأساوي، تحولت مع قلة من العرب المنسيين داخل أفغانستان إلى مجموعة من "المطاريد" أي الخارجين علي القانون والمطلوبين للعدالة الدولية و للنظام الدولي الجديد.

كان لي بعض الكتابات التي لا يمكن ليس فقط نشرها بل ولا حتى عرضها إلا على دائرة قليلة من الأصدقاء المقربين، كان ذلك تطورا آخرا في إنتاجي الأدبي، أطلقت عليه أدب المطاريد. وهو يتناول القضايا العملية للحركة الجهادية، من القتال وحتي التمويل مرورا بالتنظيم والإعلام والعمل السياسي. وهي موضوعات ليست شعبية داخل الحركة الجهادية نفسها، بل متهمة في بعض الأحيان، ومكروهة في معظم الحالات، أما خارج الوسط الجهادي نفسه فهى موضوعات كفيلة باستجلاب حكم واحد بالإعدام على الأقل عن كل
سطريحتويه البحث.

وفي المرحلة الواقعة ما بين مرحلة التقارير الشعبية إلى مرحلة أدب المطاريد كانت هناك فترة أخرى بدأت عام ١٩٨٧ حيث كتبت عدة تقارير عسكرية خاصة ببعض العمليات التي قام بها إخواننا من المجاهدين العرب، عدد من تلك العمليات حضرته معهم، إما بشكل هامشي جدا أو أساسي أى من بدايته إلى نهايته.

هذه التقارير بأنواعها إلى جانب ما كتبته من تقارير لصحفية للإتحاد وغيرها تصلح أنت كون بصمة لا بأس بدقة وضوحها للوضع الأفغاني العام في تلك الحقبة الحساسة من التاريخ الإسلامي المعاصر كما أنها تحمل بصمة تزيد وضوحا عددا من الجوانب الهامة للنشاط العربي الجهادي الذي رافق التجربة الأفغانية.

وكما ذكرت سابقا، بأنني على درجة من الطموح من بقايا الطموحات العظيمة السابقة تجعلني أتوقع بأن تكون تلك القصاصات وما تحويه من عناصر، وما أنوي أن أضيفه إلي ذلك كله من ثرثرة، أطمح إلى أن يكون في ذلك الركام شيء من الفائدة لأجيال لاحقة هذا إذا لم تكن تنوي الإستمرار في إرتكاب نفس الأخطاء التي إرتكبها من سبقوهم.

وأيضا إذا تغيرت تلك السمة التي تطبع التيار الإسلامي عامة والجهادي خاصة وهي سمة عدم القراءة وعدم الكتابة في المواضيع العملية للنشاط القتالي للمسلمين. إنها بلا شك نوع من الأمية السائدة في أوساطنا حاليا وإن كانت قد بدأت تنقشع ببطء شديد. وإلي هؤلاء الذين في بطن الغيب الذين قد يهدرون أوقاتهم بقراءة مثل هذه الثرثرات، نناقش سويا في ثنايا هذا الكتاب عددا من تلك الكتابات) غير القانونية (بعرف عصرنا الحاضر.

ونبدأ بالتقرير الأول، وفي البداية نورد نصه الحرفي، الذي ينقل بإيجاز، صورة فوتوغرافية، عما شاهدناه وسمعناه أو قرأناه في ذلك الوقت حول موضوع البحث.

ثم نناقش بعد ذلك القضايا التي إحتواها وكيف تطورت، وأيضا السلبيات والأخطاء التي إحتواها التقرير والأسباب التي أدت إلي ذلك.
::::::::::::::::::::::::::::::

٩.٩ التقرير الأول عن الرحلة الأولى

٩.٩.١ مقدمة

٩.٩.٢ بداية الصراع

التقرير الأول عن الرحلة الأولى
مقدمة
في هذا التقرير سنحاول بإذن الله أن نلخص الوضع القائم في أفغانستان، وحقيقة القتال الدائر فوق أراضي هذه الدولة المسلمة، وأطراف هذا القتال وأبعاده. وقد إعتمدنا في بحثنا هذا على يارتنا التي قمنا بها إلى مواقع القتال حيث وفقنا الله إلى لقاء المجاهدين والإشتراك معهم في القتال والتعرف على أحوالهم عن قرب في أحد أهم مناطق القتال الدائر هناك وهي ولاية باكتيا حيث قابلنا هناك كثيرا من الشخصيات القيادية، ومجاهدين من مختلف الولايات الأفغانية ورجال الأحزاب الإسلامية المختلفة.

وإذا كانت زيارتنا ومقابلاتنا في مواقع الجهاد هي مصدرنا الرئيسي في هذا البحث فإن تقارير الصحف الأجنبية التي أرسلت بواسطة مندوبيها في كابول تمثل مصدرا آخرا حيث لا يتيسر عادة للمسلمين الدخوال إلى هذه العاصمة لتقصي الوضع هناك. اللهم بعض الرسائل التي يرسلها المجاهدون هناك للقيادة العامة في جلال آباد عند مولانا محمد يونس خالص (١)

المصدر الثالث والآخير هو ما ذكرته تقارير الصحف الغربية نفسها ونسبته إلى مصادر أجهزة. المخابرات الغربية (٢)
بداية الصراع
بدأ التسلل الشيوعي في أفغانستان منذ حوالي خمسين عاما. وبدأ هينا متسللا حيث أن أهل هذه البلاد عرفوا منذ الفتح الإسلامي بشدة تمسكهم بالإسلام وإعتزازهم به ودفاعهم عنه بالأموال و الأنفس. وقد مارس الحكام الروس ضغوطا مختلفة على حكام أفغانستان لكي يغضوا الطرف عن هذا التسلل الجديد وقد نجحوا في ذلك بدرجات مختلفة. وسار المد الشيوعي في خط متعرج
ولكنه صاعد إلى أعلى مستشر في مرافق الدولة الحساسة.
حتى كان عهد الملك ظاهر شاه الذي سهل للشيوعيين التسلل إلى جهاز الإعلام وجهاز التعليم ثم القوات المسلحة وفتح الإتحاد السوفييتي أبواب البعثات التعليمية على مصراعيها حتى أنه قدم في أحد السنوات عددا من البعثات التعليمية لخريجي الجامعات الأفغانية أكثر من مجموع طلبة هذه الجامعات!!.
في عهد الملك ظاهر شاه كانت فترة ذهبية للشيوعيين مكنوا لأنفسهم فيها في كافة المرافق الحيوية في البلاد.
وإنتهت تلك الفترة بانقلاب عسكري قام به محمد داوود خان إبن عم ظاهر شاهونصب نفسه رئيسا للدولة الأفغانية، واعتمد في تثبيت دعائم حكمه على الإتحاد السوفييتي في الخارج والشيوعيين في الداخل، ومكن للنفوذ الشيوعي أن يستشري ويحكم قبضته تماما على كافة المرافق الحيوية في البلاد بما فيها الجيش. وإنتهت تلك الفترة بانقلاب شيوعي صريح قام به نور محمد تراقي رئيس حزب خلق الشيوعي الذي أعلن أفغانستان صراحة دولة ديمقراطية شعبية تحكمها العقيدة الشيوعية وأعلن برامجه الإقتصادية التي أممت الملكيات

٩.٩.٠٣ رد الفعل الإسلامي

الزراعية والصناعية والعقاريةوبرامجه التعليمية التي اعتمدت الماركسية اللينينية مذهبا فكريا وأعلنت الحرب على القرآن والسنة وحاربت الدين الإسلامي وقامت أجهزة السلطة على الفور بإلقاء القبض على علماء الدين وقتلهم وتعذيبهم وسجن طلبة المدارس الدينية وتعقب الأفراد المعروفين بتمسكهم بالدين الإسلامي وهي قائمة طويلة تشمل أكثر من ٩٠
ونشط أعضاء حزب خلق في الهجوم مباشرة على العقيدة الإسلامية وحرقوا القرآن وداسوه بالأقدام علنا في شوارع المدن والقرى تحت حماية الجيش بالطبع ونادوا بالحرية الجنسية وإلغاء (الحجاب الإسلامي للمرأة كمطلب عاجل وسريع (.
رد الفعل الإسلامي
منذ اللحظات الأولى للتحرك الشيوعي في أفغانستان، أي منذ حوالي خمسين عاما تحرك بعض علماء المسلمين لشرح العقيدة الشيوعية وبيان زيفها وكفرها وتحذير الأفغان من الإنخداع بها.
بل وطالبوا السلطة بمصادرة حرية نشر مبادئها الكافرة في البلاد. ولكن للأسف لا السلطة إستجابت لمطلبهم ولا الشعب في أغلبه قدر خطورة هذه الأفكار الشيوعية على مستقبله معتمدا على شدة تمسك أهل البلاد بدين الإسلام.
ولكن هذه المواجهة إشتدت في أيام محمد داوود وحدثت صدامات دامية داخل المدارس والكليات والجامعة بين الطلبة المسلمين وهم الأغلبية وبين الطلبة الشيوعيين الأقل عددا والأكثر تنظيما.
وكانت النصرة دائما للطلبة المسلمين حتى تتدخل السلطة لنصرة الطلبة الشيوعيين وتلقي زعماء الطلبة المسلمين في السجن أو تفصلهم من الكليات والمدارس.
وإستمر الحال كذلك بل وإزداد حدة نظرا لتوسع المد الشيوعي وزيادة نصرة أجهزة الحكم لذلك التيار الفاسد. ودفع ذلك الوضع الشاذ عددا من علماء المسلمين وعلى رأسهم الزعيم الإسلامي محمد يونس خالص إلى إعلان الجهاد على حكم داوود خان الذي مكن الروس والشيوعيين في بلاد الإسلام ومهد لعقيدة الكفر وناصرها على دين الإسلام.
وبدأ العلماء وأنصارهم وكان العدد قليلا جدا بدأوا الجهاد من ولاية باكتيا وولاية ننجرهار مسقط رأس محمد يونس خالص.
وبدأت هجمات على مراكز الشرطة والجيش ولاقت نجاحا في بداية الأمر ولكن إستجابة الشعب لهم كانت ضعيفة وظروف الجهاد

كانت غاية في الصعوبة كما أن "داوود خان" لوح لهم بمغريات مادية لو أنهم توقفوا عن المعارضة المسلحة وتحت وطأة هذه الظروف إنسلخ بعضهم عن الجهاد وإختاروا المناصب الحكومية الكبيرة في حكومة "داوود خان" وبقي محمد يونس خالص في الساحة بمفرده ومعه قلة من العلماء وطلبة العلم فإضطر إلى اللجوء إلى

٩.٩.٤ إنقسامات في الصف الإسلامي

باكستان ليدعوا إلى فكرة الجهاد ويحشد الأنصار من حوله حتى شاء الله أن تكون نهاية حكم داوود خان على يد أصدقائه الشيوعيين الذين إستولى زعيمهم تراقي على السلطة بإنقلاب عسكري أزاحه عن الحكم.

وعلى الفور إجتمع محمد يونس خالص مع أنصاره وقرروا دخول أفغانستان وبدء الجهاد فورا ضد حكم الشيوعي الجديد ووجه نداءا إلي جميع العلماء وزعماء الجماعات الإسلامية بالحاق به وتنظيم صفوف المسلمين للجهاد. ... وبدأ محمد يونس وجماعته الجهاد في اليوم الثالث لإنقلاب تراقي.

إنقسامات في الصف الإسلامي

عقب الإنقلاب الشيوعي بدأت مطاردة عنيفة للمسلمين وخاصة العلماء ورؤساء الجماعات الإسلامية وطلبة العلم وكل من كان له نشاط إسلامي قل أم كثر. وكانت التصفيات الجسدية تتم بصورة من الوحشية دفعت الآلاف إلى الهجرة إلى باكستان فرارا بدينهم وحياتهم واكتظت سجون الشيوعيين بآلاف أخرى ممن فشلوا في الهرب.

وكان من المتوقع أن يكون رد فعل رؤساء الأحزاب الإسلامية هو إعلان الجهاد واللحاق بمحمد يونس وإخوانه ولكن من المؤسف أنهم فشلوا في الإتفاق على رأي وبدأوا سلسلة من الشقاق لم تتوقف حتى الآن (. ٤(

فعقب الهجرة رأت الزعامات بأن الجهاد ضد الحكم الشيوعي الآن يعد نوعا من الجنون والإنتحار نظرا للفارق الشاسع في العدد والعدة بين المجاهدين والجيش المدعوم بقوة الروس.

فلا بد حسب رأيهم من الإنتظار وتركيز الجهد على جمع الأموال من دول الإسلام لإعداد جيش مكتمل بالعدد والعتاد بما يماثل الجيش الحكومي ثم يبدأ الجهاد بعد ذلك. (٥)

وتبنى هذا الرأي جميع الأحزاب الإسلامية فيما عدا محمد يونس خالص وجماعته الذين تلقوا إنتقادات مريرة من باقي الجماعات الذين وصفوا محمد يونس بالتهور وعدم المسئولية وأضاف بعضهم لهذا الرأي رأيا آخر مفاده أن الجهاد ضد تراقي لا ينبغي أن يكون إسلاميا خالصا، بمعنى أنه يمكن أن يشمل كافة الإتجاهات المعارضة لحكم تراقي ولو كانت هذه الإتجاهات إقليمية قومية أو إشتراكية أو حتى شيوعية موالية للصين ومعارضة للإتجاه الشيوعي السوفييتي الذي يتبناه تراقي.

وأصحاب هذا الرأي دافعوا عن رأيهم هذا بأنه الأكثر عصرية والأكثر تقبلا من العالم الخارجي والدول الغربية بالذات (. ٦(

وأضاف بعضهم إلي أن المناداة بعودة ظاهر شاه ملكا تستميل الغرب إليهم أكثر ويكون أقرب لجذب التعاطف الدولي إليهم.

وهكذا أصبح منهجهم كالتالي:

٩.٩.٥ جهاد في الجبال ... وجهاد في بيشاور (8)

· المناداة بعودة ظاهر شاه ملكا.
· إنشاء جبهة مع كل القوى السياسية المعارضة لنظام تراقي بما فيها القوميين والشيوعيين.
· التركيز على جمع الأموال من الدول الإسلامية وإنشاء جيش تقليدي يواجه جيش السلطة.

وكانت هذه البنود الثلاثة سببا في إفشال كافة الجهود التي بذلت لتوحيد هذه الجماعات مع جماعة محمد يونس خالص الذي أبدى إستعداده لحل جماعته والإنضمام تحت لواء أي جماعة تقرر النزول إلى ميدان المعركة ضد الشيوعية (٧) على أساس إسلامي خالص وواضح ومعلن

وأن تتخلى تلك الجماعات عن تلك البنود الثلاثة على أساس:
أن ظاهر شاه هو الذي مكن للشيوعية من السيطرة، وساق البلاد إلى ما هي فيه من فتنة وحرب فكيف فكيف نادي به ملكا مرة أخرى؟.
إنشاء جبهة مع قوى سياسية على أساس غير إسلامي لا يعتبر جهادا لأن مفهوم الجهاد في الإسلام هو القتال لإعلاء كلمة الله وأن يكون الحكم لشرع الله فكيف نجاهد مع الشيوعيين ضد الشيوعيين بهدف أن يكون الحكم بعد الحرب مناصفة بين الإسلام والشيوعية. فهل يعقل هذا، وهل هو جائز شرعا؟ .. بالطبع لا.
التركيز على جمع الأموال أولا غير صحيح وغير جائز، لأن الجهاد أصبح فرض عين علي كل مسلم في تلك البلاد، وأن الواجب القيام به فورا بكل ما هو في مقدورنا واستطاعتنا من سلاح ومال وعتاد ومصداقا لقول الله تعالي (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فالعبرة إذن ببذل الجهد والإستطاعة ثم الإعتماد على الله بعد ذلك فما النصر إلا من عند الله) إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. (هذا وقد بذلت جهود لتوحيد هذه الجماعات من جانب شخصيات إسلامية كبيرة ولكن كل محاولة كان يعقبها مزيدا من التفتت والإنقسام.
جهاد في الجبال ... وجهاد في بيشاور (٨)
ذهب مولانا محمد يونس خالص في اليوم الثالث من إستيلاء تراقي على السلطة إلي ولاية ننجرهار مسقط رأسه وجمع حوله العلماء والشباب ورجال القبائل وكافة فئات المسلمين وبدأ حربا لا هوادة فيها في تلك المنطقة الجبلية.
وتوجه نائبه الأول مولانا جلال الدين حقاني إلى مسقط رأسه في ولاية باكتيا الشهيرة بمناطقها الجبلية الوعرة حيث بايعه رؤساء القبائل هناك أميرا للولاية من طرف محمد يونس خالص زعيم الحزب الإسلامي وحشد حقاني خلفه كل قادر على حمل السلاح في الولاية.
كما أرسل محمد يونس خالص بعض أتباعه إلي ولاية كونر لحشد المسلمين هناك وبدء الجهاد ضد قوات تراقي. وقد صادفت قوات المجاهدين بقيادة محمد يونس خالص نجاحا باهرا في السنة الأولى التي بدأ فيها الجهاد وتم تحرير
معظم أراضي هذه الولايات الثلاث وصار الحكم فيها إسلاميا والقيادة فيها لمحمد يونس خالص رئيس الحزب الإسلامي.
كما إنتشر الجهاد في كافة الولايات الأفغانية حتى الملاصق منها لحدود الإتحاد السوفييتي. وحتي كابول نفسها لم تخل من مصادمات مسلحة.
ولكن طبيعة القتال كانت تختلف، فالمناطق الجبلية سيطرت عليها قوات محمد يونس خالص سيطرة تامة وذلك في ولايتي ننجرهار وباكتيا ولم يتبق للحكومة في تلك المناطق إلا المدن الرئيسية تحميها قوات كبيرة من الجيش وسلاح الطيران الذي ركز جهوده في قصف قوات المجاهدين الذي نجحوا في تكوين قوات فدائية في مراكز قوية منتشرة بين الجبال واستغلوا الأسلحة الثقيلة التي غنموها في إحكام الحصار (٩) حول تلك الحاميات وقصفها بالمدافع والإشتباك مع سلاح الجو.
وهكذا بدأ قتال مرير وغير متكافئ في ولايتي ننجرهار وباكتيا ولكن الإيمان كان هوالمنتصر. وما زال فى هذا القتال دائرا.
وتمكن محمد يونس خالص وجلال الدين حقاني من تحرير معظم أراضي هاتين الولايتين خلال العام الأول من الجهاد، وإمتد نشاطهما ليشمل دعم عمليات القتال في الولايات المجاورة، وإمداد زعماء المجاهدين فيها بالسلاح والرجال، وتزويدهم بالخبرات التنظيمية والعسكرية (١٠) وذلك بغض النظر عن أي إنتماء حزبي أو قومي و بإعتبار أخوة الإسلام
التي تربط جميع المسلمين على هذه الأرض. وهكذا تبلورت قيادة الحزب الإسلامي للقتال وكان لتواجد زعمائه في وسط المعركة أثر كبير في دفع المجاهدين وتنظيم صفوفهم ورفع روحهم المعنوية. وجد المسلمون في ننجرهار وباكتيا وكونر وغزني وغيرها وجدوا قيادات مخلصة متفانية تخوض القتال بنفسها، فالتفوا حولها رافعين جميعا راية الإسلام فلا أحزاب ولا قوميات.
وحتى ضباط الجيش المسلمين والمعارضين لحكم تراقي الشيوعي نسقوا مع قيادات محمد يونس خالص، مجموعة من الإنتفاضات في كثير من المواقع أدت إلى قتل كثير من المستشارين الروس وضباط حزب خلق الحاكم وأدت إلى إرباك قيادات الجيش. وخسرت الحكومة كثيرامن المواقع والمعارك نتيجة لهذا التنسيق. وانضم عشرات من الضباط مع جنودهم وكامل أسلحتهم إلى المجاهدين وما زالت تلك الإتصالات والتنسيق جار حتى الآن بين الضباط المسملين والقيادة العسكرية لمحمد يونس خالص وما الإتنفاضات العسكرية

الأخيرة في كابول إلا من نتائج هذا التنسيق.
ولولا وجود تلك القيادات الإسلامية المخلصة داخل ميدان القتال لما أمكن إحراز هذه الإنتصارات الكبيرة في هذا الوقت القليل (١١)
وكنتيجة لهذه الإنتصارات الباهرة إمتدت حركة المقاومة الإسلامية لتشمل معظم ولايات أفغانستان، بما فيها تلك الولايات المجاورة لحدود الإتحاد السوفييتي وبدأت فيها عمليات الإغتيال لأعضاء حزب خلق وإلقاء القنابل على معسكرات الجيش ومنازل الشيوعيين والمستشارين الروس. واستمر القتال على هذا

٩.٩.٠٦ الوضع العسكري والوضع الإقتصادي:

المنوال في الولايات غير الجبلية والتي لا تساعد طبيعتها علي حرب عصابات كبيرة ومنظمة، كما في ولايتي ننجرهار وباكتيا التي تطور القتال فيها ليصبح هجوما مركزا علي محاور ثلاث هدفها كابول العاصمة.
وبالمقابل ركز الجيش معظم قواته لصد هذا الزحف وحماية العاصمة. وتم الإتصال بين قادة المجاهدين في مختلف الولايات وبين مركز قيادة محمد يونس خالص، وأعربوا له عن إتفاقهم معه في الهدف الأساسي من شن هذه الحرب وهو إقامة حكم إسلامي كامل يشمل أفغانستان كلها يكون دستوره هو القرآن الكريم والسنة النبوية، وبايعوا محمد يونس زعيما لهم، وأعربوا عن تخليهم عن كافة الزعامات التي إرتضت لنفسها الفرار من ميدان الجهاد والجلوس في بيشاور لإصدار البيانات وممارسة عمل إعلامي مكثف لترسم لنفسها دور الزعامة المجاهدة (١٢)
وكان ذلك هو فعلا واقع الزعامات الإسلامية في بيشاور فقد جمع الزعماء من حولهم عددا كبيرا من الأنصار والمثقفين وباشروا في إصدار الكتيبات والبيانات العسكرية وأرسلوا الوفود لتطوف بالعالم الإسلامي، وكل وفد يقدم نفسه بأنه القائد الفعلي للجهاد في أفغانستان وأنه الوحيد الذي يتحمل التبعات على كتفه. وقد حقق بعضهم نجاحات كبيرة في هذا المجال وأصبحت لهم قدم راسخة في مجال الدعاية والإعلان عن بضاعتهم الفاسدة (١٣)
وهكذا بدأت جماعات بيشاور الجهاد المضاد أو الجهاد المعاكس وتكونت جماعات من نمط جديد من المجاهدين عبارة عن عصابات لخطف الغنائم ليس إلا وتنسب نفسها لهذا الحزب أو ذاك من أحزاب القاعدين في بيشاور، وكانت تلك أقسى ضربة مؤلمة لحركة الجهاد و المجاهدين منذ بدء الحرب في أفغانستان، إذ إنشقت الصفوف التي وحدتها كلمة التوحيد وظهرت جماعات خطف الغنائم تحوم حول مواقع القتال حيث ينهمك إخوانهم في حصار وضرب الحاميات الحكومية لأسابيع وشهور، حتي إذا جاءت اللحظة الحاسمة وإستسلمت الحامية إنقضوا بسرعه البرق واختطفوا الغنائم ليصبح قانون الغنيمة لمن أخذها أول تصدع يصيب صفوف المجاهدين ويهدد بحدوث الحرب فيما بينهم، لولا قدرة أمراء محمد يونس خالص على كبح زمام جنودهم.
وأصبح الهم الأساسي لقيادة محمد يونس خالص هي الخروج من هذا المأزق و إعادة الوحدة بين المجاهدين. ولكن زعماء بيشاور ما زالوا يسخرون مواردهم المالية الضخمة في تكريس هذا الإنفصام وتوسيع شقته إرضاء لنوازع شخصية وأهداف غير إسلامية ((١٤
الوضع العسكري والوضع الإقتصادي:
بالنسبة لمناطق القتال الرئيسية، فإن الوضع العسكري للمجاهدين يعتبر جيد، والمبادرة العسكرية في يدهم رغم الفارق الهائل في المعدات بينهم وبين الجيش الحكومي، حيث يلتزم الجيس الآن بموقف الدفاع فيركز قواته في مناطق استراتيجية حول المدن الرئيسية التي تعترض طرق زحف المجاهدين نحو العاصمة.
وكان دافع الإيمان المطلق بالله وإعتقادهم بأن قتالهم إنما هو لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الإسلام ضد الكفر والإلحاد هو أخطر سلاح يعمل في جانب المجاهدين ويكسبهم الطابع الهجومى فى الحرب، رغم عدم التكافؤ الواضح فى نوعية وكمية الأسلحة لدى الطرفين يقابل ذلك إنهيار المعنويات لدى قوات الحكومة وتحينها الفرصة للفرار للإنضمام للمجاهدين وأحيانا إلي قتل المستشارين الروس وضباط حزب خلق والإنضمام إلي إخوانهم المسلمين.
ومن جانب آخر فإن الحرب الأفغانية دخلت مرحلة جديدة أطلق عليها بعض المحللين مرحلة الهجوم الإستراتيجي وهي مرحلة إجتياح

المدن الحصينة وهي مرحلة تستلزم كما وفيرا من الأسلحة الثقيلة وهي متوفرة إلى حد ما وكمًا وفيرا من الذخائر لتلك الأسلحة وهي غير متوفرة لأسباب مالية. ومثل ذلك الهجوم يستلزم أسلحة فعالة للدفاع الجوي، وهذا غير متوفر لدى المجاهدين بالقدر الكافي ((١٥
ومن هنا فإن المجاهدين في حاجة ماسة إلى تدعيم أسلحتهم المضادة للدبابات وأسلحتهم المضادة للطائرات وذلك كمطلب أساسي لتطويرهجومهم علي القلاع الحكومية والتصدي لسلاح الجو الشيوعي الذي يدعمه الروس بشكل مكثف في الأشهر الأخيرة.
وتلك المرحلة من الحرب بدأت منذ أشهر قليلة وتقدم المجاهدين فيها يسير ببطء شديد، لنقص المعدات اللازمة من ناحية ومن الآثار السلبية لعملية) الجهاد المعاكس) من ناحية أخرى، وللصعوبات الإقتصادة من ناحية ثالثة. فمن المعلوم أن الفئة الإسلامية المحاربة هي أكثر الفئات فقرا وأقلها شهرة في العالم الإسلامي وأكثرها تعرضا للتشهير والهجوم (١٦) من جماعات الجهاد المعاكس في بيشاور، التي إستقطبت معظم مصادر المساعدة والعون وتفننت في وسائل الدعاية وجلب الأموال. والأموال المتوفرة لدى جماعة محمد يونس خالص تكفي بالكاد لدفع الحرب في معدلها الحالي البطيء وليس لها قدرة على شراء ذخائر بالكثافة المطلوبة.
كما أن الوضع الغذائي للمجاهدين سيء للغاية ويقتصر غذائهم على الشاي والخبز الأسود ونادرا ما يزيد الطعام عن ذلك ((١٧
بالإضافة إلي أن القصف الجوي وإنقطاع الطرق أدى إلى إختناق إقتصادي شبه كامل في الأراضي المحررة، يدفع الأهالي إلى النزوح إلى باكستان وهذا الوضع إذا استمر مع قدوم شهور الشتاء القاسية يهدد بأن تفرغ الولايات المحررة من السكان ويسهل على الحكومة أن تنشر قواتها وتستولي على أرض خالية من السكان (١٨)
وكإجراء وقائي لذلك تسعى قيادة محمد يونس خالص إلي تخزين مؤن تكفي الأهالي وتكفي المجاهدين لفصل الشتاء، وذخائر لتموين العمليات العسكرية في الشتاء. وإذا كانت الموارد المالية. للجماعة لا تكفي مطالبها اليومية فكيف بالتخزين لفصل كامل؟ ((١٩

٩.٩.٧ الموقف الروسى

٩.٩.٨ موقف باكستان من الحرب

الموقف الروسى
لا يبدو أن الروس عازمون على التقليل من دعمهم لنظام تراقي ولن يتخلوا عن مكاسبهم التي حققوها في أفغانستان.
وقد أشار مراسل صحيفة الجارديان البريطانية في تقرير له من كابول، بأن القدرات العسكرية السوفييتية والخبراء العسكريين السوفييت يدافعون عن العاصمة كابول، وأن المقاتلات السوفييتية كانت تقوم بقصف القوات العسكرية التي تمردت أخيرا في العاصمة.
وأشار المراسل إلى أن جميع الدلائل تبين أن الروس لن يتخلوا أبدا عن أفغانستان على الرغم من عزلة حكومة تراقي وضعف الإجراءات الأمنية وتزايد النقمة الشعبية ضد السوفييت ((٢٠
وقد علل تمسك السوفييت بالسيطرة على أفغانستان بالأسباب التالية:
- الأطماع التقليدية للسوفييت في أفغانستان.
- خطر حدوث ثورة إسلامية في جنوب الإتحاد السوفييتي، إذا ظهر للمسلمين هناك أن تحرر إخوانهم في أفغانستان قد دحر القدرات العسكرية بالسوفييتية
وذكر المراسل أن الإتحاد السوفيتي أرسل عددا من الجنرالات الكبار لتقييم الوضع العسكري في أفغانستان بقيادة القومسيار السياسي للجيش السوفييتي في شهر أبريل الماضي. ومنذ ذلك الحين تدفقت كميات هائلة من الأسلحة الروسية وتحولت أفغانستان إلى ترسانة أسلحة ضخمة ((٢١
ونحن نضيف إلى تلك المعلومات حقائق أخرى خطيرة تكشف لقيادة المجاهدين في ولاية باكتيا.
وهي أن عناصر شيوعية وعلى صلة بحزب ذو الفقارعلي بوتو كانت تشتري الأسلحة الثقيلة التي تعرض للبيع في منطقة وزيرستان والتي غنمها الأهالي من قوات الجيش وكانوا يعرضون أثمانا خيالية مقابل تلك الأسلحة وكانت العادة أن تقوم جماعة محمد يونس بإعادة شراء هذه الأسلحة لاستخدامها في القتال (٢٢) وقد تم إعتقال هؤلاء الأشخاص والتحقيق معهم.

وعلم أن لهم صلات بالشيوعيين في باكستان، وكذلك حزب بوتو وحزب خلق الحاكم في أفغانستان. وهكذا تمتد خيوط المؤامرة الروسية إلي المحطة القادمة وهي باكستان، سعيا نحو وصول القوات الروسية إلي المحيط الهندي ثم ... الجزيرة العربية. وقد أخطر المجاهدون حكومة. باكستان بالمعلومات التي وصلتهم (٢٣).
موقف باكستان من الحرب
لا شك أن الحكومة الباكستانية تشعر بالقلق الشديد من إمتداد النفوذ الروسي إلى أفغانستان ليقف إلى حدودها مباشرة، بل ويهدد بشكل سافر بإشعال فتنة في باكستان، تنتهي بإستيلاء الشيوعيين على البلاد أوعلى جزء منها يعبر منه

٩.٩.٩ موقف البلاد الإسلامية والعربية

٩.٩.١٠ ما هو الحل؟؟

الروس إلي المحيط الهندي عبر أفغانستان وباكستان، لتبدأ مرحلة الغزو الأخيرة في جزيرة العرب حيث الصراع الدولي من أجل النفط.
ولكن الحكومة الباكستانية أصرت على إبراز أنها لا ترغب في التدخل في الصراع الدائر وهي بالفعل لا تقدم للمجاهدين مساعدات من أي نوع، وهذا يثير المرارة في نفوس المجاهدين (٢٤).
حتى مساعدات باكستان للمهاجرين فإنها مقصورة على المهاجرين القدماء الذين فروا قبل الحرب، وهي مساعدات لا تكاد تسد رمقهم، والبيوت والخيام تعطيها الحكومة الباكستانية لهم هى بالإيجار الشهري ((٢٥ وقد منعت الحكومة الباكستانية الجنود الفارين من جيش تراقي أن يدخلوا البلاد كلاجئين.
ويحكي المجاهدون قصة حدثت منذ شهور عن طيار أفغاني يدعى عبدالرحمن فر بطائرته ولجأ إلى باكستان فقامت الحكومة الباكستانية بإعادته وطائرته إلى سلطات كابول ليتم إعدامه هناك فور وصوله ((٢٦ ويشعر المجاهدون أن موقف الحكومة الباكستانية يتسم بالتقصير والسلبية.
موقف البلاد الإسلامية والعربية
لا شك أن جهاد الأفغانيين يحظى بتعاطف إسلامي كبير ولكنه تعاطف في أغلبه سلبي ما عدا إيران التي تقدم بعض المساعدات للاجئين على أرضها وتقدم دعما إعلاميا لقضية أفغانستان، ويقال أنها تقدم بعض السلاح للمجاهدين في ولاية هيرات المجاورة لها (٢٧).
أما على ساحة القتال الفعلي فالدعم الوحيد الذي وصل المجاهدين كان من دولة الإمارات عن طريق وفد أرسله محمد يونس خالص لجمع التبرعات من المساجد وكان هذا المال هو الدعم الإسلامي الوحيد الذي وصل إلى المجاهدين الحقيقيين غير مبلغ المليون روبية الذي وصل إليهم أخيرا من الإمارات.
أما الأموال الطائلة التي جمعت في السعودية وباقي دول الخليج فقد ذهبت بالكامل إلى جماعات الجهاد المعاكس لتستخدم في شق صفوف المجاهدين وتحويل طائفة منهم إلى خاطفي غنائم.
وقد قدمت الحكومات الإسلامية أوجه الدعم في الإتجاه الخاطئ حتى الآن ويرجع ذلك إلى الإنشقاق القائم في صفوف الحركة الإسلامية وإلى عدم إعطاء الحكومات والهيئات الإسلامية قضية الجهاد ضد الشيوعية في أفغانستان قدرا كافيا من الإهتمام والتقصي واتخاذ الموقف القوي والحاسم تجاه هذه القضية الخطيرة التي تهدد أمن هذه ادول وعقيدتها جميعا (٢٨)
ما هو الحل؟؟
في الوقت الذي يركز الروس جهودهم لتعزيز قبضتهم على تلك البلاد المسلمة نجد أن المجاهدين في مواقع القتال يقفون بمفردهم وقد تخلي عنهم إخوانهم المسلمون وشغلتهم أمور دنياهم عن أمور دينهم.
وأخذت أحزاب القاعدين في بيشاور في عرقلة الجهاد وتضليل الرأي العام الإسلامي، وإنساق المسلمون في تأييد هذا أو مساعدة ذاك بلا تحقيق ولا تدقيق

٩.٩.١١ إذا ما هو الحل؟

وهم يحسبون أنهم بهذا يحسنون صنعا في الوقت الذي تستخدم فيه أموالهم لشق صفوف المسلمين وإفساد ذات البين، بين المجاهدين ولدعم طائفة إستمرأت القعود عن الجهاد وجمع الأموال بدون وجه حق.
إذا ما هو الحل؟
ما هو الحل حتى نتحرك الآن قبل أن يدهمنا الشيوعيون في بيوتنا ...
وقبل أن نجد تراقي آخر فيما بيننا يمزق القرآن ويستبيح حرمات المسلمين ويطلق النار علي صدر من يعترض؟.

الحل فيما نرى سهل وميسور إذا خلصت النية لله تعالى. وفي مقدور دولة واحدة من دول الخليج أن تقدم دعاما فعالا وقويا ولن يكون باهظ التكلفة والدعم الآن أفضل لأن المجاهدين ما زالوا رغم كل شيء في الوضع الأقوى والوضع المهاجم.

هذا الدعم يكون فعالا إذا وضع في مكانه المناسب ووصل إلى الأيدي الطاهرة التي تقاتل وتستشهد وليس في بطونها إلا كسرات من الخبز الجاف. ومن واقع ما طلبه قائد المجاهدين في ولاية باكتيا فإن المطلوب هو:

أولا: دعم مالي لشراء أغذية للمجاهدين فكثيرا منهم يضطر إلى ترك الجهاد للسعي وراء لقمة عيشه وعيش أولاده ومن بقى منهم للجهاد لا يجد طعاما إلا بشق الأنفس.

ثانيا: أسلحة وذخائر مضادة للدبابات وأسلحة وذخائر مضادة للطائرات أو أموال كافية لشراء اللازم منها.

ثالثا: محطة إرسال إذاعي لتحقيق الإتصال بين المجاهدين في كافة الولايات ولنشر أنباء الجهاد على أبناء الشعب وشرح حقيقة ما يجري لأفراد الجيش للتأثير على معنوياته.

رابعا: بذل رعاية كافية لأسر المجاهدين والشهداء الذين هاجروا إلى باكستان والذين يعيشون علي الكفاف ولا يجدون الملبس أو الطعام. ولا يستطيع رجالهم السعي وراء الرزق بسبب إنشغالهم بالجهاد.

هذا ما يطلبه المجاهدون من إخوانهم المسلمين. وهذا هو نصيبنا نحن من حصة الجهاد وفرضيته على دولنا التي لديها المال .. فرض عين كالصلاة والصوم. وعليها القيام به بقوة وعزم وإخلاص النية لله وخدمة دين الله.

وقد طلب بعض أنصار محمد يونس خالص أن يذهب الرجل بنفسه إلى دول الخليج لشرع القضية ويأتي بالأموال، فرفض وقال لهم: إن إعتمادي علي الله وحده وهو الذي وعدنا بقوله) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب (

هذا وقد أفادت آخر الأنباء التي وردت من طرف المجاهدين أن ثلاثة من الأحزاب الإسلامية قد إنضمت تحت زعام ة محمد يونس خالص وبقيت الآن جماعتان فقط تعمل بشكل منفرد وهما جماعة قلب الدين) الحزب الإسلامي (وجماعة السيد أحمد الجيلاني ومعروف عن قلب الدين شدة طموحه الشخصي وإلتفاف عدد من المتعلمين حوله وله مكاتب سياسية فعالة في باكستان، لذا فهو الأكثر شعبية لدى الرأي العام الإسلامي في الخارج وتمكن من جمع أموال هائلة من منطقة الخليج والسعودية يقوم بإستخدامها على نفقات أعوانه حيث تمكن من تجنيد بعض جماعات البحث عن الغنائم.

وقد أفادت أنباء المجاهدين عن تقدم محسوس في القتال بعد إتحاد الجماعات الإسلامية ونرجو الله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين وأن ينصر المجاهدين ويرد عنا كيد الملحدين إنه على كل شيء قدير.
كتب فى يوليو ١٩٧٩ م
****

٩.١٠ وندخل الآن إلى تعليقات على التقرير السابق

٩.١٠.١ (1) مولوي محمد يونس خالص

وندخل الآن إلى تعليقات على التقرير السابق
(١) مولوي محمد يونس خالص

مولوي يونس خالص كان من الأسماء اللامعة كقائد ميداني ورئيس تنظيم جهادي هو الحزب الإسلامي. وأسباب بريقه في ذلك الوقت كونه عالم وقائد ميداني ورئيس تنظيم جهادي.

التوفيق عمليات خالص العسكرية، وتحالفه مع جلال الدين حقاني في ولاية باكتيا الهامة ونجاحات حقاني هناك التي أضيفت إلى رصيد خاص وتنظمه، وكون الرجلين من العلماء المجاهدين والناجحين فقد تهافت عليهما العلماء من شاكلتهما طالبين منهما العون والمساعدة.

ومن عام ١٩٧٨ محتى عام ١٩٨٠ م كان ذلك التيار العلماي أو المولوية كما أطلق عليهم قادة أحزاب بيشاور تصغيرا لشأنهم كان ذلك التيار هو المرشح لتولي زمام قيادة الجهاد.

باعتباره القيادة الدينية الطبيعية للشعب الأفغاني خارج المدن وكما سنرى لاحقا من تطورات الجهاد في السنوات التالية، مرحلة تدويل القضية، وهي نفسها مرحلة السعى لتدمير الجهاد كفكرة ونشاط ديني قتالي وتحويله إلى عمل قتالي ذو أهداف سياسية لادينية. في تلك المراحل تم إضعاف يونس خالص وحزبه وصار مثل باقي الأحزاب الأخرى.

وخالص نفسه إنكمش داخل الحزب ليتحول إلى مجرد رمز وأب روحي. وأدار الحزب نيابة عنه الإخوة الثلاثة: دين محمد- عبد الحق- عبد القدير. وهم من أسرة غنية في جلال آباد مشهورة بمقاومة الشيوعيين وتمتع بسمعة طيبة وروح إسلامية واضحة. ثلاثتهم من النشطين الأذكياء، وكانت قيادة دين محمد للحزب هي الأوضح، وعبد الحق تخصص في إدارة عمليات في كابل، وعبد القدير كان له نشاطه الإقتصادي غير المشروع في غالبه وكان على صلة طيبة بالقبائل) شيعة وسنة (وبعصابات الإجرام والتهريب. وساعده ذلك كثيرا في

إستخدام منطقة الحدود لصالح حركة المجاهدين، ولصالحه الخاص في نفس الوقت. وقد أصبح) حاجي قدير (كما يسمونه الآن، أصبح واليا لمحافظة جلال آباد كما أنه يعتبر حاليا الحليف الأول للسياسة الأمريكية ومشاريع الأمم المتحدة في المنطقة وأول من إتخذ خطوات عملية معادية للمجاهدين العرب حسب طلبات أمريكا ولكنه لم يتمادى في ذلك كثيرا.

لكن ما فعله كان كافيا لإفهام العرب أن لا مكان لهم بعد الآن في أفغانستان عامة وجلال آباد خاصة، ولذلك حديث آخر.

لقد ركزت أمريكا على إستبعاد القيادات الدينية عن جهاد أفغانستان، لأنهم تيار عميق الجذور يستمد قوته العملية من إحترام وخضوع الناس لهم.

وفضلت أمريكا كالعادة دائما إستخدام تيارات سياسية وقيادات لا تمتع بمصادر قوة داخل أراضيها بل تعتمد كليا على تلك المصادر التي تأتيهم من الخارج. وعلى هذا تم اعتماد تيارات وأشخاص هامشيين وهم تيار الإخوان المسلمين،

وهو تيار هامشي جدا في المجتمع الأفغاني بل متهم دينيا ومكروه إجتماعيا ومحصور في شريحة رقيقة للغاية من مثقفي كابل خاصة.

أما الشخصيات التي حملت الدعوة الإخوانية ومثلتها في القيادات الأفغانية فكانوا برهان الدين رباني، قلب الدين حكمتيار، ثم سياف بعد الإفراج عنه في مطلع عام ١٩٨٠ على يد القوات الروسية.

ولا يمتع أي منهم بثقل قبائلي قوي، فهم من أسر وقبائل ضعيفة وينتمون إلى تيار منبوذ ومتهم دينيا على المستوى الشعبي.

ومن المفارقات أن يكون التيار الإخواني في أفغانستان هو الأكثر طواعية وخدمة للسياسة الأمريكية في القضية.

ولاقى تأييدا مطلقا من الإمتداد الدولي للإخوان المسلمين ونسختها الباكستانية الجماعة الإسلامية. وتم ذلك التعاون الأمريكي/ الإخواني بحرص شديد وتحت ستار مناورات تضليلية حتى لا يظهر ذلك التعاون، بل ظهرت صورة مخالفة تماما عبارة عن إشتباكات لسانية بين أمريكا والتيارالأصولي الأفغاني يقصدون تيار الإخوان.

ولكن الصورة ظهرت جلية مثل ضوء الشمس عندما تم الفتح وسيطرت الأصولية الإخوانية على الحكم في كابل وبدأت برنامج الحرب الأهلية غير المقدسة مع برنامج التضييق على العرب المجاهدين ودفعهم خارج أفغانستان ثم حصار أي عمل جهادي في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى.

وقد نجحوا، خاصة برهان الدين رباني رئيس الدولة وسياف ذراعه الأيمن،

في تدجين حزب النهضة الطاجيكي ودفعه قصرا وغواية إلى التسليم لمخططات أمريكا والأمم المتحدة وترك السلاح ودخول دهاليز التآمر السياسي.

أما التيار الثاني في أحزاب المجاهدين الأفغان فكان ذلك التيار الغربي أو المعتدل وهو متحالف علنا بلا مواربة مع الغرب ويرى فيه الحليف الطبيعي في مواجهة السوفييت، ولا غنى عن مساعدته العسكرية والسياسية والمالية لمواصلة الضغط على السوفييت ودفعهم إلى الإنسحاب أو حل وسط مشترك يضمن مصالح الكتلتين في أفغانستان. وقد مثل ذلك التيار السيد أحمد جيلاني وهو أقوى رموز التيار الغربي وصبغة الله مجددي ثم محمد نبي محمدي.

وجيلاني كان مرشحا لدور أكثر نشاطا في أفغانستان لارتكازه على زعامة تاريخية لطريقة صوفية شهيرة وقوية في عدة ولايات أفغانية. لكن الرجل غير مؤهل لأى دور ميداني، ويصلح فقط للقيادة السياسية في المنفى لكونه غربي حتى النخاع في فكره وحياته الخاصة. للرجل مصدر قوة داخلي متمثل في أتباع طريقته وله علاقات قوية مع بريطانيا حيث تعيش إبنته تحت الأضواء حياة الأميرات. ولكلا السببين لم يكن يحظى بثقة أمريكية كبيرة.

أما مجددي الذي ينتمي لعائلة دينية شهيرة لكنها غير قوية وهو نفسه عصبي ومهتز الأعصاب لذا كان دوره هو الآخر محدود ميدانيا. وكذلك حزبه كان هامشيا في القتال.

أما محمد نبي محمدي وهو عالم ديني كان على صلة طيبة بالملك ظاهر شاه، دخل معترك الأحزاب في محاولة توفيقية بين حكمتيار ورباني حيث كونا إتحادا جديدا برئاسة محمدي، الضعيف، ثم تمردا عليه وتركاه ولكنه إستمر في رئاسة الحل الوسط أو التنظيم الجديد المسمى حركة "إنقلاب إسلامي " وكان الرجل رغم طيبته خاملا ضعيفا، ترك إدارة حزبه لإبنه الأكبر أحمد الذي كان فاسدا ذو بطانة شيطانية من أصدقائه الشباب.

وتصرف أحمد في الحزب كأحد ممتلكات العائلة فأضعف الحزب كثيرا خاصة بعدما إنفصل عن الحزب قوته المحركة، مولوي نصر الله منصور وكون تنظيما منشقا تحت نفس الإسم.

لكن منصور ضعف تماما عام ١٩٨٦ بعد فترة بريق ونشاط عندما قررت أمريكا تجميده إثر تصريحات غير ودية ألقاها في أمريكا أثناء رحلته هناك.

هكذا كان خالص أملا حقيقيا في زعامة إسلامية صحيحة للجهاد في أفغانستان. ولكنه أمل إنتهى مبكرا ولم يكد يشعر به أحد خاصة من العرب الحركيين، الذين حددت حركتهم ونظرتهم للواقع السياسي الأفغانى الدعايات الصاخبة للإخوان الدوليين الذين صوروا التيار الإخواني في أفغانستان أنه القيادة المنشودة والتي تنافس في صفاتها الإسلامية الصحابة رضوان الله عليهم هذا إذا لم تتفوق عليهم في صفات عديدة.

وقد ساعدت أمريكا وحلفاؤها العرب في الترويج لذلك التيار عبر الهجوم عليه، وهو أسلوب غير مباشر في التروج أصبح شهيرًا في المنطقة العربية و الإسلامية.

وهكذا فإن التيار الجهادي العربي المناصر للأفغان قد وقع بكامله تقريبا في حبائل إخوان أفغانستان وقياداتهم الفاسدة إن لم نقل الخائنة وهو الوصف الأكثر دقة. وكان التعصب لهؤلاء القادة على أشده بحيث كان مستحيلا الوقوف في وجه ذلك التيار أو انتقاده. وقد زاد الطين بلة وقوف الشيخ عبد الله عزام رحمه الله إلى جانب هذا التيار القيادي الفاسد.

ورغم أنه إكتشف حقيقتهم منذ عام ١٩٨٦ على الأقل، وكان قد وصلته آراء معارضة للقيادات الأفغانية الخائنة وهو وصف يشمل الجميع الأصوليين والغربيين المعتدلين على السواء وكان الإخواني العتيد أبو أسامة عبد العزيز علي أول من نادى بذلك الرأي منذ عام ١٩٧٩ بل وطالب بإعدامهم إذا لم يتوحدوا على رأي قائد واحد، وتعيين زعيم جديد للجهاد.

وكنت محسوبا مع التيار المعارض للقيادات الأفغانية الفاسدة الخائنة منذ مقالات بدأت في نشرها في الإتحاد عام ١٩٨٦ تكلمت فيها عن أخطاء فادحة داخل تلك المنظمات.

الشيخ عبد الله كان هو الأثقل وزنا والرمز البارز والمؤثر للعمل العربي الجهادي، حتى أنه كان مشروعا لقائد إسلامي عالمي يتخطى حدود النظرة القطرية والعمل الوطني الإسلامي، وذلك في ظني على الأقل.

موقف الشيخ عبد الله عزام حتى لحظاته الأخيرة في المساندة العلنية غير المحدودة للقادة الأفغان الأصوليين كان من أكبر أخطائه

العملية على الساحة الأفغانية. فقد رمى بثقله في الإتجاه الخاطئ وكان لذلك آثاره السلبية جدا على أفغانستان والمجاهدين العرب وظهر ذلك واضحا بعد وفاة الشيخ عبد الله، ثم كان أكثر وضوحا من ضوء الشمس عندما جاء الفتح الذي تحول على أيدي الأصوليين الأفغان وإخوانهم المعتدلين إلى كارثة إسلامية.

وذلك بدون أن نجحد الإيجابيات التي تحققت على الساحة الأفغانية والتي جاءت رغما عن الجميع سواء السوفييت أو الأمريكان أو عملائهما من عجم وعرب من أفراد وحكومات وتنظيمات إسلامية وجهادية.

نعود إلى الشيخ خالص ونكرر أنه كان مشروعا قياديا إسلاميا مجهضا على ساحة أفغانستان.

ويلاحظ في تقريرنا الأول الوقوع إلى حد ما في المبالغات الحزبية وهو نفس الخطأ الذي تكرر على إمتداد الحقبة الأفغانية فكل عربي كان يقع في حبال أحد التنظيمات ويقبل بلا مناقشة وجهات النظر السائدة داخل دوائر وقيادات ذلك الحزب وهي كما إتضح وجهات نظر بعيدة في مجملها عن الحقيقة غير منصفة للآخرين، تبالغ كثيرا في أهميتها، وتنسب إلى نفسها وإلى زعاماتها أمجادا ومآثرا زائفة في معظمها.

٢ - في تقريرنا الأول عندما أقرأه الآن:

أشعر أن مولوي خالص كان مسيطرا تقريبا على الم قف القتالي الجهادي داخل أفغانستان، وأنه محل إجماع وموافقة الشعب كله بمختلف فئاته، وهذا غير صحيح وفيه الكثير من المبالغة.

فأقصى ما يمكن قوله عن وضع مولوي خالص في ذلك الوقت المبكر للجهاد أنه كان شيئا هاما أو هاما جدا ولكنه مع ذلك لم يكن أكثر من مشروع قيادة يقود مشروعا تنظيميا للجهاد في أفغانستان. وأن التحديات أمامه كانت خطيرة وجسيمة ليس فقط من الدولة التي يقاومها أو حلفائها السوفييت، بل الأخطر كان المقاومة الإسلامية نفسها والمتمثله بالقادة الإسلاميين من إخوان و معتدلين وباكستان التي كانت تحتضنهم في أحضان الموت وتشرف على حركتهم.

وكانت كأي دولة تحتضن حركة معارضة لا ترغب إطلاقا في رؤية تيار مستقل عن إرادتها أو قيادة مستقلة في قرارها من بين هؤلاء الأفغان اللاجئين على أراضيها.

إن إجراءات التحجيم ضد غير المرغوب فيهم كانت مستمرة طوال حركة الجهاد وحتى آخر لحظاته. وهي إجراءات عديدة تبدأ بالرشوة وتنتهي بالإغتيال وتمر بالحصار الإقتصادي وتلويث السمعة وإطلاق الإشاعات.

وقد مورست كل تلك المهارات ضد خالص وحقاني ومنصور ومئات غيرهم. قلة نادرة هي التي تمكنت من الإفلات من ذلك العنكبوت الشيطاني والجميع قد أصابتهم سهامه وأثرت فيهم لدرجة أو أخرى.

٩.١.٠٢ الصحافة الغربية وأجهزة المخابرات

٣ - الصحافة الغربية وأجهزة المخابرات

ترتبط الصحافة في الغرب إرتباطا وثيقا مع أجهزة المخابرات سواء بالتوظيف المباشر أو بالتعاون المتفاهم.

وفي كل الأحوال لا يمكن لتلك الصحف أن تخالف المصالح العليا لبلادها،

بدون إعتبار توافق أو تعارض تلك المصالح مع العدل والحق. وتعارض تلك الصحف أحيانا مع كوماتها ينبع من صراع المصالح بين التكتلات الإقتصادية الكبرى داخل تلك المجتمعات وليس من أي دافع أخلاقي.

ولكنها دوما تغطي نفسها بدعاوى أخلاقية ولا تظهر ذلك الجانب المادي الفظ

الذي يشكل حقيقة مواقفها على الدوام. تماما كما يشكل حقيقة المواقف السياسية والعسكرية للغرب الصليبي.

لقد أظهر الغرب وصحافته التأييد للأفغان طبقا لمصالحه الخاصة، وكان دوما معاديا للإسلام وقضايا المسلمين.

صحف الغرب دأبت دوما على ترويج معلومات تسربها إليها أجهزة المخابرات،

وأيضا مواقف ووجهات نظر تخدم مصالح دول الغرب.

في بداية الحرب الأفغانية كانت صحف الغرب تستقي أهم معلوماتها من أجهزة إستخبارات بلادها. وكانت تشير أحيانا إلى المصدر الإستخبارى.
في مرحلة تدويل القضية الأفغانية أنشأت الولايات المتحدة مراكز إعلامية تابعة لسفارتها في العاصمة الباكستانية إسلام آباد وفي مدينة بيشاورالحدودية، المركز الإداري والسياسي للمجاهدين الأفغان.
تلك المراكز خاصة مركز العاصمة كان محطة أساسية لجميع المراسلين الأجانب المقيمين في باكستان أو الوافدين إليها بغرض تغطية بعض الأحداث الأفغانية.
وكان إجتماع الثلاثاء الذي يعقده مركز إسلام آباد ثروة معلوماتية يدعى إليها الغربيون والصحفيون الأصدقاء من الغرب والشرق.
وكان إتفاقا بين المركز الإعلامي الأمريكي ومريديه أنه عند إستخدام المعلومات التي يقدمها إليهم أن يشار إليها بعبارة "صرح مصدر دبلوماسي غربي في إسلام آباد"، رغم أن المصدر هو إستخبارى ومراجعة تقارير صحافة الغرب ووكالات الأنباء لتلك الفترة توضح مدى المجهود الإعلامي الذي مارسته الإستخبارات الأمريكية ومدى تعاون صحافة الغرب معها في ذلك المجهود.
ومن المحزن هو ذلك التهافت من جانب الأفغان على إستجلاب واسترضاء الصحفيين الغربيين وكشف كل ما لديهم أمام هؤلاء الصليبيين وبعد الفتح تحول الغرب خاصة الولايات المتحدة وأممها المتحدة إلى قبلة الأفغان، وموضع رجاء الشعب بشكل عام.
وللأسف فإن الإساءة إلى المجاهدين العرب كان ضمن الثمن المدفوع لقاء هذا الإسترضاء

٩.١.٠٣ دموية وحماقة الشيوعيين

دموية وحماقة الشيوعيين
اشتهر الشيوعيون في كل مكان باعتماد أسلوب التصفية الدموية لخصومهم، بهدف الوصول إلي دولة إيديولوجية خالصة لا ينافس الماركسية فيها مذهب آخر وقد عانى الأفغان من الأسلوب الذي مورس ضدهم بطريقة منهجية وبأحدث الأساليب و الأسلحة، حتى أن تعداد القتلي والمشردين المهاجرين فاق ثلث مجموع السكان. هذا غير المعاقين والأيتام ناهيك عن القتلى المتساقطين يوميا حتى الآن بسبب الألغام التي تقدر بأكثر من عشرة ملايين لغم على الأقل. وقفزت بعض التقديران بهذا الرقم إلى مائة مليون لغم.
وحسب تقارير الأمم المتحدة فإن ذلك سوف يستمر لزمن قادم مقداره مائة وخمسون قرنا فقط!!.
ومع كل ذلك الإجرام فإن القادة الجهاديين من الأصوليين، قد تحالفوا في سبيل الحصول على حكم مدينة كابل فقط مع الشيوعيين الأفغان في الجيش والإستخبارات. وتحالفوا معهم في شن حرب أهلية تدمر أفغانستان وأهلها وعقائدها.
وكانت فكرة المصالحة الإسلامية الشيوعية في أفغانستان هي محور المشروع الأمريكي الذي سانده السوفييت عند وصول جورباتشوف إلى الحكم.
وبداية ما علمناه عن ذلك كان ذلك التفاهم بين (أسد بانشير) أحمد شاه مسعود وجيش الإحتلال السوفييتي في أعقاب حملات السوفييت على بانشير والتي على أساسها إشتهرت أسطورة مسعود التي نفخها الإعلام الغربي والفرنسي بالذات لدرجة تصورنا أنها حقيقة ولم نفق على زيفها إلا في وقت متأخر جدا.
وكانت هناك مقترحات بتكوين حكومة إسلامية شيوعية مشتركة يشترك فيها الزعيم الشيوعي القوي بابرك كارمل رئيس جمهورية أفغانستان الإشتراكية آنذاك، مع الزعيم الإسلامي الشاب الأصولي المتطرف!!! قلب الدين حكمتيار.
ثم حاول حكمتيار تنفيذ نفس الفكرة بمساعدة الإستخبارات الباكستان ية عام ١٩٩٠ عن طريق مسرحية فشلت لحسن الحظ وكانت تقتضي أن يقوم رئيس أركان الجيش الأفغاني وهو ماركسي متعصب اشتهر بمجازره الدامية ضد المدنيين الأفغان وهو الجنرال شاه نواز تناي الذي كان من المفترض أن يقوم بانقلاب ضد حكم (نجيب الله) رئيس الجمهورية ثم يعلن تشكيل مجلس ثوري إسلامي ليحكم البلاد مناصفة بالإشتراك مع حكمتيار. فالفكرة قديمة وعليها دارت كل مشاريع الأمم المتحدة لوقف القتال وتشكيل حكومة محايدة أو مشتركة تجمع رموز الإسلام والشيوعية معا.

ومن الطريف أن الإخوان المسلمين الدوليين بذلوا مساعيهم في هذا السبيل وتوالت وفودهم لإقناع قادة المجاهدين الأصوليين بقبول مبدأ المشاركة وعدم الإصرار على الإنفراد بالحكم أو إبراز الشعارات الإسلامية التي تخيف الغرب وتغضبه.
لقد كان من أبرز الوجوه الإخوانية في هذا المضمار هو عدنان سعد الدين، الذي ساهم بجهوده القيادية في تدمير "الحركة الجهادية" في سوريا، وبيعها لصالح

٩٠١٠٠٤ الدين والعرض والمال والقبيلة

النظام العراقي. ولم يكن عدنان هو الوجه الوحيد فقد تعددت الوجوه والإنتماءات القطرية وكان الهدف واحدا وهو الإنصياع للغرب وتقاسم السلطة مع الشيوعيين.
الآن ونحن في خريف ١٩٩٤، تتكرر نفس المهزلة في طاجيكستان، ونفس الوجوه الكالحة تدفع بقيادة حزب النهضة الطاجيكية نحو ترك السلاح ومقاسمة السلطة مع الشيوعيين تحت إشراف الأمم المتحدة وأمريكا والسوفييت.
ونسجل هنا أن مجاهدي أفغانستان خاصة قياداتهم الأصولية برهان الدين رباني رئيس الدولة حاليا ومسعود قائد جيشه وسياف رئيس الوزراء الفعلي والمخطط الحقيقي للمهازل السياسية الأفغانية، هم القوى الدافعة الرئيسية لإحباط الجهاد في طاجيكستان وتدجين المنطقة وحراستها ضد التطرف والأصولية، حسبالمصطلحات الأمريكية، أي وقف حركة الجهاد وتكبيل المسلمين وفتح بلادهم أمام تيارات الكفر والإلحاد والزحف اليهودي عليها.
٤ - الدين والعرض والمال والقبيلة
الدين والعرض والمال والقبيلة ثوابت لا يقبل الأفغاني المساس بها ودون ذلك الموت. وكما ذكرنا فإن محمد نور طراقي المنظر الشيوعي ورئيس أول نظام شيوعي في البلاد لم يكن سوى شخص أحمق ولا يتمتع بمزايا رجل الدولة. فقد أصيب بغرور القوة والثقة المطلقة فيها كوسيلة لتطبيق الإيديولوجيا على أرض الواقع مهما كانت العقبات، فأفرط طراقي في إستخدام القوة وأصابه العمى فوطأت قدماه كل المحرمات الأفغانية: الدين والعرض والمال والقبيلة.
فتحدى الدين بفظاظة وأعلن إلغاءه هكذا بقرار وقتل العلماء وطلاب العلم في مجازر هوجاء رهيبة، ودخل ساحة الأعراض بغباء فأعلن تحرير المرأة وضمان حقوقها بالقانون وقوة البندقية.
فأصبح من حق المرأة أن تختار شريك حياتها وتذهب به إلى أقرب قسم شرطة كي يحرر لهم محضر زواج، مثل أي محضر لحادثة سير، وينتهي الأمر. وأي إعتراض من الأهل فإنه يحل فورا بفوهة الرشاش. ويمكن تصور مدى الجرح الذي أصاب كرامة الأفغان بمثل ذلك القانون.
ولقد أدركت عمق ذلك الألم من حادث عاصرته في شهر رمضان) عام ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م (وكان البطل شاب أفغاني إسمه درويش، وكان من الشجعان المعدودين.
ولكنه كان دائم الصمت نادر الإبتسام لا يجد ذاته إلا في المعارك الحامية فيتحول إلى شعلة من نار وعاصفة قتالية، وما سوى ذلك فهو هادئ وحزين.
في مدينة ميرانشاه الحدودية وفي أحد أيام رمضان، إذ المدينة الصغيرة تحول إلى ساحة قتال و تنتشر الطلقات في كل مكان وتغلق الدكاكين، ويهرع كل إنسان إلى داخل بيته. وكان ذلك حدثا عاديا جدا، ولكن ليس في شهر رمضان. في الليل علمنا أن درويش قد قتل شخصا في السوق.
راعنا الخبر لما نعرفه من دماثة طبعه وهدوئه لقد فر درويش إلى الحدود الأفغانية وألقت سلطات المدينة القبض على أخيه فاروق كرهينة حتى يسلم درويش نفسه "للعدالة".
لكن الحادث أقنع الجميع بأن " العدالة " كانت فيما فعله درويش وتدخلت القبائل لدى الحكومة فألغت القضية وأفرج عن فاروق والسبب هو أن درويش قد قتل زوج زوجته!!
فقبل الإنقلاب الشيوعي كان درويش قد عقد قرانه على فتاة من قريته، ونظرا لضيق ذات اليد فقد تأخر في أخذها إلى عش الزوجية حيث كان منهمكا في العمل لتجميع بعض المال.

ولكن أم زوجته لم تكن راضية عن درويش وحدث الإنقلاب الشيوعي وصدرت قوانين تحرير المرأة ولم تتأخر حماة درويش عن إصطحاب ابنتها إلى قسم الشرطة وعقد قرانها على موظف شيوعي محترم يعمل في المدينة، وأصبح درويش نفسه مطاردا بتهمة معاداة النظام الثوري.

إنقضى على ذلك الحادث ثمان سنوات وأنجبت زوجة درويش ثلاث أبناء من زوجها الشيوعي ولكن الزوج وجد نفسه واقعا في دوامة من الصراع السياسي حيث كان ينتمي إلى حزب خلق الذي قام بالثورة. ولكن التدخل السوفييتي نقل السلطة إلى الجناح الشيوعي الآخر بارشام. ودار صراع حاد ودموى بين الفريقين، إضطر الزوج إلى الفرار نحو الحدود الباكستانية مع زوجته وأبنائه الثلاثة حيث وجد رشاش درويش في إنتظاره كي يثأر لكرامته التي أصيبت بجرح بالغ أضج مضاجع درويش ثمان سنوات طوال.

المال:- أحد المحرمات الرئيسية لدى الأفغان، فمن أجله يفعل أي شيء وللمحافظة عليه يفعل أشياء أكثر. لم ندرك خطورة عنصر المال لدى الأفغان إلا بعد مرور سنوات طويلة من التعامل.

وظهر كم هو جوهري ذلك العنصر الخطير بحيث يمكن من خلاله، وبشيء من حسن السياسة، إنتهاك باقي المحرمات.

فمثلا إذا تم إعطاء الدين والعلماء إحتراما شكليا، وتركت العادات الإجتماعية فيما يتعلق بالنساء والأعراف القبلية على حالها لسنن التطور التدريجي، فإنه بالمال يمكن تسخير الكثير من الأفغان في سلب المعاني الحقيقية للدين والأعراض وحتى القبيلة، خاصة إذا كانت قبيلة أخرى غير قبيلة الشخص نفسه وبالمال يمكن تحريك البعض نحو الإستيلاء غصبا على مال الآخرين وهذا نشاط عادي في المجتمع الأفغاني فقطع الطريق والقتل وسائل شائعة للحصول على المال، سواء مال الضحية نفسها أو مال مدفوع من محرض خارجي.

وعندما عدل الشيوعيون سياستهم وتنبهوا إلى أخطاء البداية البائسة لنظامهم، بدأت شلالات الأموال تنهمر لشراء الأفراد والقبائل، وكانت النتائج مدهشة، ولو أن تلك السياسة بدأت مبكرا منذ بداية النظام، لكانت النقود أشد فعالية وتأثيرا من الطلقات والقنابل. ولكن الوقت كان قد فات على تدارك التصدعات التي إنتهت بانهيار النظام (¬١).

¬__________

(¬١) في حملتهم علي أفغانستان عام ٢٠٠١ م إستفاد الأمريكان من تلك الملاحظة و أشتروا تحالف الشمال المناوئ لطالبان بمبلغ ٥ ملايين دولار فقط، و حتي نهاية الحملة و سقوط حكومة طالبان بلغت الرشاوي المدفوعة ٧٠ مليون دولار، ولم يخسر الأمريكان في الحرب سوي ٢١ قتيلا حسب زعمهم. راجع كتاب صليب في سماء قندهار للمؤلف.

ولكن المال والبراعة السياسية التي أبداها الشيوعيون الأفغان علي المستوى الداخلي والخارجي علي السواء وذلك بالطبع بمساندة السوفييت ثم الأمريكان فيما بعد أدت تلك البراعة السياسية الممزوجة بالعنف العسكري المتصاعد أدت إلى إطالة عمر النظام أربعة عشر عاما كاملة.

وسوف نتكلم لاحقا عن نظام الإستخبارات الأفغاني (خاد) وفعاليته ودوره الكبير في تلك الحرب.

وكيف إخترق ليس جميع الأحزاب الجهادية، بل أن كل بيت في أفغانستان كاد ألا يخلو من جاسوس للدولة حسب ما صرح لي بعض قادة المجاهدين الميدانيين وأيد ذلك شواهد لا تحصى.

لهذا فمن الخطر أن نعتمد في حساباتنا على أن لدينا بعض الشعوب أو المجتمعات الصلبة المحافظة.

فهذه صفات نسبية يسهل تغييرها حتى ولو أقتضى ذلك سنوات طويلة، فقد كان لنا مثل تلك المجتمعات في مصر والشام والعراق فأين هي الآن؟.

فالدول الصليبية لديها الخبرة الكافية والسياسات الملائمة لإحداث تغييرات عميقة في أمثال تلك المجتمعات ولديها ما يكفي من الأموال لتنفيذها وهي أموالنا في نهاية المطاف ولكننا نشنق بها.

وكم أدهشني أن ألاحظ أن الشيوعيين قد نجحوا في إحداث إختراق لأخطر المحرمات الأفغانية، فبعد فتح مدينة خوست (١٩٩١/ ٣ / ٣١) إستولى المجاهدون على أطنان من الأوراق الحكومية كمية ضخمة منها لجهاز المخابرات (الخاد) في بعض هذه الأوراق كانت المفاجأة الكبرى.

فقد إحتوت أحد ملفات الخاد على أسماء عدد من بنات المدرسة الثانوية في المدينة تطوعن لقضاء عدة أيام في الخطوط الدفاعية الأولى

للمدينة بهدف "الترفيه" عن الضباط والجنود. وهن بنات لرجال أذاقوا المجاهدين الأمرين وعرقلوا أعمالهم في كل مجال وكان بعضهم واضح الإرتباط بالحكومة الشيوعية ويعمل ضمن قوة الميليشيات.
وبعد فتح خوست توجه حقاني وآخرون لاستكمال عملهم بالضغط على مدينة جارديز بهدف فتحها قبل شتاء نفس العام. لكن هؤلاء المنافقون إختلقوا مشاكل كثيرة خاصة بالغنائم والسيطرة على الأراضي المفتوحة وقطعوا الطريق على المجاهدين بسبب تلك الخلافات المصطنعة.
وأخبرني حقاني وقتها أنه سوف يلفت نظرهم إلى محتويات وثائق "الخاد"
لا أدري ماذا حدث من تطورات في ذلك الموضوع لكن الذي شاهدته أن تلك المشكلات إنتهت فجأة بدون سبب ظاهر.
ولكنني خمنت وقتها أن ذلك كان ببركة ملفات "الخاد"، إن كان فيها شيء من البركة.
الخلاف والشقاق سمات ثابتة في القادة الأفغان. ومن الملفت للنظر ذلك التشابه الكبيرإلي حد التطابق بين هؤلاء القادة الأفغان (الجهاديين) وقادة الأنظمة العربية من نواحي جوهرية منها:
أ كثرة الخلافات الشخصية وعمقها، وتغطيتها دائما بدعاوى عقائدية أو أخلاقية لا أساس لها في الواقع.
ب التحول من الخلاف الشديد الذي يصل إلي حد الإقتتال المسلح بين الأعوان في الداخل إلى التحالف الكامل المفاجئ ثم الإنتقال بعد فترة غير طويلة إلي الخلاف والإقتتال مرة أخرى.
ت نفس التقسيمات المتناقضة بين معتدلين وثوريين في العالم العربي أو مسلمين معتدلين ومسلمين أصوليين في أفغانستان. وكلا المعسكرين لا يفترق عن الآخر إلا من حيث لون اللافتة التي يرفعها.
ث بعد اكتمال التجربة وأداء الدور المطلوب، يتضح أن كلا المعسكرين المعتدل والثوري أو المعتدل والأصولي، كلاهما مكمل للآخر في أداء البرنامج الصليبي في المنطقة. والمفاجأة الأكثر مدعاة للدهشة هي أن الثوري أو الأصولي كان الأكثر ضلوعا في خدمة الصليبية، على عكس ما كان يتوقع (العوام) أو (المغفلون) الذين هم الجمهور المسلم بكل أسف.
والنتيجة التي يمكن إستخراجها، أنه لم يكن هناك أصلا لا معتدلين ولا ثوريين أصوليين، بل كان هناك عملاء يؤدون أدوارا مرسومة ويلبسون الأقنعة المناسبة لتضليل الجمهور المسلم حسب مزاجية ذلك الجمهور وثقافته. فهو إن كان جمهورا متغربا (مودرن) فالثورية تناسبه أكثر، أما إذا كانجمهورا محافظا منعزلا نسبيا عن مؤثرات الحضارة فالأصولية والعنتريات ذات الصبغة الإسلامية تكون أكثر مناسبة له.
ج صفة عدم الحياء والإعتماد أكثر من اللازم على سذاجة الجمهور الإسلامي وضعف ذاكرته صفة تجمع قادة الأنظمة العربية مع قادة المنظمات الأفغانية، فالذي كان ثوريا إشتراكيا تحول فجأة إلي معسكر الإمبريالية وربيبتها إسرائيل حسب مصطلحات ذلك المعسكر. والذي كان معتدلا صار أكثر إعتدالا وغربيا أكثر من الغرب وإسرائيليا أكثر من اليهود.
وفي أفغانستان مثلا، ما أن إنسحب السوفييت (في ١٥ فبراير ١٩٨٩) حتى تبدلت كثير من المواقف تى أن سياف كبير الأصولية، الذي شبهته صحافة الإخوان الإسلامية بعمر بن الخطاب، كبيرهم ذاك كان يضغط على الدكتور عبد الله عزام حتى لا يتطرق في خطبه في بيشاور إلي موضوع الجهاد بإعتبار أن القضية الآن تحولت إلي مشاكل داخل الأسرة الأفغانية!!، وظل في العلن ينادي بضرورة الحسم العسكري!!. ولكنه عندما وصل إلى كرسي السلطة في كابل مع إخوانه من الأصوليين تحت زعامة المعتدلين الذين مثلهم مجددي رئيس الدولة حينئذ، حتى دفع سياف بذراعه الأيمن (محمد ياسر) معبود الجماهير الإسلامية في بلاد العرب، أن يطلب من ممثلي هيئات الإغاثة العرب

٩٫١٫٠٫٥ مشاكل العمل التنظيمي الجهادي

والمجاهدين العرب إحترام قوانين الدولة واستخدام أوراق رسمية وتأشيرات في أثناء حركتهم داخل أفغانستان. وأشار بتواضع جم أنه قد تنازل بالإجتماع معهم والتبسط في الحديث، في حين أنهم في بلادهم لا يستطيعون مجرد رؤية وزير مثله!!.

و السياسة في الحالتين لا صلة لها بأي مبدأ أو شرع، ولكن المصلحة هي التي تحدد التوجه السياسي. فلا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة بل مصالح دائمة.
فلا الثورية ولا الإشتراكية ولا الإسلام مبادئ أزلية لدى هؤلاء ولكنها المصلحة هي التي تحدد نوع المبدأ الملائم في كل فترة زمنية على حدة.
فالإشتراكي قد يتحول إلي مسلم إذا إستدعت الضرورة وهكذا رأينا صدام حسين يعلن الجهاد عندما إفترسه الغرب في حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١ والمسلم يتحول إلي حليف قوي للماركسية والمرت دين إذا إستدعت الضرورات ذلك أو صدرت إليه الأوامر من الجهات العلياالتي تسيطر عليه وهكذا رأينا أصوليين مثل حكمتيار وسياف وبرهان الدين رباني يتحالفون مع قادة الشيوعية التاريخيين والعسكريين من أجل التمسك بالسلطة أو محاولة الوصول إليها.
ذلك النوع من المشاكل داخل الحركة الجهادية الأفغانية في منشئها ليس خاصية ذاتية لتلك الحركة، بل أن نفس تلك المشاكل قد إعترضت مسيرة الحركات أو المحاولات الجهادية في المنطقة العربية بعد ذلك بعدة سنوات.
مشاكل العمل التنظيمي الجهادي
القضايا العملية تتعلق بمسائل عدة مثل القيادة، وتنظيم العمل الجهادي وقواته العاملة، ومشاكل التمويل.
هذا كله مدخل ضروري لدخول العملية العسكرية نفسها. وبداية تناولها يكون برسم سياسة العمليات أو "الإستراتيجية" العسكرية التي يزمعون تطبيقها على إتساع رقعة البلاد طوال فترة القتال.
ويرافقها في نفس الوقت وضع استراتيجية العمل السياسي ومراحله المتزامنة مع مراحل الإستراتيجية العسكرية. هذه السياسات الإستراتيجية هي مسئولية القيادة العليا.
ومن مسئوليات تلك القيادة أيضا مهام أخرى لا تقل خطورة مثل مراقبة الإلتزام بالخط العقائدي (الإيديولوجي) من جانب الحركة ككل ومن جانب جميع القيادات.
وأيضا مراقبة البناء التنظيمي ورعايته وتجديده وتطويره والمحافظة على فعاليته. والسياسة المالية للحركة هي من مسئوليات القيادة وهو عمل لا يقل خطورة عن غيره من أعمال القيادة ويرتبط بعمق بكل ما سواه من سياسات عملية وعقائدية. فهو يرتبط بالخط العسكري، والتوجهات السياسية، والخط الإعتقادي للحركة الجهادية.
وغني عن الذكر أن قيادة الجهاد في أفغانستان كانت مقسمة إلى قيادات متناحرة. وكل منها كانت صنفا متدنيا للقيادة. فقد مارست فقط صلاحية) الوكيل) عن

٩.١٠٠٦ معضلة الاعداد

القوى الصليبية التي لا تستطيع أن تتحرك مباشرة فوق الأرض الأفغانية أو أن تتعامل مباشرة مع الشعب الأفغاني، لذا فقد كانت في حاجة ماسة إلى وسيط أو وكيل أو عميل سمه ما شئت، حتي ينوب عنها في الإتصال والحركة في المحيط الأفغاني.
وبالتالي فإن كل مهام القيادة العليا والتي تحدثنا عنها قد أنيطت بالكامل للقوى الصليبية أمريكا) وأعوانها (باكستان السعودية تلك القضايا العملية مازالت بلا إجابات شافية على النطاق الإسلامي كله حتى الآن والحركات الإسلامية عامة والجهادية خاصة تعيش أزمة فكر وأزمة قيادة.
وبالتالي فإن كل القضايا الهامة العملية خاصة مازالت معلقة. وكل تجاربنا الجهادية العربية بدأت وهي لا تدري بأنها مطالبة بالإجابة على مثل تلك المعضلات. بل أن تلك المعضلات من المفترض حلها قبل الشروع في العمل الجهادي.
فالحركات العربية الإسلامية تعاني ما تعانى منه الحركة الأفغانية من خلاف نظري حول الجهاد ذاته، وحول مشروعية بدئه لمقاومة حكومة مرتدة. فتلك الحكومات مازالت تمثل أولياء لأمر والشرعية لدي معظم الحركة الإسلامية العربية خاصة الإخوان المسلمين باعتبارها الجسم الرئيسي للحركة الإسلامية هناك. أما عند الإتفاق على شرعية البدء بالجهاد فتبدأ عندها المشاكل العملية والإختلافات حول طرق حلها.

وفي ظني أن حركة الجهاد في أفغانستان لم تعترضها مشكلة شرعية البدء بالجهاد في مواجهة حكومة مرتدة، وذلك نتيجة لأخطاء حكومة نور محمد طرقي وعملها المباشر الفظ لإستئصال الإسلام، بدلا من الإلتفاف حوله وتفريغه من محتواه والإحتفاظ بهيكله فارغا محنطا كما هو حادث في البلاد العربية والبلاد الواقعة بشكل عام تحت هيمنة الغرب الصليبي، وهو الأكثر ذكاء وخبرة في مقاومة الإسلام.

معضلة الاعداد

الإعداد للجهاد يتحول غالبا إلى حيلة لإلغائه عمليا مع الإعتراف به شكليا. ... فما هو الإعداد؟ وما هي درجته؟. هذه مسائل خلافية قد تؤدي كما قلنا إلي إلغاء الجهاد عمليا. وإختلال الموازين المادية بين المسلمين وأعدائهم يشجع على تقوية التيار المنادي بتأجيل الجهاد حتى يتم الإعداد. وعمليا فإن التأجيل سوف يستمر إلي الأبد.

هناك في المقابل دعوة البدء بما هو متاح ماديا في مصلحة المسلمين، فالتأجيل الأزلي للجهاد سوف يعطي الفرصة للقوى المضادة للإسلام كي تقيم أمرا واقعا متينا وتضرب حتى الإمكانات القليلة المتوفرة في أيدي المسلمين كي يبدأوا بها الجهاد.

والبدء الفوري للجهاد يحمل في طياته مخاطر تجاهل المشاكل العملية وهذا ما حدث في جهاد أفغانستان ورغم النجاحات العسكرية التي يصادفها المجاهدون إلا أنه مع الوقت وتدريجيا يفقدون السيطرة على زمام الأمور وتزداد صعوبة إمكانية علاج المشاكل العملية.

وهكذا يصاب العمل العسكري بنكسة وتكون الهزيمة أو أن تنبري قوى أخرى باستثمار نجاحاته والإستحواذ على نتائج تضحيات المسلمين ودمائهم. وهذا ما حدث أيضا في أفغانستان.

وفي واقع الحال فإن قرار الجهاد ينبغي أن يسبق الشروع الفعلي في الجهاد بوقت كاف حتى توضع أساسيات النشاط العملي وقواعد وتصورات العمل المقبل وإستعداداته.

والذي يحدث للمسلمين سابقا وحاليا خلال تجارب هذا القرن على الأقل أنهم يقررون الجهاد فقط عندما يبدأ السكين الكافر في قطع الرقاب المسلمة. عندها فقط يقرر البعض أن يجاهدوا وتقرر الأكثرية قرارات أخرى تتراوح بين الفرار أوالإستسلام أو وهذه مهنة جديدة إستثمار الوضع برمته لمصلحتها الخاصة فتركب موجة الجهاد وتتاجر بها في بازار السياسة الدولية وفي بازار العمل الإسلامي الملتزم.

حدث ذلك أمام أعيننا وتحت أنوفنا مرتين على الأقل، مرة في سوريا و "تجربتها الجهادية" المأساوية، ومرة ثانية خلال نفس العقد في الثمانينات في أفغانستان صاحبة أكبر التجارب الجهادية في القرن العشرين.

وقد نضيف حتى لا تختلط الأمور بأن الإخوان المسلمين هم أصحاب (الفضل) التجاري في الحالتين المأسويتين.

لقد إعترض الإخوان على مبدأ شروع الجهاد في سوريا ولكنه بدأ رغما عنهم وبرشاقة بارعة قفزوا فوق ظهره وباعوه لأنظمة المنطقة وقبضوا الثمن وتم تدمير الجهاد.

وفي أفغانستان إعترضوا على بدء الجهاد قبل إعداد طويل المدى يركز علي جمع الأموال والإتصالات السياسية الخارجية، في حين أن لتلك القضايا أهمية هامشية بالنسبة لقضايا الإعداد الأخرى وعلي رأسها المسائل التنظيمية والعسكرية وتحديد الخطط الإستراتيجية الخاصة بأفرع العمل الأساسية خاصة الفرعين السياسي والعسكري ثم النشاط التمويلي للحركة.

ومرة أخرى فشلوا في السيطرة على زمام الأمور وبدأ الجهاد على يد العلماء وأفراد الشعب الغيورين.

فقرر الإخوان إستثمار الحركة والقفز فوق ظهرها والنزول إلي ساحة المزاد الدولي و قبض الثمن. وتم بيع الجهاد للأيدي الإقليمية الملوثة في باكستان والسعودية ومنها إلى اليد الأمريكية التي تولت بنفسها تسيير الدفة وقيادة المعركة وإستثمار نتائج الجهاد الإسلامي في أفغانستان فكانت أكبر خدعة مأساوية سقط فيها المسلمون خلال هذا القرن.

٩.١٠٠٧ الشروط الثلاثة التي وضعها المعتدلون لبدء الجهاد كان محورها هو استجلاب رضى الغرب

٩.١٠٠٨ (جهاد في الجبال ... وجهاد في بيشاور

٧ - الشروط الثلاثة التي وضعها المعتدلون لبدء الجهاد كان محورها هو استجلاب رضى الغرب:-

للحصول على معونته ولم يكن الغرب وقتها قد قرر إستثمار الوضع الأفغاني في خارج نطاق الحرب الإعلامية بين الكتلتين. وقد رحب الغرب بالمعتدلين كأدوات متواضعة في ذلك المجال الإعلامي.
ورحبت بهم بالتالي الأنظمة الموالية لأمريكا في العالم العربي وفازوا منها ببعض الدعم المالي والإعلامي.
ولحسن الحظ أن هذا التوجه المعتدل لم يرق لحاكم باكستان الجنرال ضياء الحق فقد رأى فيه تجاهلا لمصالح باكستان وأمنها المهدد. وإعتبر أن المعتدلين قد تجاوزوه وتعاملوا مباشرة مع الغرب والدول العربية النفطية، وفي ذلك تهميش مخل بدوره في منطقة سيادته باكستان وفي خلفيته المقلقة أفغانستان. لذلك سادت علاقات الجفاء والريبة بين ضياء الحق و المعتدلين، وإزد اد قربا من المتشددن خاصة حكمتيار في الدرجة الأولى ثم برهان الدين في الدرجة الثانية أما سياف وهو محسوب على المتطرفين فظل ضياء الحق يعتبره ورقة سعودية لذلك لم يعره إنتباها كبيرا.
وما زالت السياسة الإسلامية لجماعات العمل الإسلامي والجهادي ما زالت غير مستقرة إزاء الغرب بقيادة أمريكا متأرجحة بين عاملي المصلحة التي تستدعي التصالح والتفاهم السلمي) جماعة الإخوان (وبين التجاهل التام وقرار التصادم الذي لا يدعمه برنامج تصادمي مناسب جماعات الجهاد بعد عام ٩٣ لم تكن الجماعات المعتدلة على إستعداد للتنازل عن أساسيات عملها الثلاثة، وإستمرت كذلك حتى آخر لحظة من الحرب
وشعرت شخصيا تجاههم بشيء من التقدير لهذا الثبات وتلك "الإستقامة" وإن كانت على باطل. وكذلك لهول الإنحراف والمراوغة التي أظهرها المتشددون الذين رفعوا شعارات إسلامية قوية للغاية، وفي اللحظة المناسبة أظهروا حقيقتهم المخالفة تماما لشعاراتهم المعلنة منذ سنوات.
....
٨ - (جهاد في الجبال ... وجهاد في بيشاور.
وبدلا عن بيشاور يمكن وضع إسم أي مدينة أخرى، أما الجبال فيمكن تركها هكذا بلا تعريف وهكذا تحصل على عنوان دائم لحالة الإنقسام القاتل بين القيادات الميدانية في الجبال والقيادات الإنتهازية "غالبا" والمقيمين في المدن خارج الحدود.
وعانى المسلمون وغيرهم من تلك الظاهرة في الجزائر كان هناك مجاهدون في الأوراس وقيادات إنتهازية تجوب العواصم من القاهرة إلى تونس إلى باريس. وفاز الإنتهازيون على أشلاء ودماء شعبهم وتولوا السلطة وأعادوا البلاد إلى
سلطان الصليبية مرة أخرى كما كان هناك مجاهدون في حماة ودمشق وحلب وقادة إنتهازيون في عمان وبغداد والرياض.
ودارت الحلقة حتى وصلت أفغانستان فكان المجاهدون في جبال الهندوكوش والخونة والإنتهازيون في بيشاور يبيعون ويشترون، لكي تكون نتيجة أربعة عشر عاما من القتال هي خروج السوفييت من أفغانستان ودخول الولايات المتحدة وأممها المتحدة كقوة سيادة لا تنازع داخل أفغانستان الممزقة والمحروقة بالحرب الأهلية.
وكما ذكرنا ورغم روعة القدوة وإنكار الذات والشجاعة الإيمانية لدى قيادات الجبال في الأغلب فإن القيادات المحلية مهما كانت رائعة لا يمكن أن تحل محل القيادة العليا التي تقود العمل الجهادي بأجمعه، فلكل قيادة دورها فالقيادة الميدانية هي غالبا قيادة تكتيكية خاصة بالتعامل مع الأحداث اليومية المتلاحقة، والقيادة العامة العليا تختص أكثر بنواحي التخطيط والعمل الإستراتيجي مع إهتمام أقل بالنواحي التكتيكية، إلا فيما يتعلق فقط بربط العمل التكتيكي الميداني مع الخطة العامة وتصورها الإستراتيجي.
وليس هناك ما يمنع بل أن ذلك ضروري من أن تكون القيادة العليا هي قيادة ميدانية مقيمة في نفس ميدان المعركة. وإذا لم يحدث ذلك لسبب أو لآخر فإننا سنواجه تكرارا لنفس القاعدة ونواجه الإنفصام المشئوم بين قيادات الجبل الميدانية وقيادة المدينة الإنتهازية، أو على أحسن الأحوال التي سوف تصبح كذلك بعد وقت قصير.
ونرى أنه في حال إرغام القيادة العامة على النزوح والهجرة خارج مناطق الجهاد لسبب أو آخر مثل الإصابة أو المطاردة البوليسية، فلا بد أن تخلي محلها لقيادة أخرى ميدانية وتتحول هي مباشرة إلى العمل خلف الحدود في مهام معاونة تحددها لهم القيادة الجديدة للجهاد. وفي حالات نادرة تكون قيادات الخارج مجرد رمز تجتمع حوله حركة المقاومة، وتكون مرجعها الديني أو مخططها الإستراتيجي وموجهها الفكري. ويظل الجانب الميداني وصلاحياته الواسعة باقيا بالكامل في أيدي قيادة ميدانية بديلة.

مرحلة اجتياح المدن

لم يكن الحصار محكما في ذلك الوقت حول أي مدينة أفغانية ويجب ملاحظة تركيب قوات المجاهدين وقدرتها على شن عمليات عصابات محدودة، وعدم قدرتها على خوض عمليات واسعة أقرب لعمليات الحرب التقليدية.

وقد ظل حالها كذلك لسنوات طويلة مع استثناءات محدودة ولكن الذي حدث منذ أواسط عام ١٩٧٩ هو إتساع نطاق الفرار من الجيش وإلتحاق وحدات كبيرة منه بالمجاهدين في الجبال. تلك الوحدات العسكرية أضافت كثيرا إلى الميزان العسكري للمجاهدين وأحرجت موقف الحكومة الشيوعية ودفاعاتها حول عدة

مدن منها العاصمة ولو كان المجاهدون في حالة تنظيمية أفضل لإستطاعوا إنهاء النظام قبل تدخل السوفييت في ديسمبر ١٩٧٩ م ولكنهم لم يستطيعوا إستيعاب القوات المنضمة إليهم.

وكما ذكرنا فإن معظم الضباط غادروا أفغانستان نهائيا، بينما بقي الجنود فترات أطول قليلا في خدمة المجاهدين، وهي خدمة بالمعنى الحرفي مثل الطبخ والغسيل وحفر المغارات والخنادق. وتوجهت أنظار المجاهدين في الغالب، نحو الإستيلاء على الأسلحة والذخائر التي تحملها القوات المنضمة إليهم وتوزيعها كغنائم، سواء تم ذلك بحق أو بغير وجه حق.

والنتيجة أن تلك القوات العسكرية فقدت تأثيرها نتيجة تلك السياسة ولم تستخدم إلا بدرجة بسيطة في الضغط عسكريا على النظام.

ونضيف أيضا عنصر الثقة والكراهية. فقد كان رجال الجبال يكرهون الضباط العسكريين بشكل خاص ويشكون في إنتماءاتهم العقائدية وأنهم شيوعيون. أما الجنود (العسكر) فقد كانوا غرباء عن المناطق التي يقاتلون فيها.

فكانوا محتقرين وينظر إليهم نظرة دونية, ولتلك الحالات إستثناءات عديدة مثل ضباط تحولوا إلي قيادت ميدانية ممتازة أو عسكر تحولوا إلى مجاهدين من الطراز الأول، سواء في مناطقهم الأصلية أو في المناطق التي إنضموا فيها إلى المجاهدين، وبقي بعضهم هناك لسنوات وبعضم أستشهد بعيدا عن موطنه بعد تاريخ جهادي حافل.

.... ١٠

) في ذلك الوقت كان التعاون بين المجاهدين في أعلى درجاته مع وجود إستثناءات أو أخطاء وهذا شيء طبيعي وإن كان ذلك التعاون في حجم متواضع بسبب محدودية الإمكانات المادية أو الخبرات المتوفرة. ولكن في حدود الإمكانات المتاحة فقد كانت المعنويات عالية والتعاون رائعا.

.... ١١

) التواجد الميداني للقيادة له تأثير معنوي ضخم، يؤثر إيجابيا في نتائج المعارك وأصعب الفترات بالنسبة للحركة الجهادية هو فترتها الأولى، التي تعتمد أساسا على معنويات المجاهدين وتماسك القيادة والمثل الذي تضربه بنفسها على أرض المعركة لقد ثبتت الحركة الجهادية في أفغانستان بفضل قيادات كبيرة بارزة ضربت المثال في الشجاعة والتضحية والثبات، ودفعت الثمن غاليا من دمائها وهذه قاعدة لا تتبدل في جميع معارك الحق والباطل.

وهي معارك لا يصلح لقياداتها رجال الفنادق والرحلات السياحية أونجوم الصحافة والإعلام.

.... .١٢

) القيادات الأفغانية الكبيرة فرت من ميدان المعركة إلى بيشاور وبدأت تاريخها الجهادي) (١٢) بالتسول الدولي والوقوف على أبواب المسئولين هنا وهناك، والبحث في الدهاليز عن صفقة يقومون فيها بدور (الوكيل المعتمد) في أحد حلقات الحرب الباردة أوالحروب بالوكالة. لقد رحبت بهم باكستان لإستخدامهم

ضد جارتها اللدود أفغانستان ولكن في نطاق الضغوط السياسية ليس إلا. ومن الطبيعي أن تنسج الإستخبارات الباكستانية خيوطها حول تلك التجمعات النازحة إلي أراضيها وخاصة التجمعات السياسية النشطة.

ومنذ عام ١٩٧٣ وعملية اللجوء السياسي الواسعة من الأفغان النشطين إسلاميا إلى أراضي باكستان في عهد ذو الفقار علي بوتو العلمانى اليسارى فقد إحتضنتهم إحتضان الموت ومن يومها والحركة الإسلامية الأفغانية النشطة وهي مخترقة لدرجة خطيرة بالإستخبارات الباكستانية.

وأكثر رموزها الشهيرة والناشطة هم من رواد تلك الأجهزة الشيطانية، منذ عهد داوود وحتى الآن عهد الدولة الإسلامية في أفغانستان.

ولا يحتاج المسلم إلى ذكاء كبير حتى يضع إفتراضا ولو مجرد إفتراض بأن النشطاء الإسلاميين في حال لجوئهم سياسيا إلى دول خارجية معادية لهم عقائديًا سوف تجرى محاولة تجنيدهم أو السيطرة عليهم أو توجيههم من قبل أجهزة استخبارات تلك الدولة.

والمخلصون الذي سيرفضون ذلك، فإنهم إما أن يتم تجميد حركتهم وزجهم في زوايا النسيان وربما تلفق لهم القضايا ويزجون في أعماق السجون أو يتم طردهم ... وأخيرا قد يتم قتلهم في حوادث لا يعلم أبدا فاعلها.

في البداية ساعدت الحكومة الباكستانية معارضي حكم طراقي وأعطتهم مساعدات مالية وإفتتحت له مكاتبا متواضعة في بيشاور وإسلام آباد العاصمة. وساعدتهم في إصدار نشرات وكتيبات دعائية ضد النظام الأفغاني، ووجهت مسار رحلاتهم الخارجية إلى الغرب والدول العربية لجلب المساعدات المالية والسياسية، وإحراج نظام كابول عالميا.

كانت تلك هي الأهداف الباكستانية ولم يكن من مصلحة باكستان ضياء الحق القيام بأي تصعيد عسكري داخل الأرض الأفغانية نتيجة لعوامل كثيرة داخلية وخارجية.

فتصعيد المواجهة مع نظام كابل العدواني المدعوم مباشرة من السوفييت، سوف يضع باكستان بين فكي كماشة رهيبة: بين الهند والسوفييت. لهذا كانت باكستان معارضة تماما لأي عمل عسكري جهادي داخل أفغانستان.

وبذلت وسعها لحظر حركة الأسلحة عبر الحدود أو أي مظهر يمكن أن تشم منه كابل، والسوفييت، رائحة مساعدة باكستانية للمجاهدين.

وكان المجاهدون يعانون كثيرا في تهريب طلقات قليلة أو كميات تافهة من المتفجرات عبر الحدود من باكستان إلي أفغانستان، وشكلوا من أجل ذلك جماعات خاصة بالتهريب.

ولم تغير باكستان موقفها إلا بأوامر أمريكية عندما غيرت أمريكا موقفها من الحرب الأفغانية وقررت إستثمارها. ولا بد أن نشير إلى أن علاقة أمريكا مع ضياء الحق كانت غير مريحة طوال الأزمة الأفغانية حتى قتلته في النهاية كما سيأتي ذكره لاحقا.

.... ١٣

) ولكن زعماء بيشاور ما زالوا يسخرون مواردهم المالية الضخمة في تكريس هذا الإنفصام إرضاء لنوازع شخصية وأهداف غير إسلامية}.

الموارد المالية المشار إليها كانت ضخمة بمعايير عام ١٩٧٩ م وظروفه ولكنها لم تكن كذلك مقارنة بمرحلة تدويل الأزمة وزحف المليارات إلى خزائن قادة المنظمات.

أما الأهداف غير الإسلامية الواردة، فكانت تعني الأطماع الشخصية التي لا تبالي بمصالح المسلمين. ولم يكن في ذهني إطلاقا في ذلك الوقت تلك الصورة المرعبة التي وصفتها سابقا لضلوع تلك القيادات الأفغانية في مخططات الصليبية الدولية. وأنهم خدعة كبيرة تورط فيها المسلمون.

ويرجع ذلك لقلة خبرتنا في ذلك الوقت بأمثال تلك القضايا وأمثال هؤلاء الزعماء الذين لم نتصور وجودهم أصلا في الوسط الإسلامي الجهادي.

وقد ظهر لنا أثناء وبعد الحرب الأفغانية أن الوسط الإسلامي (الملتزم) و (الجهادي) هم أكثر الأوساط عرضة وإستهدافا لإختراقات القوى الكافرة وأجهزة تجسسها. ويزيد الطين بلة، السذاجة السياسية المفرطة لجمهور تلك الحركات الإسلامية، والعاطفية الشديدة التي تغمر أجواءه، بحيث يسهل على أي نصاب مبتدئ أن يهيج المشاعر ويسحب خلفة الألوف من الشباب إلى حيث الهاوية المجهزة بعناية بالإتفاق بينه وبين قوى التجسس الكافرة.

ليس ذلك دعوة لرفع الثقة وإنتشار التوجس والشكوك بين الإخوة، ولكنه دعوة لزيادة الوعي وإلى مزيد من الوضوح وروح محاسبة المسؤولين ومناقشتهم وليس الإنسياق الأعمى خلف كل ناعق. ودعوة إلى الإهتمام بالموضوع السياسي والتفقه فيه لأنه ملاك الحركة أي حركة والمسيطر عليها.

وخوض السياسة بلا علم بأصولها هو كمن يلقي بنفسه إلى البحرالهائج بغية أن يتعلم السباحة. أيضا ترك السياسة للقيادة تقرر فيها ما تشاء بدعوى أنها تعلم كل شيء، وأن ما لديها علم لا يتوفر لدى الأخرين، وأن خبرتها بالأمور لا يرقى إليها خبرة الأتباع من الشباب حديثي السن عديمي الخبرة، كل ذلك يؤدي إلى الهاوية وقد ثبت ذلك مرارا من تجارب المسلمين القريبة والبعيدة.

لا بد أن يشارك الجميع في الموضوع السياسي للحركة الإسلامية والجهادية ولا يترك ذلك للصفوة كي تحتكره كما إحتكر السحرة في القديم

علوم الشعوذة حتى يسيطروا بها على جمهور الشعب فيقودوه كقطيع من الخراف لخدمة الفرعون.
إن السياسة هي فقه الواقع، وهو جزء مكمل وحيوي لفقه شرائع الدين.
وبدونهما معا لا تكتمل الذهنية الإسلامية، بل تظل عرجاء عاجزة مضللة يسهل خداعها وتسخيرها حتى لخدمة الكفار كما حدث معنا في أفغانستان والبوسنة وغيرها.
والذي حدث في أفغانستان كان مأساة. فقد شاهدنا عددا من الأفاقين عملاء الإستخبارات وقد تم تعيينهم من قبل تلك الأجهزة زعماء لأكبر حركة جهاد إسلامي في هذا القرن، هذا أحد جوانب المهزلة الكبرى.
ثم رأينا أكبر تنظيم إسلامي حركي في العالم يصفق ويزمر ويطبل في أكبر حملة تضليل للرأي العام الإسلامي بهدف ترويج تلك الزعامات الجاسوسية وتقديمها إلى المسلمين كأفضل قيادات إسلامية ظهرت منذ عشرات السنين. بل قارنوهم بالصحابة رضوان الله عليهم (فهذا يشبه عمرا وذاك يشبه أبا بكر) هذا ما فعلة الإخوان المسلمين الدوليين وزملائهم في باكستان من الجماعة الإسلامية التي تعتبر على الأقل في عهد ضياء الحق جزءا لا يتجزأ من أجهزة الدولة، التي لا يمكن بحال إتهامها بأنها كانت دولة إسلامية.
حملة الإخوان الدعائية تبنتها بإنتهازية أوغفلة كثير من التنظيمات الإسلامية الأقل شأنا وإن كانت جهادية هي الأخرى. وعندما وفدت تلك التنظيمات الجهادية العربية إلى الساحة الأفغانية ساحة بيشاور أولا إندمجت في موجة الضلال الأفغانية. فتلك الجماعة بايعت فلانا الزعيم وتلك الجماعة بايعت أو إنضوت تحت لواء فلان آخر من زعماء الجهاد عملاء الإستخبارات.
والنتيجة أن ألوفا مؤلفة من الشباب المسلم التواق إلي الجهاد لحق بالقطيع وكان شعار إلحق بالقافلة شعارا براقا في ذلك الوقت والأصح أنها لم تكن قافلة بل قطعانا، لأن القافلة هي جماعة منظمة للغاية إداريا ودفاعيا بعكس حالنا وحال الشباب العربي في أفغانستان.
هؤلاء الآلاف المؤلفة من الشباب الذين وفدوا وشاركوا في الجهاد آنذاك كانوا يضمون خيرة شباب الأمة وأكثرهم إخلاصا هذا ما أظنه وأحكم به ومع هذا كيف خدع هؤلاء جميعا بواسطة إستخبارات الكفر الدولية والردة الإقليمية؟ ومن المسؤول عن كل ذلك؟. وما هو الضمان ألا يتكرر ذلك في مكان آخر وزمان آخر؟
مرة أخرى لا نغفل أو ننكر النتائج الهامة للإسلام وحركته في عصرنا على أيدي هؤلاء الشباب وما قدموه من تضحيات وأكتسبوه من خبرات أثرت بلا شك على المسيرة الإسلامية في عصرنا الحالي. كما لا يمكن نكران أفضال المجاهدين الأفغان المخلصين على الأمة الإسلامية والعالم أجمع.
.... ١٤
) مرحلة إجتياح المدن الحصينة هي المرحلة الثالثة والأخيرة من حروب العصابات)
الطويلة حسب التقسيم) الكلاسيكي (لمراحل الحروب غير التقليدية. ومن المفروض أن تتضمن هذه الكتب إستعراضا لتلك المراحل وبعض تطبيقاتها في التجربة الأفغانية.
ونعلق هنا على أن ما ورد في التقرير موضع المناقشة لم يكن دقيقا تماما في تلك النقطة لأن المجاهدين الأفغان وحتى نهاية الحرب، لم يدخلوا المرحلة الثالثة بشكل مناسب من حيث المواصفات الفنية التي ينبغي أن تكون عليها قوات المجاهدين في تلك المرحلة.
أما في عام ١٩٧٩ م فكانت الطفرة الحادثة عسكريا ناتجة عن إنضمام قوات كبيرة من الجيش إلى صفوف المجاهدين وكاد ذلك أن يودي بالنظام لولا التقصيرات التنظيمية التي تحدثنا عنها سابقًا، ولولا التدخل السوفييتي الذي أمسك بدعائم النظام المنهار ومنعه من السقوط وأطال في بقائه عدة سنوات أخرى.
أما العقبات الفنية الخاصة بضعف الدفاعات الجوية للمجاهدين فقد تم التغلب عليها بواسطة تكتيكات قتالية وإجراءات وقائية خاصة وهو ما سوف نذكره بالتفصيل أثناء إستعراضنا لعملية فتح مدينة خوست وهو ما يوضح بأن تأثير سلاح الجو والتفوق الجوي والصاروخي هي عوامل محدودة ويمكن مواجهتها، و تلك دروس هامة للغاية بالنسبة للمجاهدين ينبغي دراستها والإستفادة منها في تجاربهم الجهادية القادمة.
ومن المفروض أن نستعرض ذلك ضمن فقرات هذه الكتب من أدب المطاريد.
.... ١٥

المجاهدون هم أكثر الفئات فقرا وأقلها شهرة في العالم الإسلامي وأكثرها تعرضا للتشهير والهجوم.
هذه الظاهرة التي تكررت في تجربة سوريا وتجربة أفغانستان وهي دليل على ضعف أخلاقي داخل الصف الإسلامي وضعف عام في صفوف الأمة.
فالظاهرة الإنتهازية التي تمتطي الموجة الجهادية تتزعمها عنوة وتتاجر بها، هي علامة ضعف أخلاقي داخل الصف الإسلامي.
والأمة التي تقعد عن تفقد أحوال المجاهدين كي تمد لهم العون هي أمة هامدة مخدرة الحواس.
ودفع الأموال كزكاة أو صدقة بدون تحري موضعها لا أظنه يعفي من المسؤولية. والإعلام الإسلامي الذي يخدم أشخاصا أو هيئات وأحزاب أكثر
مما يخدم الإسلام ومصالح المسلمين هو إعلام يدفعنا إلى نفس المهالك التي يدفعنا إليها الإعلام الدولي اليهودي والصليبي.
ولا نتكلم هنا عن ظاهرة إدانة الجهاد نفسه وإطلاق لفظ العنف المسلح عليه، وتسمية المجاهدين بالمتطرفين أو جماعات العنف المسلح.
ولا نتكلم أيضا عن ذكاء من يعترفون نظريا بالجهاد كفريضة إسلامية ثم من جانب آخر يدينون كل من مارس الجهاد بدون تصريح رسمي منهم ومن الدولة بأنه متهور طائش بل متآمر على الحركة الإسلامية وإنجازاتها السلمية ضمن القنوات الرسمية للنظام القائم.
ثم يعرضون خدمات أمنية على النظام كي يعطيهم مزيدا من حرية الحركة كي يقمعوا بصفتهم التيار الإسلامي المعتدل تيار العنف المسلح (أي تيار الجهاد) كل تلك الظواهر التي تقترب من درجة الخيانة أو تتجاوزها ليست محور حديثنا الآن، بل نتكلم فقط عن تيار مخلص ولكنه يعاني من أمراض أو انحرافات أو نواحي قصور يمكن معالجتها مع الزمن أما (الخيانات) فهي من الجنايات
العظمى في جميع الشرائع السماوية والأرضية، وهي تحتاج أما إلى توبة نصوح أو إلى تنفيذ حكم رادع يحمي الأمة من تأثيراتها القاتلة.
....
(١٨) (١٩) من المعلوم أن توفير الذخائر والأموال الضرورية هي من ضمن المطالب الحيوية والمشاكل الهامة التي تعترض الحركة الجهادية ورجال حرب العصبات، خاصة في بداية الحركة و عندما لا تمتلك الحركة عمقا صديقًا يمدها بإحتياجاتها أو بجزء منها.
ومع ذلك تستطيع الحركة الجهادية الإستقلال عن الخارج إلى درجة كبيرة، أو الإستغناء كاملا، إذا توفر الإرتباط القوي بينها وبين شعبها، في تلك الحالة يمكنها الإعتماد على مصادر التمويل المحلية وكذلك الأغذية والذخائر والمعلومات.
وغالبا فإن العمل مع عدم وجود عمق خارجى متعاطف سوف تكون صيغة عمل معظم الحركات الجهادية الإسلامية في وسط حالة العداء الدولي الحالية وتسلط الأنظمة المرتدة علي بلاد المسلمين وتكاتفها مع الصليبية في القضاء على الإسلام و الحركة الجهادية أولا.
إن عمل حركة العصابات بدون ركيزة صديقة مجاورة هو إحتمال ممكن عمليا بل إن النجاح ممكن في تلك الحالة أيضا، مع إعتبار أن عمليات التهريب ولو على نطاق ضيق تكون دوما مستمرة في ظل حالات الحصار و يلاحظ أن وجود قواعد للعصابات إلي جوار السواحل البحرية هو ضمانة لعدم وقوعها في حصار كامل فالبحار من أفضل وسائل التهريب.
ولما كان الوسط الداخلي السكان وتعاطفهم مع المجاهدين أهم من الأرض الصديقة المجاورة فإن القوى المعادية تلجأ إلى سياسة الأرض المحروقة، بهدف إرهاب السكان وتدمير مصادر أرزاقهم ودفعهم إلى مغادرة مناطقهم، فيبقى المجاهدون في الأرض المحروقة التي لا سكان فيها ولا موارد رزق. وتلك من الطرق الناجحة في مقاومة حروب العصابات ويسمونها أحيانا بسياسة (التجفيف) طبقا للإصطلاح الشهير بأن مقاتلي العصابات هم مثل الأسماك التي تعيش في بحار من الناس.
من أجل ذلك فإن المجاهدين ورجال العصابات ينبغي عليهم السعي في إتجاه معاكس لتلك السياسة أي تثبيت الناس في أراضيهم ومساعدتهم على تعميرها والإستقرار فيها بأقل قدر من المعاناة أو بدون تعريضهم لمشاكل لا ضرورة لها.
في زيارتنا الأولى لأفغانستان شاهدنا بعض الإجراءات الجيدة سواء من جانب المجاهدين أو الأهالي تهدف إلي التمسك بالأرض والبقاء فيها وممارسة النشاط الإقتصادي المعتاد من زراعة ورعي وللوقاية من الغارات الجوية حفر العديد من الأهالي مغارات وخنادق داخل البيوت وقريبا منها. وكانت الحياة في وتيرتها العادية تقريبا بعد أن تعود السكان على نمط حياتهم الجديد، حتى أن الأطفال لم يعودوا بحاجة إلي من يرشدهم متى يتوجهون إلي الخنادق والحفر.

أما سلوكيات المجاهدين فقد كانت منضبطة للغاية فلم تتفش الجرائم والإستخدامات الخاطئة للسلاح ضد الأهالي وهم مسلحون أيضا خاصة في مناطق الجبال.

وأذكر أنني شاهدت فتاة في سن الشباب تحمل بعض الحطب وتتحرك وسط غابات الجبال الموحشة خلف غنمات لها. وكان معي عصبة من المجاهدين الذين أشاحوا بوجوههم بعيدا عنها، وكتبت لأصحابي في أبو ظبي خطابا به تعليق عن تلك الحادثة البسيطة كان ذلك عام ١٩٨١ م وقلت لهم أن المناطق التي يسيطر عليها المجاهدون هي أكثر أمنا من أبو ظبي التي لا يأمن أحدنا أن يترك إبنه أو إبنته أمام باب منزله عدة دقائق خوفا من الخطف والإغتصاب وقتها كانت عدة حوادث من ذلك النوع قد وقعت في الإمارات وللأسف الشديد فإن الحال لم يظل كذلك لفترة طويلة خاصة في مرحلة التدويل واستشراء الفساد في الحركة الجهادية، إنطلاقا من بيشاور وزحفا حتى خطوط التماس.

ذلك الفساد ساعد العدو على النجاح في تطبيق سياسة الأرض المحروقة التي فشل في تنفيذها في سنوات الجهاد الأولى ومثل كل الكوارث التي حلت بالجهاد كانت البداية من بيشاور.

فالأحزاب هناك ساهمت بأكبر نصيب في تفتيت الجهاد وتمزيق صفوف المجاهدين تحت رايات حزبية متنافسة بغير شرف أو شريعة.

وقد نال الأهالي لهيب ذلك الخلاف الفوضوي حينما شرعت تلك الجماعات في بسط سلطاتها على الأرض المحررة وسكانها لا من أجل تثبيت السكان وتسهيل حياتهم والدفاع عنهم ولكن من أجل جباية الخراج وتحصيل العشر. واتبعوا في سبيل ذلك وسائلا عنيفة من ضرب وإغتصاب ومصادرة، فوقع الناس بين نارين نار الحكومة الشيوعية ونار المجاهدين المتصارعين الظالمين.

فلجأ الناس إلى الهجرة، وذهب أكثرهم إلى باكستان وبعضهم إلي المدن التي تسيطر عليها الحكومة بشكل كامل. وكانت باكستان أكثر جاذبية حيث تدفقت المعونات على المهاجرين سواء من الهيئات الصليبية أو العربية أو المحسنين العرب.

وكانت النتيجة أن المهاجر يمكنه بقليل من الحيلة أن يحصل على عوائد إقتصادية من هجرته تفوق كثيرا ما كان يحصل عليه من نشاطه الإقتصادي داخل البلده.

فكثيرون سجلوا أنفسهم في أكثر من معسكر للمهاجرين للحصول على معونات مضاعفة، مع دفع شيء من الرشاوي للموظفين الفاسدين من حكومة باكستان.

وكثيرون سجلوا أطفالهم على أنهم أيتام وهم ليسوا كذلك بل سجلوهم في أكثر من مركز وحصلوا على معونات متعددة لقد زادت رقعة الفساد واتسعت حتى غطت معظم الساحة البشرية الأفغانية في المهجر والداخل.

أما من هاجروا داخليا إلى المدن الأفغانية الكبرى فقد تحولوا في أغلبهم إلى جواسيس للنظام الحاكم وتحت إدارة الجهاز الأمني الرهيب "خاد" وهكذا فقد صبت فوضى المجاهدين في نفس مصب سياسة الأرض المحروقة التي نشط

٩٠١٠٠٩ تقرير مراسل الجارديان عظيم الدلالة حاليا كما كان عظيم الأهمية وقت الأحداث

فيها السوفييت وعملائهم الأفغان. وكانت النهاية المحزنة هي هجرة ثلث الشعب الأفغاني خارج أراضيه وكانت أعلى نسبة هجرة في العالم إلى وقتها ٦ ملايين مهاجر.

٢٠ - تقرير مراسل الجارديان عظيم الدلالة حاليا كما كان عظيم الأهمية وقت الأحداث.

المأساوية المذكورة على أرض أفغانستان. وكثيرة هي أوجه التشابه مع ما يحدث حاليا في طاجيكستان فالقوات الروسية حاليا تدافع عن النظام الشيوعي في "دوشنبيه" وتقوم مقاتلاتها وقواتها المسلحة بضرب مراكز المجاهدين وتعلن المرة تلو الأخرى أنها لن تتخلى عن طاجيكستان.

وتدعي أن الدفاع عن حدود طاجيكستان هو دفاع عن حدود روسيا، رغم أن المسافة بين الحدودين هي ٢٠٠٠ كم. ويدعي الروس أن الإسلام هو الخطر الزاحف من طاجيكستان صوب موسكو.

الظرف الدولي والإقليمي حاليا ساعد موسكو في إحتواء حركة الجهاد أو إضعافها بشدة بسبب التحالف الدولي و الإقليمي ضد هذه الحركة وبسبب هشاشة تكوينها.

وموسكو تجد هذه المرة فيطاجيكستان تأييدا أمريكيا وغربيا وعكس ما وجدته من مقاومة في الحالة الأفغانية، بل أنها وجدت مساعدة كبيرة من النظام الإسلامي في أفغانستان نقصد به نظام الرئيس برهان الدين رباني وقائده مسعود، ومستشاره سياف.
أما ملاحظة الأطماع التقليدية للسوفييت في أفغانستان فهي إتهام يمكن تبريره بادعاءات جيواستراتيجية معقولة.
فالجوار الجغرافي والنهم الروسي للمياه الدافئة هي دوافع يسهل فهمها ولكننا الآن نفهم بصعوبة على الأقل أكثرنا دوافع أمريكا للسيطرة على أفغانستان وهو ما تحقق لها بدرجة كبيرة حاليا.
لقد أزيحت الدبابات السوفييتية من فوق صدور الأفغان، وجثم بدلا منها الدولار الأمريكي المعطر بالدماء وبقدر ما أثارت الدبابات حوافز الدفاع عن الأرض والدين والأعراض، بقدر ما خدر الدولار تلك الإحساسات النبيلة واستبدلها بوحشية التكالب على الدولار والسلطة السياسية على حساب نفس المقدسات أي الأرض والدين والأعراض.
وكم تتفطر قلوب هؤلاء الذين عاصروا نفس الحالتين وهم يحلمون بدولة الخلافة التي وعدوا بها وضحوا من أجلها بكل ما يمتلكون من مال ودماء.
....
) ٢١ (تحولت أفغانستان إلى ترسانة عسكرية

٩٫١٠٫١٠ الاسلحة

) كان من السهل إدراك ذلك في وقت المعارك وذلك بمشاهدة ضخامة الآلة العسكرية الشيوعية. وبعد الإنسحاب السوفييتي وحتى إنهيار النظام الشيوعي بعد ذلك بحوالي ثلاث سنوات، قفزت أسلحة الشيوعيين الأفغان نوعيا وكميا.
ولكن إدراك مدى ضخامة تلك الترسانة العسكرية لم يتضح بجلاء إلا بعد سقوط النظام وإستسلام الحاميات العسكرية في المدن.
وقد شاهدت ضخامة الآلة العسكرية لحامية جرديز عند إستسلامها وشاهد آخرون حامية جلال آباد ويقال أنها كانت أضخم من مثيلتها في جرديز بما يتناسب مع تفاوت الأهمية العسكرية للمدينتين. وسمعت من بعض العرب مواصفات الترسانة العسكرية الرهيبة في كابل. بعض التقديرات ذهبت إلى أن مخزون الأسلحة والذخائر في أفغانستان كان يوازي أو يفوق مثيله في الهند.
على كل حال فإن هذا المخزون الذي تركه السوفييت لم يخرج عن الهدف الأصلي الذي من أجله نقل إلى أفغانستان، ألا وهو قتل الأفغان ومحاربة الإسلام في المنطقة. لقد تولت الأحزاب الجهادية متابعة المهمة السوفييتية ولكن تحت إشراف أمريكي هذه المرة الاسلحة
.... ٢٢)
شراء الأسلحة الثقيلة وذخائرها وسحبها من أيدي المجاهدين واحدة من المظاهر الخطيرة التي رافقت الجهاد في أفغانستان منذ بدايته وحتى لحظاته الأخيرة.
واتخذت تلك الظاهرة أشكالا عديدة ولكن لها هدف أساسي إلى جانب تفرعات ثانوية.
والجانب الأساسي في تلك الظاهرة يأتي من حقيقة أن حرب العصابات في مرحلتها الأولى تعتمد أساسا على التسليح الخفيف وفلسفة الحركة السريعة وتفادي المواجهات الحاسمة.
والإنتقال إلى المرحلة الثانية لحرب العصابات يرتبط إلى حد كبير باستخدام الأسلحة الثقيلة لخوض المعارك الأوسع بهدف توسيع مناطق النفوذ والإحتفاظ بالأراضي الأكثر حيوية، وذلك مستحيل بدون قوة السلاح الثقيل.
أما المرحلة الثالثة مرحلة الهجوم الإستراتيجي وتحرير المدن فإن الأسلحة الثقيلة هي العماد الأساسي للعمل العسكري في تلك المرحلة.
من هنا نستنتج أن السلاح الثقيل هو معيار للتطور العسكري لحرب العصابات، وبالتالي فإن سحب ذلك السلاح ومنع المجاهدين بأي طريقة من الحصول عليه بالشكل الكافي كما أن حجب التدريب المناسب على إستخدام تلك الأسلحة والتكتيكات الملائمة لها.
كل ذلك يؤدي إلى عرقلة عمل النجاهدين عسكريا أي جعلهم في حالة تخلف عسكري ودوران في حلقة مفرغة لا نهاية لها من العمليات الصغيرة المجدبة التي تنتهي بحالة إحباط معنوي لدى المجاهدين مع إمكانية تدميرهم عسكريا بواسطة حملات متوالية ومدروسة جيدا من جانب قوات العدو.

والبداية المبكرة جدا والتي أشار إليها التقرير عن سياسة سحب الأسلحة الثقيلة من أيدي المجاهدين يقف وراءها بلا شك جهاز الإستخبارات السوفييتي (كي جي بي (مع منظومة حلفائه.
ومنهم حزب الشعب الباكستاني الذي تحول بعد إعدام ذو الفقارعلي بوتو ... - رئيس باكستان الذي أعدمه رئيس أركان جيشه ضياء الحق واستولى على حكم البلاد فوق جثة رئيسه - ذلك الحزب تحول إلي منظمة إرهابية تدرب أفرادها في الكتلة الشيوعية وعمل تحت إشراف موسكو ضمن معدات الحرب الباردة لزعزعة إستقرار نظام ضياء الحق الموالي لأمريكا.
لقد تحول ولاء حزب الشعب من موسكو إلى واشنطن التي أوصلت زعيمة الحزب بينظير بوتو إلى حكم باكستان فوق جثة ضياء الحق.
وتقوم أمريكا بتوظيف إمكانات ذلك الحزب في الإرهاب وعدائه المستحكم للإسلام في ضرب الإسلام في منطقة جنوب آسيا وغيرها من المناطق.
وقد بدأت في ولايتها الأولى في تفريغ مكاسب الجهاد في أفغانستان من محتواها، وتحويل كل مكاسبه أو ما تبقى منها إلي الأيدي الأمريكية. وفي عهد وزارتها الثانية تولت تصفية التواجد العربي الذي رافق الجهاد الأفغاني.
حزب الشعب قام بتكليف من الإستخبارات السوفييتية بمهمة شراء الأسلحة الثقيلة وذخائرها من أيدي المجاهدين وسحبها إلي أسواق السلاح في مناطق القبائل الحدودية ذات الحكم الذاتي.
أما في عهد ضياء الحق، العهد الذهبي لتدويل القضية وتدفق الإمدادات الخارجية، فقد مارس ضياء الحق رقابة صارمة على نوعية وكمية الأسلحة الثقيلة ضمن استراتيجيته الأفغانية التي لخصها في جملة معبرة لرئيس استخباراته حين قال له: "دع الطبخة الأفغانية تنضج على نار هادئة".
أي أن وتيرة الحرب ومعدل تصاعدها وتطورها يجب أن يكون بطيئا وهادئا ربما حتى يسهل التحكم فيه أو إطفائه عند الضرورة وطبقا للمصالح الوطنية لباكستان أولا ومصالح حلفائها الأمريكان ثانيا.
في تلك الفترة كان ضياء الحق باعتراف ضباط مخابراته الذين تكلموا عن تلك المرحلة كان يحتجز كميات معتبرة من الأسلحة الثقيلة القادمة للمجاهدين، وكانوا يمنعون وصول بعضها، كل ذلك حتى لا يفلت المعيار وتشيط الطبخة من يد الطباخ الماهر ضياء الحق.
وسيلة أخرى إتبعتها أجهزة إستخبارات ضياء الحق وهي وسيلة التدريب علي الأسلحة الثقيلة. وقد ذكرنا كيف كانوا يدربون المجاهدين الأفغان على إستخدام المدفعية بدون أجهزة تصويب!!.
وفي المرحلة الأخيرة من الحرب، حينما شعرت أمريكا أن نظام كابل في طريقه إلي السقوط خاصة بعد إنسحاب السوفييت ومصرع ضياء الحق دفعت الإستخبارات الباكستانية إلى سحب ذخائر الأسلحة الثقيلة من الأسواق الحرة للقبائل ومن داخل أفغانستان، وبالفعل تحرك عشرات من تجار القبائل يجمعون

٩٠١٠٠١١ (الدعم الباكستاني للافغان والدعم الافغاني للطاجيك)

تلك الذخائر من داخل أفغانستان وبيعها مرة أخرى للإستخبارات الباكستانية بأسعارمجزية.
وحتى بعد سقوط النظام حركت أمريكا حملة دعائية محمومة حول صواريخ (ستنجر) الأمريكية، وطالبت الإستخبارات الباكستانية بتجميعها وتحرك تجار السلاح القبائليون وجمعوا ما استطاعواتجميعه من تلك الصواريخ وباعوها للإستخبارات الباكستانية التي أعادت بيعها للإستخبارات الأمريكية مع تحصيل عمولات مجزية.
تلك السياسة كانت ضمن عوامل إطالة مدى الحرب الأفغانية، وبالتالي زيادة تكاليفها من الدماء والأموال كما أدت إلى خراب إقتصادي مدمر للمجموعات القليلة المخلصة التي كانت مضطرة لشراء تلك الذخائر لاستخدامها في معارك تحرير المدن وقد عانت المجموعات العربية العاملة عسكريا في تلك الفترة من جراء تلك السياسة واستنزفت معظم مواردهم المالية في شراء ذخائر ثقيلة لعملياتهم العسكرية، وكذلك لحلفائهم الأفغان -فى جلال آباد بشكل خاص -الذين إعتمدوا كليا على العرب في شراء تلك الذخائر حتى أن كثيرين تحولوا إلى إحتراف عمليات نصب وإحتيال للحصول على الذخائر من العرب ثم تسريبها مرة أخرى إلى التجار وبيعها لهم فيضطر العرب لشرائها مرة أخرى وهكذا. (١٦)

(الدعم الباكستاني للافغان والدعم الافغاني للطاجيك)
.... ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦)
لم تتحرك باكستان لمساندة الشعب الأفغاني في محنته إلا بناء على أوامر أمريكية. وقد أصر ضياء الحق على إبتزاز أمريكا إلى أقصى مدى مستطاع للحصول منها على كل ما يقوي مركزه في حكم باكستان ويزيد من قيمته في المنطقة والعالم.
وقد نجح في ذلك كما لم ينجح أي حاكم في العالم الثالث. وقد كافأته أمريكا في نهاية الأمر بتفجيره في الجو مع كبار جنرالات الجيش والإستخبارات. الموقف غير الأخلاقي لباكستان (الحكومة على الأقل) هو في الأعراف السياسية موقف طبيعي حيث أن المعيار هو المصلحة وليس المبدأ. ففي بداية الأزمة لم يجد المهاجرون خياما أو معونات إنسانية في انتظارهم فيما عدا القليل من التبرعات الشعبية التي نشطت فيها هيئات خيرية وإسلامية بل وجد المهاجرون بيوتا بالإيجار وكأنهم موظفون في الدولة. أما المجاهدون فقد كانوا يعتمدون على نظام التهريب عبر الحدود الجبلية من أجل الحصول على كميات ضئيلة من العتاد.
لقد كانت تلك المواقف غير الأخلاقية مثار نقمة الشعب الأفغاني والمتعاطفين معه إسلاميا.

____

(¬١) أنظر كتاب الحماقة الكبرى
ولكن ماذا عن موقف الحكومة الأفغانية الإسلامية بعد تحرير أفغانستان، من إخوانهم الطاجيك الذين واجهوا نفس المحنة من الشيوعيين في خريف عام ١٩٩٢ م؟.
ما هي المساعدات الإنسانية أو العسكرية التي تلقوها من أفغانستان الإسلامية المجاهدة؟ لا داعي لأن نسأل عن عدد النساء اللاتي أنتهكت أعراضهن والرجال الذين قتلوا من أجل سلب أموالهم، ومصادرات أموال المهاجرين الطاجيك تحت تهديد سلاح (المجاهدين (الأفغان على الشاطئ الآخر من نهر جيحون.
كم من المعايير الإسلامية إحترمها العديد من الأفغان عند تعاملهم مع مسلمي طاجيكستان من مهاجرين ومجاهدين؟.
إن المقارنة بين ما فعلوه مع الطاجيك وما فعله الباكستانيون معهم هي مقارنة في صالح باكستان رغم كل النذالة والوضاعة التي ميزت مواقفها الرسمية، واللامبالاة والسلبية التي غطت مواقفهم الشعبية. هذا مع إستثناءات في الأوساط القبلية التي كانت أشرف موقفا من باقي الفئات.
ولا يمكن أن ننسى مواقف رائعة من مسلمي باكستان في مناصرة الأفغان بالمال والدم. وكذلك مواقف رائعة من أفغان قاتلوا ببطولة وفدائية مع إخوانهم الطاجيك
إن هذه الصور المشرقة هي مما يبعث الأمل في أن الخير في أمة الإسلام موجود إلى يوم القيامة.
ولكن للأسف فإن المساحات المظلمة من الصورة هي أكبر بكثير من المساحات المضيئة.
أما حادثة الطيار الأفغاني الذي فر إلى باكستان بطائرته ثم أعادته الحكومة مع طائرته كي يقتل في كابل، فلم أعلم مزيدا من التفاصيل التي تؤكدها، وإن كانت غير مستبعدة في عالم السياسة، فحكومة باكستان في عهد بينظير هي التي شاركت في إغتيال الشيخ عبد الله عزام عام ١٩٨٩ م وهي التي طاردت العرب وشردتهم وسجنت عشرات منهم ولفقت القضايا المزورة ضد عدد منهم في أعوام ١٩٩٣ م ١٩٩٤ م.
دور ايرانفي الجهاد الأفغاني
.... ٢٧٠
أبدت إيران في بدايات ثورتها تعاطفا ملحوظا مع الأفغان من مهاجرين ومجاهدين وعلمت أثناء زيارتي إلى أفغانستان عام ١٩٨١ أن حزب إسلامي) حكمتيار (قد تلقى معونات مالية وأسلحة من إيران وليبيا. ولم يتأكد ذلك النبأ إلا من مصدر وحيد وإن كان له شواهد تؤيده.
العمل الاغاثي
.... ٢٨
مسميات مثل: دول إسلامية- حكومات إسلامية- صحافة إسلامية- صحوة إسلامية -هيئات إسلامية ... الخ تحتاج إلى كثير من التمحيص بل إلى التبديل لأن أكثرها يحمل من الخداع والتضليل أكثر مما يحمل من الحقيقة.

وقد أوضحت أحداث أفغانستان وما بعدها أن (الدول الإسلامية) ليست لها سياسة مستقلة، أو توجهات عقائدية. وأنها ليست إلا دمى في مسرح العرائس الدولي وكذلك هيئاتنا الإسلامية خاصة الإغاثية ولذلك حديث آخر.

.... ٢٩

أموال فاعلي الخير هو موضوع يستحق وقفة منفصلة، ونقول الآن بأن ذلك المصدر كان هاما ومؤثرا في الحرب الأفغانية. ولكن قليل منه تم توظيفه في الأوجه الشرعية الصحيحة.

وعلى هامش تلك الأموال نبتت كثير من الطفيليات السامة والأعشاب الضارة التي إنتفخت بأموال المسلمين ود ماء المجاهدين. لقد ترعرعت فئة جامعي التبرعات التي كانت في أغلبها فئة من الأفاقين والمحتالين، باستثناء ضئيل للغاية لقلة بذلت المستحيل للوقوف في وجه شلالات الإنحراف والإفتراء.

هذه الظاهرة الضارة ظهرت قبلا في التجربة الجهادية في سوريا، وذهبت أموال المسلمين إلى الخونة الذي باعوا الجهاد وتحالفوا مع الشيطان في بغداد وعمان وتضخمت تلك الظاهرة مرات عديدة في التجربة الأفغانية وكانت نتائجه أشد ضررا.

ومع هذا فإن القليل الذي نجا من أموال فاعلي الخير كان له نتائج باهرة، ونستطيع القول أن ذلك النذر اليسير كان له دور كبير جدا في مساعدة القلة المجاهدة النادرة على إسقاط النظام الشيوعي في كابل والمدعوم أمريكيا وروسيا وخليجيا ودوليا.

.... ٣٠

رعاية أسر المجاهدين والشهداء موضوع إنساني إلى جانب كونه موضوعا معنويا يتعلق بالإستقرار النفسي للمجاهدين وإطمئنانهم على إستقرار أسرهم فمن مسؤوليات قيادة الجهاد العناية بذلك الأمر.

وأوضحت التجربة الأفغانية أن العمل الإغاثي الذي يدار بواسطة قوى معادية للجهاد أو غير مبالية به، كما حدث في أفغانستان، فإن نتائجه تكون ضارة بالجهاد ونشاطه القتالي. فكما رأينا أن الفوضى الإغاثية التي مارستها مؤسسات الإغاثة الصليبية والعربية كانت بيئة لتنامي الفساد وخراب الذمم. كما كانت عاملا جذب للشعب الأفغاني وتفريغ الأراضي المحررة من سكانها

وأوضحت أفغانستان أن تسمية (منظمات إغاثة إسلامية) هي من ضمن المسميات المكذوبة. فالإغاثات الإسلامية كانت (حكومية) حتى النخاع وخاضعة لمطالب حكوماتها. وبعضها مارس أعمالا تجسسية ضد المجاهدين وبطلب من حكومات بلاده. وقد تولى كثير من عناصر الإستخبارات العربية مناصب بارزة في تلك الهيئات (الإسلامية) ونستثني من ذلك منظمة واحدة هي (إسرا) التي حملت طابعا إسلاميا حركيا متعلقا بالتحرك الإسلامي في السودان.

لذلك عانت من العزلة ومختلف الضغوطات ومع ذلك قدمت الكثير من الإسهامات البارزة والوضع الأمثل أن توضع الإعتبارات الجهادية في مقدمة أولويات العمل الإغاثي بحيث يتكامل العملان.

وعلى سبيل المثال فإن الخدمات الإغاثية لا بد أن تعطي أولوية مطلقة لعائلات المجاهدين وأسر الشهداء وبعد ذلك إحتياجات باقي الفئات وللوصول إلى ذلك الهدف لا بد أن تكون عمليات الإغاثة في أيد إسلامية مخلصة تابعة لقيادة الجهاد أو تعمل بتنسيق وثيق معها.

ولكن الذي ظهر في أفغانستان هو سيطرة الصليبية الدولية على جوهر العمل الإغاثي وتوجيهه الشكل الذي يتفق مع مصالحها ويوقع أكبر الضرر بالمسلمي. وآثار الصليبية ومآسيها التي أوقعتها بالشعب الأفغاني بواسطة نشاطاتها الإنسانية و لإغاثية في أفغانستان تحتاج إلى مجلدات لشرحها.

....

تميم العدناني

عند نهاية زيارته الجهادية الأولي في الأورجو (تصوير المؤلف)

تعليق الصورة: خوست فى بداية التسعينات:

أجيال من المجاهدين .. الجيل الأول"يسار" أبو معاذ الخوستى أفضل قائد عربى للعمليات الأرضية. تابع حكمتيار حتى الموت فى قتال كابول بين التنظيمات والعرقيات والطوائف الدينية.

مع الجيل الجديد "يمين " أبو مصعب الزرقاوى أشهر قائد عربى فى عراق الإحتلال الأمريكى. مرة أخرى: المجاهدون العرب فى مصيدة الحرب الطائفية والعرقية وسط مجاهل سياسية تعصف بهم. فمن المسئول عن أزمة العمل الجهادى العربى؟.